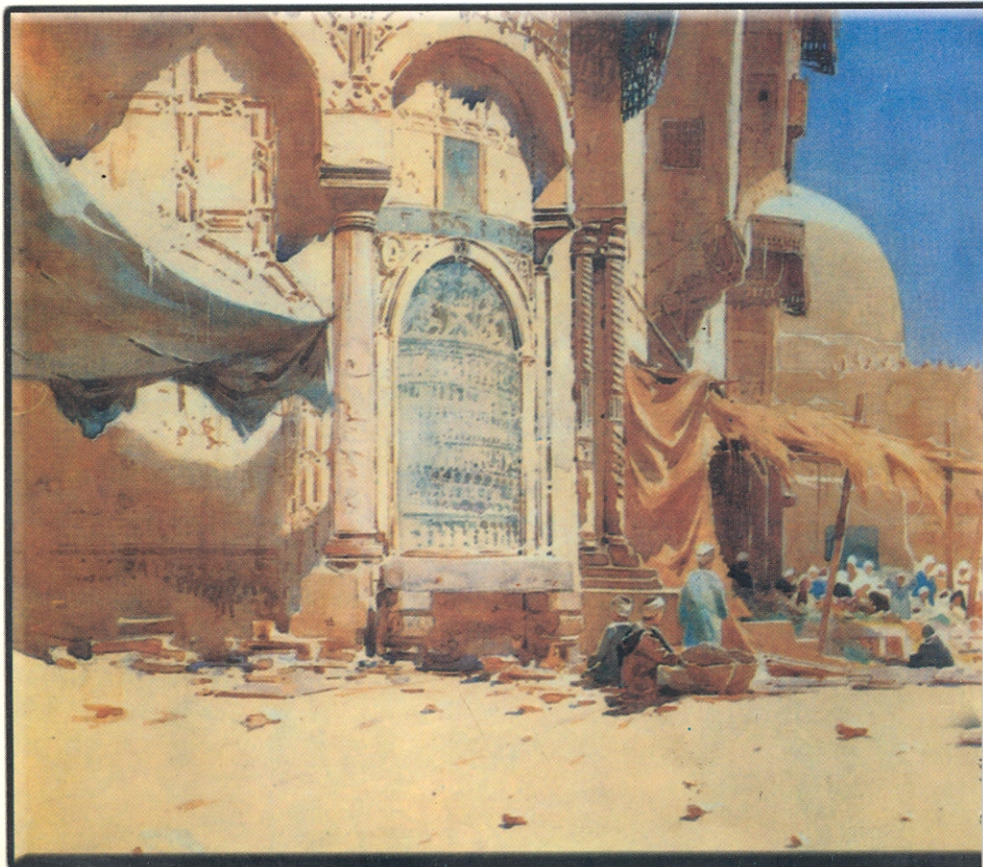


هوا مش الفسحة العزى لمصر

• حكايات الدخول
• رحلة الإنصهار



سَناء المصري

قوامش الفصح العربي عصر

حكايات الدخول

رحلة الاضهار

الكتاب : هوامش الفتح العربي لمصر

مطابع الدخول

رحلة الإسماعيل

الكاتبة : سناء المصري

الطبعة الثانية ٢٠٠٤

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : الشعاع للنشر

المدير المسؤول : عمرو بيومي

رقم الإيداع : ١٣١٧١ / ٢٠٠٤

١٥٦ ش الملك فيصل - برج الفرقان

ت : ٧٤٠٠٢٢٨ - ٠١٢٢٧٢٠٥١٣

الغلاف : وليد سيد

الإخراج الداخلي : حسام محمد

مقدمة حكايات الدخول

لم تكن مصر بلداً غريباً على العرب قبل الفتح ، وكان تجار قريش يأتون إليها حاملين بضائع الشرق من اللبان والبخور والتوابل والفضة والحريز ، فيبيعون بضائعهم ، ويشترون منها الثياب الغالية ، أو ما يعرف بالقباطي والمشغولات والزجاج ، بالإضافة إلى أنواع الطعام المختلفة وخصوصاً القمح والذرة. ويذكر البغدادي أن « هاشم بن عبد مناف » جد النبي الأكبر قد هلك في غزاة — على أبواب مصر — كما يذكر أن « المغيرة بن شعبه » قد دخل مصر كثيراً قبل إسلامه، وكان آخرها تلك الرحلة التي سبقت إسلامه مباشرة ، وكانت رحلة دامية قتلَ فيها المغيرة أصحابه من بني مالك طمعاً فيما يملكون بعد أن منحهم مقوقس مصر هدايا كثيرة غالية الثمن ، وطمع فيها المغيرة واحتال حتى قتلهم ، وسلب ما معهم ، ثم لجأ إلى النبي معلناً إسلامه !..

كما دخلها « عمرو بن العاص » ووصل إلى الإسكندرية محملاً بالعطر والآدم (الجلود). ويذكر بعض المؤرخين أن معرفته الكبيرة بطرق مصر وأخبار مدنها ومكامن ثروتها يعود إلى تلك الرحلات التجارية أيام الجاهلية .

وفى العموم ، كان تجار قريش يعرفون مصر معرفة كبيرة قبل الإسلام ، خصوصاً بعد أن تعاضم دور مكة في التجارة الدولية في القرن السادس الميلادي ، واستفادت كثيراً من النزاع الطاحن الذي كان يدور بين الدولة البيزنطية غرباً ، والدولة الفارسية شرقاً (لمزيد من التفاصيل ، انظر إيلاف قريش) .

وعبر التجارة بين الشرق والغرب حمل العرب معارف الجانبين ، كما حملوا ثرواتها ، وصارت مكة — الوادي غير ذي الزرع — عاصمة ثراء الجزيرة العربية من كثرة ما يرد عليها من كنوز الشرق والغرب . وكما يذكر البلازى في (كتاب فتوح البلدان) أن ننانير هرقل كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية ،

وترد عليهم دراهم الفرس البغلية فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر . وصار كل « قرشي إما تاجرا أو وسيطا » .

ولأهمية التجارة البرية في هذه الفترة نشأت على طريق القوافل ، من مصر إلى الجزيرة والعكس ، عدة محطات وأسواق تجارية ازدهر بعضها واصبح له شهرة تجارية واسعة ، مثل مدينة « نصتان » الواقعة بين غزة وأيلة شرق العريش على الحدود بين الدولة البيزنطية المهيمنة على المنطقة وشبه الجزيرة العربية . ويبدو أن سوق نصتان التجاري الضخم كان يخضع لسيطرة او احتكار تاجر مصري ، كما يقول مصطفى العبادي في دراسته عن مدينة نصتان .

وفي العموم ، كان (البيزنطيون يلزمون التجار الوافدين ان تمر بضاعتهم عبر مراكز مخصوصة يشرف عليها موظفون مائةون ٢) لضمان أداء الرسوم الجمركية ، وكانت تلك الأسواق مواطن تماس بين التجار العرب وغيرهم من الشعوب ، فتتزل القوافل رحالها ، وتترك الجمال في الظل ، ويعرضون بضاعتهم، ويتبادل الناس الأخبار ، وينفعون ضرائب المرور للدولة البيزنطية ، ويلبثون الليل في فندق أو خان بسيط البناء ، ثم يعاودون الخوض في آفاق الصحراء المجدية ، وأحيانا كان الطريق البري الذي تسلكه قريش يمتد من عدن جنوبا حتى غزة شمالاً فيما يعرف بالطريق التهامية ، أما الطريق البري من مكة إلى فلسطين ومنها إلى مصر فكان يعرف بالطريق التبوكية ويمر قريبا من المدينة المنورة ، أو يثرب في ذلك الحين ، ويستغرق تطعه قريبا من حوالي شهر في الذهاب وآخر في الإياب .

١ فيكتور سحاب : إيلاف قريش - رحلة الشتاء والصيف ، دار الساقي ، لندن ، ١٩٩٣م

٢ مصطفى العبادي : موقع مدينة نصتان في ضوء الوثائق البردية قبل الإسلام .

وحينما تعود القوافل إلى مكة كان الجميع يحتشدون فيما يشبه الاحتفال: (فتتقدم الجمال متهادية .. وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلو جرام من البضاعة وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة ، ونادرا ما كان الرجال يصلون أصحاء ، بل متعبين ومنهكين وقد لوحت وجوه الشمس وشقق العطش شفاهم) من آثار السير في الصحراء والقفار المهلكة ، فيتلقف الناس بضاعة الشام ومصر ، وتزدهر الحياة التجارية ، وتتعدد مجالس السمر والأخبار في مننديات مكة وأسواقها الثقافية ، وتدور الحكايات عن حضارة مصر وروعة مدنها وخصوما مدينة الإسكندرية التي أفاض خيالهم في وصف عظمتها.

وبخلاف الطرق البرية من وإلى جنوب الشام ، كان هناك طريق بحري يربط الجزيرة بمصر مباشرة حيث ترسو المراكب البسيطة الصنع في ميناء القلزم (السويس اليوم) على شاطئ البحر الأحمر . وكان التجار يصدرون منه الذرة المصزية ومختلف أنواع الحبوب إلى الحجاز واليمن.

وكان التجار يتخذون من مدينة « قفط » الصعيدية مركزاً لهم منذ أزمان بعيدة، حتى أن المؤرخ الجغرافي « سترابون » الذي زار مصر في أوائل العصر الروماني في القرن الأول قبل الميلاد ، يقول عنها : إنها مدينة نصف عربية لكثرة ما رأى فيها من الأعراب والتجار الذين كانوا يأتون إليها عبر وديان الصحراء الشرقية والبحر الأحمر ، كما كانت الإسكندرية مركزاً لكثير من التجار العرب الذين يتبادلون البضائع مع التجار اليهود والرومان وغيرهم.

وخلال هذا التبادل التجاري ، عرف العرب ظاهر مصر ، ولمسوا بعضاً من حضارتها ، وظلت في خيالهم رمز الوفرة والازدهار ، وظل مجيئهم إليها لا ينقطع في رحلات أحادية الجانب من شبه الجزيرة العربية إلى الشام ، ثم إلى مصر ، والعودة دون أن يشاركون أبناء هذه البلاد في رحلات مماثلة إلى بلاد الجزيرة ... وان صادفنا بين الحين والآخر وجود بعض التجار الرومان هناك.

ونادراً ما كان المؤرخون ينكرون إقامة مصري في مكة ، وإذا وجد فهي استثناءات قليلة جداً ، كما حدث مع النجار القبطي ، الذي ذكر «الأزرقى» عنه انه شارك في بناء الكعبة حينما غمرها طوفان السيول ، فأخذت قريش الأخشاب اللازمة للبناء من حطام سفينة رومانية كانت غرقت في ميناء الشعيبية قرب جدة . ويؤكد « الكندي » ذات الواقعة بقوله : أن (البيت هدم في الجاهلية فولت قريش بناء رجلا من القبط يقال له « بقوم » فأدركه الإسلام وهو على ذلك البناء)^١.

ولم يذكر لنا المؤرخون أية تفصيلات عما إذا كان هذا النجار دائم الإقامة في مكة ، أم أن أهل مكة قد استدعوه للقيام بتلك المهمة .

والأغلب انه قد تم استدعاه لما عَرف من المصريين من مهارات في البناء والنجارة والتشييد . وفي إشارة عابرة نجد ذكراً لقبطي آخر يدعى « أبو رافع » ، وكان عبداً للعباس عم النبي ، ثم أهداه العباس إلى النبي الذي أوقفه على زراعة ارض العالية في يثرب ، ويقال ان ارض يثرب كانت الزراعة تقوم فيها عموماً

١- الكندي : فضائل مصر ، ص ٢٨ .

بأيدي العبيد المشتريين من الشام والعراق ... ثم نجد هذا القبطي يقوم بذات المهمة^١.

ولا يمكننا بناءً على هذه الإستثناءات النادرة أن نرصد رحلات مصرية إلى شبه الجزيرة العربية ، والحالتين السابقتين من الأمثلة النادرة في إطار المصادر المتاحة أمامنا حالياً .

حتى ظهرت في هوامش السيرة النبوية قبطية مصرية ، بل قبطيتان ورجل ، قدر لهم أن يدخلوا بيت النبي صدقة ، ومن ثم حصلوا على تصريح دخول التاريخ العربي من زاوية أوسع قليلاً ، ولكن دون الإقاضة في ذكر تفاصيل حياتهم ، وتتبع نشأتهم بسبب اندراجهم تحت طائفة العبيد والجواري غير المستحقين لمكان الصدارة ، أو غير المستحقين للاهتمام الكافي من المؤرخين العرب .

وتأثير تجربة القبطيتين والرجل في بلاد العرب كان قاصراً على الدوائر المحيطة ببيت النبي فقط ولكنه كان تأثيراً اعمق من تماس التجارة السريع والمبالغات الناتجة عنه ، وبالإضافة إلى انه يعتبر مقدمة التماس الأكبر القادم مع سنايك الخيل ، ووقع أقدام الجنود أثناء الفتح العربي لمصر .

وإذا قارنا تفاصيل التلاقي المصري / العربي ، والعربي / المصري ، سنلاحظ الاختلاف الجذري بين اللقاعين ، حيث ذهب الطرف القبطي في المرة الأولى إلى بلاد العرب رغماً عنه ، وأجبر على الدخول في نسق قيم ومعتقدات الوسط الجديد ، وضرورة التخلي عن معتقداته الأولى . وفي المرة الثانية حشد العرب حشودهم مع الجيش الإسلامي ، ودخلوا مصر ، ثم لم يخرجوا منها ثانية

١- يقول اليعقوبي في تاريخه : إن أبا رافع مولى النبي هو قبطي أهداه المقوقس ، والأصح رواية الكندي ، لأن المقوقس أهدى قبطاً آخرين للنبي ؛ ليس بينهم أبو رافع - فنظر تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثاني ، ص ٧٠

مع احتفاظهم بجسور الصلة المفتوحة مع بلاد العرب ، فلم تتوقف الهجرات الجماعية لقبائلهم طوال القرون الأولى من التاريخ الهجري .

ووطد العرب سيطرتهم على البلاد التي صارت فيما بعد عربية ... ومع الافتح وبدايات الاستيطان نجد أنفسنا أمام درجة أعلى من التماس بين العرب الوافدين على صهوات الخيول شاهرين السيوف والرماح ، وبين المصريين العزل ... ؟ فكيف كانت المواجهات الأولى ... ؟ وكيف كان تصور كل طرف عن الآخر ..

؟ وما الذي حدث حقيقة في اللحظات الأولى للفتح قبل أن تستقر الأمور للعرب . أمور شائكة مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً ، وأمال التاريخ على تفاصيلها رماده الصعب .. وآثارها القليلة لا زالت تُروى وتتداول من خلال صوت رسمي ووحيد للمنتصر الغالب الذي استقرت له الأمور وانكمش أمامه الطرف الآخر رويداً .. رويداً ، وانكمشت معه زكرياته حتى كادت أن تمحى من كثرة التجاهل والنسيان .

والآن ، هل نكتفي بمجرد ترديد ما سبق قوله ملايين المرات ، ونسعد بالدوران في نفس الفلك المعتم ... ؟

أم نحاول أن ننبش معاً زكريات الطرف المنسي ، ونُخرج بقايا أوراقه قبل الافتح وبعده .. ؟

ونظراً لاتساع المدى الزمني السابق على حدوث الانصهار بين العرب والمصريين ، وكثرة أحداث هذا الزمن ، سنكتفي بدراسة أحداث القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ ... لأنها الفترة التي شكلت مقدمة الانصهار الإجباري ، وجسدت طرق القضاء على مقاومة الطرف المغلوب .

وسوف نحاول تتبع تفاصيل تلك الأحداث ، ليس من خلال المصادر العربية فقط ؛ ولكن مما تيسر من بقايا الصوت القبطي المعاصر للأحداث ، أو الوارث لها بعد ذلك.

وبمضاهاة الصوتين العربي والقبطي ببعضهما ؛ ربما نصل إلى صورة تقريبية لحقيقة تلك الفترة المزججة بالتفاصيل والصراعات.

سنمشي على رمال متحركة إذن .. ونجمع شذرات متفرقة على الجانبين ، ونبحث عن إشارات تلمع بين سطور السياق العام الذي يتواطأ عليها ليخرسها ويطفئها.

وما ينتج عن ذلك سيكون مجرد محاولة لاستنطاق الصوت المكتوم تحت الركام الرسمي منذ آلاف السنين ...

الفصل الأول

مارية القبطية ..
غربة حتى الموت

مارية القبطية : جارية النبي المصرية المنتزعة من بيتها الطبيعية بقرية صغيرة من قري مصر ، والمهدة إليه في صحراء العرب البعيدة قبل الفتح العربي لمصر بأكثر من عشرة أعوام ، تلك المرأة المشهورة المجهولة ...؟ هل كانت تعي أنها تحولت إلى جارية لرجل لم تره من قبل حتى ولو قالوا لها في الطريق انه نبي ... ؟ كيف انتزعت من بين القرينات والأهل لتصبح جارية في بلاط المقوقس يفعل بها ما يشاء ...؟ كيف تحولت من حرة إلى عبدة ؟ ومتى حدث ذلك؟ هل سمعت من قبل عن مكة والمدينة والعرب والصحراء ؟ وكيف صورتهم وهي الآتية من بلد المزارع الخضراء المترامية الأطراف ، والنيل ، ووفرة المحاصيل والقرى الراسخة منذ آلاف السنين تجاورها المدن وعواصم الأقاليم ذات الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة والحمامات والمسارح والجيمانيزيمات ؟

وإذا عرفنا أن ماريا لم تكن وحدها في هذه الرحلة إلى المجهول ، وأنه كانت تشاركها ذات الظروف والمخاوف والمخاطر والمصير أختها سيرين ... لتمنينا أن نعرف نوع الحوار الذي دار بينهما في تلك اللحظات الحاسمة ، وأن نرقب نظرات عينيها وخفقات قلبيها ، بالإضافة إلى رصد انفعالات هذا القبطي المرافق لهما ، والذي تقول عنه بعض الكتب أنه أخوها ، وبعضها الآخر يرى أنه كان نسيباً أو قريباً لهما ، وأنه كان خصي ويدعى « مابور » ، والمصادر التاريخية جميعاً لا تكاد تشفي نهما لمعرفة حقيقة ما حدث لتلك القافلة الصغيرة : (مارية - سيرين - مابور)، يقودهم عربي غريب عنهم في دروب الصحراء القاحلة إلى مصير مجهولونه .. تاركين خلفهم قريتهم الصغيرة « حَقْن » من كورة « أنصنا »

لا .. ليست حَقْن ، وإنما (Hebnou) هبنو القبطية ، ويسمّيها الرومان (Hyponaa) ، أما الاسم المصري القديم الذي اندثر مع الفراعنة تاركاً آثاره فهو

(Hatbmou) ، ونلاحظ الجذر المشترك بين الاسم في اللغات الثلاث الهيروغليفية واللاتينية والقبطية، وحينما جاءت العربية بعد ذلك أخذت أيضاً ذات الأصل وغيّرت بعض الصوتيات بقلب الهاء حاء والباء فاء فصارت «حفن» وهي قرية قديمة كاسمها ، ويقال إنها كانت قاعدة القسم السادس عشر من أقسام مصر الفرعونية ؛ وهو القسم المعروف باسم (Oryx) الواقع شرقي النيل ، وبها الكثير من الآثار الفرعونية.

وحينما ازدهرت الحضارة القبطية بسماتها الخاصة منذ القرن الثالث الميلادي، كانت قرية حفن (Hebnou) — هبنو القبطية — إحدى خلايا تلك الحضارة النابضة بالمقاومة والحياة ، فانتشرت بها ، وأحاطتها أديرة الرهبان وقلائهم وكنائسهم ، وغلب عليها طابع وروح الفن القبطي ؛ حيث البيوت ذات الأبواب الخشبية والواجهات المنمقة بحجارة منقوشة بألوان العنب وشتى الرسوم الزخرفية، وللابواب مزاليج من الخشب معروفة إلى اليوم باسم (السقاطات) ، أما الحوائط فعالية وبها طاقات للتهوية.

ويقسم البيت إلى فناء واسع وحجرة استقبال واسعة ، وغرف للتخزين وحظائر خلفية وفرن ، وفي الفناء تقف الزبور الفخارية في الأركان ممثلة بمياه النيل العذبة ، كما تمتلئ غرف التخزين بشتى أنواع الجرار الفخارية وأواني المنزل وأدوات الطبخ دقيقة الصنع.

وفي الكثير من البيوت يحتل النول الخشبي والمغزل وخيوط الكتان ركناً هاماً تصنع فيه المرأة القبطية ثياب عائلتها ومفارش بيوتها وستائره وأغطية الوسائد ، وفي بعض الأحيان يذهب إنتاجها إلى السوق لتوفير بعض المال اللازم للحياة ، بالإضافة إلى مشاركتها في أعمال الحقل والزراعة. وكانت بعض الفتيات يعملن في معاصر النبيذ وفي مصانع القرية الصغيرة وصوامع الغلال ، كما كن يشاركن

في مواسم جمع الكروم التي تغطي القرية ببهجتها أثناء عمليات جمعه وتحميله على الجمال ، ونقله إلى معاصر النبيذ.

ولكنه لم يكن فرحاً خالصاً تمتزج فيه مشاعر فلاحي القرية من الرجال والنساء بنتاج جهدهم وعملهم طوال الموسم ؛ بل كانت تقطعه قسوة جامعي الضرائب من حكام المقاطعات (الباجارك) ونوابهم المنتشرين في كل الأرجاء ، وأحياناً كان حراس الحقول وشيوخ البلد يمنعون الفلاحين من رفع المحصول من المزارع إلا بعد حضور المسؤولين عن الأراضي. وقد تنوعت الملكية بين أراضٍ يملكها التاج الإمبراطوري ويؤجرها للفلاحين ، وأراضٍ يملكها مالك كبير يستخدم الفلاحين للعمل عنده ، وقد شهد إقليم المنيا — الواقع فيه قرية حفن — وجود عدة أسر كبيرة امتلكت آلاف الفدادين مثل أسرة «الكونت أبيون» و «الكونت أمونيوس». ورغم الثراء الفاحش لهؤلاء الملاك وامتلاكهم لمخازن وبنوك ووحدات حراسة خاصة ، وتغلغلهم في جهاز الحكم الإداري ، إلا أن الشواهد التاريخية تؤكد عدم تمتعهم بحقوق الإقطاعي الأوروبي المالك لمصير العاملين في أرضه.

والفلاحون العاملون لدى «الكونت أبيون» أو «الكونت أمونيوس» أو غيرهما، كانت لهم حرية الحركة والانتقال بشرط سداد المستحقات الواجبة عليهم ، أو التعهد بسدادها. وقد تمتعت بعض قرى تلك الناحية بنظام الجباية الذاتية (فصار اتصالها بمكتب الوالي مباشرة) أما القرى الخاضعة لكبار الملاك فكانت تتبع موظفي المالك. وسواء أكان النظام الخاضع له فلاحي القرية يتبع الإمبراطور مباشرة أم الكونت فقد كان ثقل حجم الضرائب وطرق جبايتها وجيش الموظفين القائم عليها يخلق فئة واسعة من هؤلاء المستفيدين عن المخازن والشرطة ومسؤولي الضرائب والكتبة والمديرين وموظفي البريد ، وغيرهم.

وكان الفلاح المصري يؤجر مساحة صغيرة من الأرض ويعمل على زراعتها لقاء قدر معلوم من الضرائب مثل ضرائب القمح (الأنونا الأهلية) التي تجمع ليأخذ بعضها حكام الأقاليم ، ويرسل بعضها إلى الإسكندرية ومنها إلى عاصمة الدولة البيزنطية فيما يسمى بالشنحة السعيدة ، وكان الفلاح يدفع عن المحاصيل الأخرى ضرائب نقدية ، بالإضافة إلى الضرائب العامة التي تشترك القرية كلها في دفعها لعمل نفقات الإصلاح ، وتمويل خزائن المقاطعات وإعداد الفرق العسكرية وسد نفقات زيارة الأباطرة ، وغيرها من المهام ثقيلة الوطأة. ولتأمين جباية كل أنواع الضرائب (العينية والمالية) (كان لكل قرية مجلس محلي يعينه مجلس شيوخ المقاطعة ويكون مسئولاً عن تنفيذ أوامر الوالي)^١. ويتكون من عمدة وشيخ بلد وشرطة ، بالإضافة إلى مسؤول مياه فيضان النيل ومسؤول الخزانة وحراس الحقول ، ثم طائفة الجباة والكتاب وعمال البريد ، وغيرهم ممن يربطون بين القرى ومراكز الأقاليم.

وتحت وطأة وتوسع حكام الأقاليم ؛ لجأ الإمبراطور إلى عمل منصب جديد هو منصب (الحامي). وغالباً ما كان اختيار القائم بأعمال هذا المنصب يأتي من نفس طبقة الإداريين أو أتباعهم ، وكان الفلاحون كثيراً ما يشكون من هؤلاء الحماة وربما تعود ذكرى المثل العامي القائل : (حاميتها حراميتها) إلى ذكرى هؤلاء الحماة الأليمة.

وفي العموم ، تقلت الأعباء الضريبية على مجلس القرية حتى كان المصريون يتهربون من القيام بها ، ولجأت الإدارة البيزنطية إلى فرض التزامات الوظائف على أعيان القرى فيما يشبه السخرة.

١- زبيدة عطا : إقليم المنيا في العصر البيزنطي في ضوء أوراق البردي .

وكثرت شكاوى الفلاحين من حكام المقاطعات (الباجارك) الذين يُغيرون على القرى بجنودهم ، فيعتدون على النساء والراهبات ويسدون القنوات ويسلبون كل ما يقع في أيديهم بعد فرض الضرائب الاستثنائية على الفلاحين.

وفي الكثير من الأحيان كانوا يقبضون على زوجات وأولاد الفلاحين الذين يتأخرون في دفع الضرائب ، وهناك برديات تعود للقرن السادس ، يلتبس فيها الناس من الحكام الإفراج عن الزوجات والبنات في مقابل تعهدهم بإحضار أزواجهن الفارين.

وفي ظل هذا النظام المرعب ، عانى الفلاح الحر — شكلياً أو قانونياً — من كثرة المظالم والتعديات وإرهاق الضرائب الزائدة عن قدرته إلى الحد الذي أدى به إلى الهروب الفردي والجماعي من القرى إلى الأديرة والأماكن البعيدة ، وترك كل شيء للحياة المتعسفين يفعلون به ما يشاءون ، فكانت المقاومة بالهرب أخطر ما يواجه جهاز الدولة البيزنطية.

وللتعذيب والفرار قصة أخرى في هذه الفترة من تاريخ مصر تتجسد في الاضطهاد الشديد الذي أوقعه «قيرس» البطريرك حاكم مصر الروماني — أو المقوقس كما تسميه الكتب العربية — بالأقباط المصريين دون هوادة ، حتى فرّ الأنبا بنيامين بابا الكنيسة المصرية ومعه سائر الأساقفة إلى أديرة الصحراء هرباً من الاضطهاد . وقبض جنود قيرس على أخي الأنبا بنيامين وعذبوه بالحرق (حتى سقط لحم كلاه)^١ ومات في أيديهم ، وقد وضع قيرس بدلاً من أساقفة القبط الهاربين أساقفة آخرين يتبعونه ويدنسون بمذهبه الخلقيدوني في مصر كلها ، من الإسكندرية حتى أنصنا أو أنطونيوبوليس عاصمة الإقليم الذي تقطن فيه مارية

١- ساويرس بن المقفع : تاريخ الأباء البطركة .

وعائلتها . وقد اشتد اضطهاد قيرس الخلقيدوني لمركز أنصنا للقضاء على مركز ومكانة الكنيسة القبطية به ؛ والتي كانت تمتلك أراضي زراعية كبيرة في تلك المقاطعة ، كما كان يتركز بها أكثر من عشرين ديراً وكنيسة قبطية تعتبر مراكزاً للمقاومة الشديدة ، وخصوصاً دير الراهب « بوهور » الذي استشهد تحت التعذيب الروماني وظل ديره مركزاً للمقاومة فيما بعد .

ويعود إنشاء مدينة أنطونوبوليس — أنصنا فيما بعد — إلى القرن الثاني الميلادي ، وبالتحديد عام ١٣٠ ميلادية ، حينما زار مصر الإمبراطور الروماني (هادريان) ، وقام برحلة نبيلة في صعيد مصر ، واختار ذلك المكان الذي غرق فيه غلامه المحبوب (أنطونيوس) وبنى عليه مدينة (أنطونوبوليس) على طراز العمارة الإغريقي ، فضمت المدينة مساح وحمامات وجيمانيزيم وشوارع يونانية الطراز ، وقصور ضخمة لازالت بعض آثارها موجودة حتى الآن (وقد بلغ من حرص الإمبراطور على النقاء الإغريقي لسكان هذه المدينة أن اختار العناصر الأولى لسكانها — عن طريق القرعة — من مدينة (بطلمية) أكثر المدن الإغريقية في مصر تحفظاً وغيره علي التراث الإغريقي ، كما إختار عدداً آخر من إقليم الفيوم ؛ حيث كان لا يزال هناك طبقة إغريقية مغلقة على نفسها ولم تختلط بالمصريين لا ثقافة ولا عنصراً وعُرفت بطبقة الـ ٦٤٧٥ مواطن ، وأعطى الإمبراطور سكان مدينته الجديدة حق تكوين مجلس شورى وحقوقاً أخرى....)١ .

وبمرور الزمن فقدت المدينة تزمته الإغريقي العنصري ، وسرى فيها تيار التمسّر ، جارقاً بعد السماح بالزواج من المصريات ، ومما ساعد على سرعة التمسير موقع المدينة كمحطة تجارية هامة ، ومركز لصناعة النسيج والفخار

١- زبيدة عطا : إقليم المنيا في العصر البيزنطي ، المصدر السابق .

وعصر النبيذ ؛ بالإضافة إلى تلك الكوكبة من القرى المصرية الغنية بمزارع الكروم والقمح والنخيل التي كانت تحيط بها مثل قرية حفن ؛ موطن مارية وسيرين وعائلتيهما . ظلت أنصنا والقرى المحيطة بها (حسنة البساتين والمنترهات كثيرة التمر والفواكه)^١ . كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان .
وثمة روابط محسوسة تربط تلك المنطقة وقراها بماض بعيد للحضارة الفرعونية وتترك آثارها في بعض العادات وطرق الزراعة وأنواع الأدوات المستخدمة في الحياة .

وفى هذا المناخ المشبع بعناصر الثقافة القبطية في اللغة والدين والسلوك ، عاشت الفتاتان (مارية وسيرين) وحملتا كل عناصر الثقافة المحيطة على الأقل في وعيها الداخلي — مع ملاحظة أنهما شبتا في ربوع القرية العتيقة ، وعاشتا تفاصيل الاضطهاد فيها ، أما رفاحية «أنطونيوبوليس» التي كانت تبعد عن موطنهما بمسافة قصيرة، فكانت حكرأ يخص السادة الرومان من الحكام والفرسان والنبلاء وكبار الموظفين ، أو هؤلاء المتمصرين الأغنياء الساكنين في بطانتهم ، دون غيرهم من فئات الشعب المصري القاطن في القرى المحيطة بها .
ولنا أن نتخيل كثيراً من مفارقات الترف والرفاحية بين سكان (أنطونيوبوليس) — عاصمة الإقليم وعروس الصعيد — المستمتعين بالحمامات والمسارح ، والقارئ للشعر والمسرح والفلسفة اليونانية والحفلات ذات الطابع المتأغرق ، وبين حياة القرى الغارقة في العمل الزراعي ، وما يترتب عليه من أعمال عصر النبيذ ، وطحن الحبوب ، وعصر الزيوت ، وغيرها من الأعمال الشاقة ، بالإضافة إلى عبء القيام بالأعمال الإجبارية العامة من حفر الطرق والقنوات والمصارف ومد الجسور ، وأداء الضرائب العينية والنقدية ، وهوان الفرار

١- ياقوت الحموي : معجم البلدان.

المذعور أمام خيول الفرسان الرومان ورجال الحاميات العسكرية.... وظلمة السجون الكائنة في انتظار من لا يدفع ، وغيرها من صور البؤس التي كان يعاني منها سكان القرى القبطية المحيطة بعاصمة الأقاليم الثرية المرفهة الأنيقة ، والتي حفظت لنا أوراق البردى نماذج لبعض دعوات حفلات العشاء المقامة في الجيمانيزيم ، أو نصوص المسرحيات وغيرها من أنماط الثقافة اليونانية لطبقة الرومان والمتمصرين المحيطين بهم .

وبعيداً عن مظاهر الرفاهية ، عاشت الفتاتان « مارية وسيرين » في قرية حفن الغارقة في الأعباء ، ضمن آلاف العائلات القبطية المضطهدة ... تألفان الجو المحيط بهما ، وتسقيان وتفرحان مع أقرانهما من القبط حتى امتدت أيدٍ شرسة واقتلعتهم من جنورهما ، وقذفت بهما مع (مابور) إلى قصر المقوقس بالإسكندرية في رحلة إجبارية يغلب عليها طابع القسر والاستبعاد .

وحادثة انتزاع (مارية - سيرين - مابور) غابت تفاصيلها تماماً عن كتب التاريخ (العربي منها والقبطي) ، ولكنها تشبه الكثير من حكايات انتزاع زوجات وبنات الفلاحين المصريين من أراضيهم وبيوتهم بسبب عجز الرجال عن أداء الضرائب وتراكم الديون ، أو بسبب الاضطهاد الديني لهم بصفتهم أقباط مؤمنين بكنيسة الإسكندرية أو غيرها من أسباب المظالم الكثيرة المحيطة بالفلاحين المصريين تحت قيود الحكم البيزنطي .

وفي تلك الأثناء على بعد آلاف الأمطار من حدود مصر الشرقية في بلاد العرب البعيدة ، كان النبي محمد يبتدئ دعوته الإسلامية في محيطه العربي ، ويتخذ من المدينة (يثرب) مركزاً لدولته . وقرر النبي بعد صلح الحديبية (عام ستة هجرية) أن يبلغ دعوته لملوك وأمراء العالم المحيط بالجزيرة العربية بعد أن

(اتضح أنه السيد الفعلي في شمال الحجاز وتهامة)^١ ، وأنه قادر على عزل قريش سياسياً واقتصادياً .

فاختار نفراً من أصحابه وأرسلهم إلى إمبراطور الروم وكسرى فارس وملك الحبشة وملك البحرين وعمان وحاكم مصر ، وكتب لكل منهم رسالة — كل بلغته — ويقال أن كاتبه كان من بني النجار ، ويدعى « الخزرجي » (يكتب إلى الملوك ويجب بحضرة النبي ﷺ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية وأنه تعلم هذه اللغات بالمدنية من أهل هذه الألسن)^٢.

وحمل خطاب النبي إلى المقوقس عظيم مصر (أوقيرس الروماني) شخص يدعي حاطب بن أبي بلتعة ، وهو تاجر طعام من قبيلة الأسد حليفة قريش ، وكان يملك عدداً من العبيد ، إن كان هذا يعتبر أحد مقاييس الثراء لدى العرب — كما كان من الرماة الموصوفين ، ذكره الحاكم في مستدركه ، فقال : (كان حسن الجسم خفيف اللحم أجني إلى القصر ما هو شئن الأصابع)^٣ ، أي ليس غليظ الأصابع^٤.

١- أحمد الشبول : علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة .

٢- المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٢٤٦.

٣- ابن عبد الحكم .

٤- سوف نجد أخباراً بعد ذلك عن خيانة حاطب بن أبي بلتعة للنبي وحزبه ، وحينما كانوا يعدون العدة لفتح مكة ويحيطون الأمر بسرية شديدة بغية مفاجأة قريش ، فبعث حاطب بتلك الأخبار إلى قريش ، وحينما اكتشِف أمر خيانتته ، وأمسك أصحاب النبي بالمرأة التي تخبى خطاب حاطب في شعرها برر خيانتته قائلاً : (كان بمكة قرابتي وولدي وكننت غريباً فيكم معشر قريش) فعفا عنه النبي لأنه شهد وقعة بدر ... لمزيد من التفاصيل ، انظر سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي .

وقد سلك حاطب طريق التجارة المعروف من المدينة حتى دخل مصر، ثم وصل إلى الإسكندرية قاصداً بلاط المقوقس حاكم مصر الروماني، وكان المقوقس (قيرس) في مجلسه المشرف على البحر، كما يقول ابن عبد الحكم، فركب حاطب البحر حتى حاذي مجلس المقوقس، وأشار إليه بكتاب النبي بين إصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل إليه، ولكننا نفهم من رواية ابن سعد أن حاطب قد مكث بباب المقوقس مدة من الزمن حتى سمح له بلقائه... ورواية ابن سعد أقرب إلى الصحة المنطقية جرياً على عادة الملوك في اتخاذ القصور والحراس والأبواب المغلقة، فيأتي تاجر من الجزيرة العربية ويطلب مقابلة الملك ويظل ببابه حتى يؤذن له بالدخول.

أما رواية ابن عبد الحكم عن المقوقس الذي كان مجلسه يشرف على البحر فيلوح له رجل غريب برسالة من جهة البحر فيؤمر بها، فقول يناسب المبالغات الأخرى التي سيفرط ابن عبد الحكم في ذكرها بعد ذلك... وكان نص الرسالة:

(من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .. سلام علي من اتبع الهدى..أما بعد :

فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط. يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)^١. ويفيض ابن عبد الحكم في سرد تفاصيل الحوار

وهذا الحادث يلقي ظلال الخيانة على حاطب، ويقلل الثقة فيه كصاحب أمين للنبي... وعاش حاطب حتى عام ٣٠ هـ، وترك حين مات أربعة آلاف دينار ودرهم وغير ذلك. انظر محمد بن سعد: الطبقات الكبير.

١- ابن عبد الحكم.

الذي دار بين حاطب والمقوقس حتى أنه يذكر حواراً شبه سري دار بينهما ليلاً وليس معهما سوي الترجمان ، سأل فيه المقوقس عن حقيقة أفكار محمد وصفاته ، وبمجرد سماع المقوقس لصفات النبي تحول موقفه من الشك إلى التصديق ، وأخذ يكمل بنفسه ما نسيه حاطب — وكأنه رآه رؤى العين — فقال : (قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها في عيني حمرة قل ما تفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة ، ويركب الحمار ويلبس الشملة ويجترئ بالتمرات والكسر لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم)^١. ولا نجد ذكراً لهذا الحوار المغرق في التفاصيل لدي محمد بن سعد كاتب الواقدي في كتاب (كتاب الطبقات الكبير) . وفي الأغلب أن هذه الحكايات وأمثالها هي من موضوعات الرواة والمؤرخين الذين ينسبون إلى المقوقس (قيرس) قوله : (القبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك وسيظهر علي البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا حتى يظهروا علي ما ههنا)^٢.

وحسب تلك الرواية يكون المقوقس قد آمن بالنبي وتنبأ بانتصار العرب علي أشلاء دولته البيزنطية .

وفي الحقيقة : إن كل هذه الاعترافات النافية للذات والمؤمنة بالآخر إلى حد ذكر صفات النبي الخاصة جداً — والمقوقس (قيرس) لم ير النبي قط — والتنبؤ له بمستقبل واسع النفوذ علي حساب دولة الروم — أي علي حساب النفس — هي غريبة كل الغرابة ، ولا تتفق مع مجمل مواقف الحاكم الروماني وتاريخه السياسي، وهو المعروف بمدي تعصبه ضد كل من يخالفه في مذهبه الديني ، خصوصاً وأن نفوذ قيرس (المقوقس) السياسي كان مستمداً من نفوذه الديني

١- المصدر السابق .

٢- المصدر السابق .

بصفته بطريقاً للمذهب الخلقيدوني المعادي لكل المذاهب الأخرى واضطهاد كل من يخالفه الرأي من المصريين الواقعيين تحت سطوته وحكمه .

وفي كثير من الأحيان يغلب علي روايات ابن عبد الحكم طابع القص الكاريكاتيري ، كما في قوله : (إن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضمه إلى صدره ، وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعتَه وصفته في كتاب الله ، وإننا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وأن جلساءه المساكين وأن خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم دعا رجلاً عاقلاً ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهي من أهل حفن من كورة أنصنا فبعث بهما إلى رسول الله ﷺ)^١.

والمقوقس (قيرس) في تلك الرواية كملوك الحكايات الأسطورية الذين يعرضون مملكتهم علي أول عابر سبيل يمر عليهم ، أو كعراف يقرأ الطالع ، ويهذي ببواطن المستقبل المعاكس لوجوده ، فيصبح بذلك رجلاً ضد نفسه .
ويبدو النصف الآخر من الحكاية متأثراً بالقصص الشعبية التي تجعل الملوك يبعثون برجالهم ليفرزوا نساء المملكة ويختاروا أجمل الفتيات لتصبح حظية الأمير أو زوجته (ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية) وكان مصر كانت قرية صغيرة يمكن فرز نساها بسهولة مع ملاحظة أن محمد بن سعد قد ذكر أن حاطب أقام خمسة أيام فقط لدي المقوقس .

وعذر ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين العرب في ذكر مثل هذه القصص أن مدوناتهم التاريخية جاءت بعد مرور أكثر من قرنين . . بعد أن استقرت الأمور للعرب وسقطت دولة الروم واتضحت مصائر البلاد ، وكان من السهل أن

١- ابن عبد الحكم : المصدر السابق .

يحدث نوع من تلبيس المستقبل للماضي وكان التاريخ يعيد تشكيل نفسه مع كل رواية جديدة .

وعلي أية حال ، تبدو رواية محمد بن سعد ، كاتب الواقدي أقرب إلى الصحة المنطقية ، حيث تختفي منها كل هذه المبالغات وتأتي الوقائع بسيطة سلسلة حيث يقول : (أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه وقال خيراً ، وأخذ الكتاب فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته وكتب إلى النبي ﷺ : قد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها ولم يزد على هذا ولم يُسلم ، فقبل رسول الله ﷺ هديته وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وأختها سيرين وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي ذلّل ، وقال رسول الله ﷺ صنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه ، قال حاطب : كان لي مكرماً في الضيافة وقلة اللبث ببابه ما أقمت عنده إلا خمسة أيام)^١.

فالواقدي على عكس ابن عبد الحكم يذكر المقابلة باقتضاب ، حتى أن النبي بعد عودة حاطب حاملاً ردّ المقوقس قال : صنّ الخبيث بملكه ، وتتأ له بالزوال . فالنبوءة هنا على لسان النبي وليست على لسان المقوقس (قيرس) ، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم ، كما أن الواقدي لا يفيض في توسيع مكونات الهدية ؛ بل يقصرها على الجاريتين والكسوة والبغلة البيضاء .

أما الطبري ، فيوسّع الهدية حتى تشمل ألف متقال من الذهب ، وعشرين ثوباً لينا ، بالإضافة إلى الجاريتين والبغلة والحصي . وجميعها مكونات غريبة بالنسبة لهدية مرسلّة إلى نبي يتحدث باسم رسالة جديدة ، ويطلب من الملوك الإيمان بها !!!..

١- محمد بن سعد ؛ كاتب الواقدي : الطبقات الكبير ، الجزء الرابع ، القسم الأول .

ولذلك تبدو رواية ابن سعد على قصرها أكثر الروايات مناسبة مع وضع المقوقس (قيرس) ، وتعصبه لمذهبه الخلقيدوني ؛ حتى أنه يذكر (قد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام) في صيغة تنفي تصديق المقوقس لخروج النبي المنتظر من أرض العرب ، وإجابته قد دفعت النبي إلى الدعاء على ملكه بالزوال. وبعد تسليم حاطب الرد المقتضب ومكونات الهدية الصغيرة خرج الجمع من مصر مكوناً من مارية وسيرين ومابور والبغلة يقودهم حاطب بن أبي بلتعة ؛ تاجر الطعام ، إلى المدينة مركز النبي...

وسارت القافلة الصغيرة في ذات طريق التجارة المعروف إلى المدينة^١ ، وكلما كانوا يتوغلون في اتجاه صحراء الجزيرة العربية وابتعدون عن حدود مصر كلما كان القلق يزداد ، والوحشة تدب في النفوس ، وصور البيت والقرية والمدن التي مروا عليها قبل الخروج تمتلئ في الذهن وتضطرب في اهتزازات سريعة مع اضطراب الروح من أثر المخاوف المحيطة : — حفن — المزارع — الكروم — المياه الجارية — أنصنا — أنطونيوبوليس — القصور — الحاميات العسكرية — الأسر — قصر الحاكم الروماني — الرجال الغرباء ذوي اللغة المختلفة ، والوجوه والملابس المختلفة والجمال والصحراء.....

اللون الأصفر يحل محل الأخضر الآن.....

الجفاف بدلاً من المياه الجارية.....

جذب الصحراء والمخاطر المحيطة مكان استقرار القرية وثبات بيوتها...

١- لأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا طريقان إلى المدينة أحدهما علي شغب وبدأ ؛ وهما قريتان بالبادية ... حتي ينتهي إلى المدينة علي المروة ، وطريق يمضي علي ساحل البحر حتي يخرج بالجحفة فيجتمع بهما طريق أهل العراق وفلسطين ومصر ، ومن المرجح أن تكون قافلة حاطب - مارية - سيرين - مابور قد قطعت طريق الصحراء الأول .

كل شيء غريب ومختلف ، حتى هذا العربي الذي يقود قافلته الصغيرة...
وتتفرد رواية الطبري بإضافة ملمح الاتصال اللغوي بين حاطب - تاجر
الطعام العربي - ومارية وسيرين ، حيث يذكر أن حاطب عرض على مارية
الإسلام ورغبها فيه فأسلمت هي وأختها... أي أنهما دخلتا المدينة مسلمتين بينما
تأخر إسلام مابور عنهما ، فبأي لغة عرض عليها حاطب الإسلام...؟
ونحن نعلم أن الثلاثي المصري (مارية - سيرين - مابور) يتحدث اللغة
القبطية ذات اللهجة الصعيدية... وحاطب لا يعرف اللغة القبطية ؛ كما تذكر
المصادر التاريخية.

والمؤكد أنهم دخلوا المدينة وقد نال منهم التعب جداً كبيراً ، بعد أكثر من شهر من
الخوض في قيظ الصحراء ، وقد كان تاجر مكة يصلون إليها وقد نال منهم التعب،
وتسقت شفاهم.. فما بالنا بفاتنتين تخوضان مثل هذه الرحلة للمرة الأولى !!
ودخلت القافلة أسوار المدينة.. نخل بين حرتين ، أو أرض سبخة بين جبلين
شاهقين .. فمن أين يسقي النخيل وليس هناك أثر لأية مياه جارية.. إنها مياه الآبار
إن.. وكان يقوم بالعمل فيها عبيد من الحبش.. وكلما كانت القافلة تقترب من
مواطن المسلمين.. كانت الصورة تتضح شيئاً فشيئاً.. البيوت متواضعة وفقيرة
مبنية من جريد النخل ، وعليه مسوح شعر سوداء..سقوفها غير مرتفعة تكاد
تمسها الأيدي.. ولكن أين النساء؟ ربما هن اللواتي يسرن تحت هذه الأغشية
السوداء.. ينطبق عليهن وصف الكاتب المعاصر « سعيد حوى » في ذكر حادثة
فرض الحجاب على النساء ، بأن المدينة صارت مثل مواطن الغربان... ولشد ما
كان مشهد المدينة يختلف عن قريتهم الصغيرة القديمة (حفن) الواقعة في حضن
النيل بصعيد مصر....!!

فأخذت القافلة تتقدم أكثر نحو بناء مركزي (المسجد) وبجواره تسع حجرات مبنية بنفس النمط السابق... وقادهم حاطب بن أبي بلتعة إلى مجلس الرجال يتوسطهم رجل ذو مهابة (مشرب بحمرة طويل المسربة عظيم الرأس واللحية عظيم الكراديس شئن الكفين والقدمين لا طويل ولا قصير). وهي صفات النبي كما وردت في تاريخ المدينة المنورة ، وكان النبي أبيض وبياضه مشرب بحمرة ضخمة الهامة أغر أبلج ضخمة القدمين والكفين. سبط الشعر ينسدل إلى كتفيه... أكحل العينين ، وسيقاً في عباة الحمراء.. ويبدو مهيباً بين أصدقائه : (فلما نظر إلى مارية وأختها أعجبته وكره أن يجمع بينهما ، وكانت إحداها تشبه الأخرى فقال اللهم اختار لنبيك فاختر الله له مارية وذلك بأن قال لهما : قولا نشهد أن لا إله إلا الله وإن محمداً عبده ورسوله ، فبدرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ومكنت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت)^١.

وسرعة إيجاب مارية بالمقارنة مع أختها — باستخدام لغة الإشارة أو حروف صوتية مكسرة — يفصح عن حاجتها السريعة للأمان وسط هؤلاء الأعراب ، كما يفصح عن بروز ملكات شخصية كالذكاء وسرعة التعلم والشجاعة ، فاخترها النبي لنفسه ، ثم أهدى الأخت بطيئة المبادرة — وللبطء هنا يمكن أن يعود إلى زيادة الخوف ، ويمكن أن يعود إلى الطبيعة الشخصية — إلى حسان بن ثابت أو لمحمد بن مسلمة الأنصاري أو لدحية بن خليفة الكلبي أو لزكريا بن جهم ؛ على خلاف في الرأي. والأقرب إلى الإجماع أنه أهداها إلى حسان بن ثابت ؛ شاعر النبي كتعويض له عن ضربة سيف تلقاها من صفوان بن المعطل ، كما أعطاه أيضاً بيتاً من بني حديلة.

١- محمد بن سعد : الطبقات الكبير .

وبهذا المصير انتحت سيرين مكاناً مظلماً في خلفية الصورة ، ولن نصادف سيرتها في كتب السيرة إلا في مواقف نادرة « كفلاشات » ضوئية سرعان ما تختفي دون أن توضح أية ملامح من ظروف حياة هذه المصرية الوافدة إلى بلاد العرب قسراً وإجباًراً. أما مارية فقد أنزلها النبي في بيت لحارثة بن النعمان عند أم سليم بنت ملحان ، ويبدو أن هذا البيت كان قريباً من بيوت زوجات النبي المبنية بجوار المسجد من جريد النخل المغطى بمسوح الشعر السوداء على عادة الأعراب ، فيما عدا بيت أم سلمى التي بنت غرفتها باللبن أثناء خروج النبي في إحدى الغزوات ، ويقول ابن سعد : إن عدد هذه الغرف كان تسعاً ، وأنها كانت ضيقة لمجرد الوفاء بالحاجة ، وغير مرتفعة حتى أن الحسن بن علي بن أبي طالب حفيد النبي ، يقول : (كنت أدخل بيوت أزواج النبي عليه السلام في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي) وكان عدد زوجات النبي المقيمات في هذه الغرف تسعاً ، هن^١ .

(عائشة بنت أبي بكر عقد عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع) .

١- ترتيب زوجات النبي : ١- خديجة ٢- سودة بنت زمعة ٣- عائشة بنت أبي بكر ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ٥- زينب بنت خزيمة ٦- أم سلمى ٧- زينب بنت جحش ٨- جويرية بنت الحارث ٩- أم حبيبة ؛ زملة بنت أبي سفيان ١٠- صفية بنت حي ١١- ميمونة بنت الحارث العامرية (عن سمط العوالي في أنباء الأوائل والتوالي : ابن عبد الملك العصامي المكي) . وقد جاء في « تاريخ اليعقوبي » لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب العباسي المعروف (طبعة بيروت ١٩٧٠) أن النبي تزوج إحدى وعشرين امرأة ، وقيل ثلاثاً وعشرين دخل ببعضهن وطلق بعضاً ولم يدخل ببعض .

حفصة بنت عمر ، تزوجها النبي سنة ثلاث هجرية ، وسنها يومئذ عشرون سنة بعد أن اشتكى أبوها للنبي أنه عرضها على أبي بكر وعثمان فلم يقبل أحدهما الزواج منها.... فقبلها النبي.

وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، تزوجها النبي سنة سبع هجرية بعد عودتها من بلاد الحبشة .

وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، تزوجها النبي سنة أربع من الهجرة بعد وفاة زوجها في غزوة أحد .

وسودة بنت زمعة بن قيس ، تزوجها النبي قبل الهجرة بثلاث سنوات في ذات العام الذي عقد فيه علي عائشة .

وزينب بنت جحش بن رثاب ، تزوجها النبي سنة خمس هجرية بعد أن كانت زوجة مولاة زيد بن حارثة فوقع نظر النبي عليها وأعجبته . . فطلقها زيد وتزوجها النبي .

وميمونة بنت الحارث بن حزن ، تزوجها النبي سنة ثمان من الهجرة أثناء عمرة القضاء .

وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، تزوجها النبي سنة خمس من الهجرة بعد أن كاتبته عن نفسها في غزوة بني المصطلق . وفي ذات العام اتخذ من ريحانة جارية له .

وصفية بنت حي بن أخطب ، تزوجها النبي سنة سبع من الهجرة بعد أن ألقى رداءه عليها أثناء تقسيم سبي غزوة خيبر . وفي ذات العام جاءت مارية من مصر فاتخذها جارية له . وفي ذات العام أيضاً ، ولكن بعد مرور عدة شهور علي مجيء مارية كانت سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة في شهر رمضان . . . وأهمية تلك السرية بمكانة قائدها زيد بن حارثة من النبي فهو مولاة المقرب منه ،

وزوج زينب بنت جحش السابق الذي دفعه حسن خلقه إلى تطليقها لإعجاب النبي بها.

ويحكي الطبري في تاريخه أن زيد قتل أم قرفة في هذه الغزوة ، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر ، وأنه قتلًا عنيفاً بأن ربط برجلها حبلاً بين بعيرين حتى شقها شقاً ، وكانت عجوزاً كبيرة وأسر ابنتها^١. فهل سمعت عن هذا الحادث ... وماذا كان تأثيره عليها ... ؟

ولأن مارية كانت الجديدة الوافدة من بلاد أخرى محملة بثقافة أخرى وحضارة أخرى ، ولأن النبي كان معجباً بها يكاد يتفرغ لها ، فقد تفرغت لمراقبتها وحصارها كل نساء النبي رغم أنهن زوجات حرائر وهي جارية ملك يمين .
والجميلة مارية جاءت بدون حجاب ، وكانت تتزين بطريقة المصريات المتوارثة عن أمهاتهن الفرعونيات ، حيث تستعمل المرأة المصرية الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وتضع القرط الدائري الواسع المعروف الآن باسم " الحلق المخرطة " في أذنيها ، أو أقراطاً علي شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سمكة تنتهي برأس حية من كل ناحية ، ويزين الجيد والعنق عقد من الخرز الدقيق الملون ، وأحياناً تلبس (الخخال) الفضى في قنمها . أما الشعر فكانت المرأة المصرية تصفبه بطرق مختلفة أبرزها تسريحة الشعر المنقوشة في جداريات الفن القبطي ، ويكون بتجعيد خصلات الشعر علي هيئة بلح مع رفعه إلى أعلي وتزيينه بشرائط ملونة . وأحياناً يكون الشعر قصيراً مرخياً علي جانبي الوجه ، أو طويلاً ينساب علي الكتفين في جدائل ملفوفة .

١- الطبري : الجزء الثاني ، ص ٦٤٣، ٦٤٢ .

والملايس من الكتان الأبيض المشغول بالصوف الملون ، وخصوصاً باللون الأرجواني الذي كان أعجوبة هذا الزمان . ويطرز الثوب حول الرقبة والأكماس بزخارف مصرية مأخوذة من مفردات الطبيعة المصرية مثل الأعناب وزهور اللوتس ، أو بزخارف هندسية دقيقة من خطوط ومربعات ودوائر متداخلة ومتكررة . وتصف زبيدة عطا ملايس النساء في دراستها عن إقليم المنيا موطن مارية ، فتقول :

(كانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطي ، وهي أقدم المنسوجات المزخرفة ، وهو أول زخرفة نسيجية مكونة من لونين أو أكثر وغالبية الثوب كانت من اللون الأبيض أو الكحلي أو الأرجواني ، أما الزخارف فبالوان متعددة^١ . وعن موبيلات الملايس ، فتقول : (كان منها الثياب القصيرة كثياب الإسبرطيات ومنها الطويلة ذات الطيات)^٢ .

وعلي غير عادة عائشة وحفصة في تزيين النساء للنبي قبل دخوله عليهن ، لم تشتركا في تزيين مارية غير المحجبة الواضحة الجمال الوضيئة ، كما يقول الطبري ، واشتدت غيرة زوجات النبي منها ، حتى أن عائشة تقول في حديثها عن مارية : (ما غرت علي امرأة إلا دون ما غرت علي مارية وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة وأعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت الحارثة بن النعمان فكانت جارتنا فكان رسول الله ﷺ عامة النهار والليل عندها .. حتى فرغنا لها فجزعت فحولت إلى العالية فكان يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا)^٣ .

١- زبيدة عطا : إقليم المنيا في العصر البيزنطي .

٢- زبيدة عطا : المصدر السابق .

٣- عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام .

ويبدو أن نار الغيرة كانت دائمة الاتقاد في بيت النبي ، وقد روى شمس الدين الذهبي أن نساء الرسول ﷺ كن حزبين فحزب فيه حفصة وعائشة وصفية وسودة ، والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر أزواجه . وصورة مشاجرات الضرائر وكيدهن لبعضهن في الظاهر وفي الباطن ، بل وكيدهن للنبي نفسه كثيراً ما كانت تحدث بزاعمة عائشة وحزبها الذي كتلته من الزوجات القويات أمثال حفصة بنت عمر وغيرها . وأحياناً كان يصل الشجار إلى حد التشابك بالأيدي كما حدث حينما جذبت عائشة وحفصة أم سلمي من رأسها .. بخلاف المعارك الكلامية الكثيرة بين الحزبين ...

وكثيراً ما اشتعلت نار الغيرة بين عضوات حزب عائشة نفسه فكانت (عائشة تدم لحفصة إذا ما تأخر النبي عندها) ^١.

كان ذلك قديماً ومستمراً بينهما ، حتى جاءت مارية فجذبت الأنظار ، وغارت منها عائشة أكثر من غيرتها علي الأخريات ، خصوصاً وأن النبي يقضي معها معظم الليل والنهار ، ويكاد يتفرغ لها ، ووضعها كجارية لا يعطيها حق قسمة الأيام مثل سائر الزوجات ^٢... فإذا بها تأخذ معظم الليل والنهار ومن شدة ولع

١- محمد بن سعد : الطبقات الكبير .

٢- يذكر شمس الدين الذهبي أن عائشة وحفصة كانتا يداً واحدة ، ومع ذلك كانت عائشة تغير من حفصة إذا ما تأخر النبي عندها ، ويروي البخاري عن عائشة أن النبي يحب العسل والحلواء ، وكان إذا انصرف من العصر دخل علي نسائه فيننو من إحداهن فنخل علي حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر مما كان يحتبس ففرت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له) .

ودبرت عائشة خطة لإبعاد النبي عن حفصة والعسل بأن اتفقت مع سودة بنت زمعة وبقيت الزوجات علي أن يوحين للنبي إذا اقترب من إحداهن بأن هنالك رائحة كريهة للعسل الذي شربه

النبي بها كان يدخلها بيوت زوجاته الأخريات ، ويعطيها أيامهن أحياناً ، فوفقت له حفصة بنت عمر بن الخطاب ذات يوم ، وهي الوارثة قوة اللسان عن أبيها ، فعاتبته حتى استرضاها بوعده مقاطعة مارية . والحكاية كما يرويها القاسم بن محمد :

(خلا رسول الله ﷺ بجاريته مارية في بيت حفصة فخرج النبي ﷺ وهي قاعدة علي بابهِ - يقصد حفصة - فقالت يا رسول الله أفني بيتي وفي يومي فقال النبي ﷺ هي علي حرام فأمسكي عني فقالت لا أقبل دون أن تحلف لي فقال والله لا أمسها أبداً) . ونزلت في تلك الحادثة آية الإيلاء : (فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) . وآية : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)^١ . وهكذا وجدت مارية - القبطية اللسان والعادات - نفسها محاطة بعدد من الزوجات ، بينما يختلف الوضع في بيئتها الطبيعية في مصر عن ذلك كلياً ..

...فقاطع النبي العمل ... ثم قاطع نساءه شهراً حتى نزلت الآية : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) . انظر نهاية الأرب ، الجزء السادس عشر . ولم تتوقف مكائد الزوجات وخصوصاً ضد الزوجة الحديثة فكانت عائشة تقول لها عند تجميلها : (إن أردت أن تحظى عنده فتعوزي بالله إذا دخلت عليه) فتعوزت أسماء بنت النعمان الكندي في وجه النبي فالحقها بأهلها دون أن يدخل عليها ، فزعموا أنها ماتت كمداً . انظر تاريخ يعقوبي ، المجلد الثاني . وقد اشتكت أم سلمة من عائشة وكلمت فاطمة ... فقالت فاطمة لأبيها : (إن نساءك يشنذنك العذل في بنت أبي بكر) . انظر سير أعلام النبلاء - كما اشتكتها زينب بنت جحش للنبي (فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة ، فسبته) . وكان النبي (ينظر إلى عائشة ترد علي زينب حتى أمسكتها) . شمس الدين الذهبي ، وهكذا تمتلئ كتب السيرة بقصص المشاجرات بين حزب زوجات النبي ، وبين أعضاء الحزب الواحد ، في غيبة النبي وفي حضرته ، ولم يكن لتلك الغيرة ومكائدها نهاية طالما بقيت الزوجات التسع .

١- ابن العسال : المجموع الصفوي .

حيث لا يتزوج الرجل إلا من امرأة واحدة تشاركه حياته — ويتلازم الزوجان حتى موت أحدهما .

وتمسك الفكر القبطي بمبدأ الزوجة الواحدة للأبد ، واعتبر الجمع بين زوجتين زناً ظاهراً مستمراً ، كما حرم التسري ، وكما جاء في قوانين المجمع الصفوي :
(من له امرأة وجامع مملوكته يعاقب)^١ .

ومبدأ الواحدية الراسخ في البيئة المصرية منذ عصور التاريخ الفرعوني القديم يختلف عن أساس المعاملة في الفكر العربي الذي يمنح الرجل حق الاستمتاع غير المحدود بالنساء باعتبارهن مجرد وسائل للذة الحسية .

وفوجئت مارية القبطية التي تحرم شريعة دينها ارتباط الرجل بأكثر من امرأة وتحرم التسري وتضعه في مرتبة الزنا الفاحش ، بأنها أصبحت واحدة من حريم واسع لرجل واحد ، وأن حلقة الحصار تضيق حولها ، حتى أن النبي نفسه قد ضاق بهذا الحصار ، وقرر فصلها بعيداً عنهن فحولها إلى العالية بعيداً عن عيون زوجاته التسع .

والعالية التي تقع جنوب شرقي المدينة هي نصيب النبي من مغانم غزوة بني النضير عام سبعة هجرية ، وتشتهر (بنخيلها وآبارها العذبة وهي كثيرة المياه وتزرع أراضيها القرع واللفت والجزر)^٢ وكانت الزراعة تقوم علي أكتاف العبيد المشتريين من الشام في أغلب الأحيان .

وأخذ النبي العالية له خالصة (فأعطي من أعطي وحبس ما حبس وكان يزرع تحت النخل زرعاً كثيراً وكان رسول الله ﷺ يدخل له منها قوت أهله سنة من

١- ابن العسال : المجموع الصفوي .

٢- الفيروز آبادي : المغانم المطابة في معالم طابة .

الشعير والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب ^١ . وما يتبقى من عائدها كان يشتري به السلاح والعتاد ، والعالية كانت مساحة كبيرة من الأرض الخضراء (وهي سبعة حوايط : المنيب والصفافية والدلال وحسني وبرقة والأعواف ومشربة أم إبراهيم ، نسبة إلى مارية . وكانت أم إبراهيم تكون هناك وكان رسول الله ﷺ يأتيها هناك) ^٢ .

وبصعود مارية إلى العالية ابتعدت خطوة عن جو المكائد والمؤامرات الدائرة بين زوجات النبي في غرفهن المحيطة بالمسجد ، واقتربت خطوة من بيئتها الطبيعية بعد أن توفرت عناصر الخضرة والزراعة في المكان الجديد الذي يسميه محمد بن سعد بـ (خرافة النخل) ، من كثرة زرعه بالنسبة إلى الصحراء المحيطة .

ويذكر الطبري في تاريخه : فرض الحجاب علي مارية بعد صعودها إلى العالية ، ورغم أنها كانت لا تزال في وضع الجارية إلا أن النبي قد فرض عليها الحجاب وهو شارة وعلامة المرأة الحرة بسبب شدة جمالها وشدة غيرة الأخريات منها ، وفي حديث عن محمد بن عمر قال : حدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله عن أبي جعفر أن رسول الله ﷺ حجب مارية وكانت قد تقلت علي نساء النبي ﷺ وعرن عليها ولا مثل عائشة ^٣ .

ودخلها تحت ستر الحريم كان علامة مفارقة أخرى في حياتها ، وهي التي تعودت مثل سائر نساء محيطها علي مخالطة رجال مجتمعها دون حجاب ، فالفلاحة المصرية تعمل في الحقل كتفاً بكتف مع الرجل ، كما تعمل في معاصر

١- كتاب المغازي الواقدي .

٢- لواقدي : المصدر السابق .

٣- محمد بن سعد كاتب الواقدي : الطبقات الكبير .

النبذ وأعمال النسيج وشتي الحرف، وفجأة تغير كل ذلك حينما انتقلت إلى البيئة العربية .. وفرض عليها العزلة ... وأصبحت مقيدة الحركة مثل الأخريات اللاتي ينتظرن هبوط الظلام حتى تخرج الواحدة منهن (من مساكن حيها إلى مكان قصي لتقضي حاجتها ثم تعود)^١.

ويعد ما كانت (تروح وتغدو كما تريد . تحدث من تشاء وتختلط بالرجال دون الحجاب) مثل سائر النساء المصريات . أصبحت الآن قعيدة بيت العالية لا تستطيع حتى أن تجلب الماء لنفسها ، فكان مابور يأتيها بالماء والحطب ، لكن كثرة ترده عليها وضيق الأفق المحيط ، أثار اللغظ العربي الكثير الشكوك ويلاحظ القرشي في كتاب البداية والنهاية أن تردد مابور علي مارية كان عادياً لأنه (كان من عاداتهم ببلاد مصر)^٢.

ولم ينته هذا اللغظ إلا بعد إثبات أن مابور خصي

وربما حاولت مارية إضافة لمسات مصرية إلى بيتها في العالية ، ولكن أني له أن يصبح كبيوت مصر ذات الستائر المنسوجة بخيوط الصوف والكتان علي طريقة القباطي ، والمزخرفة برسوم الفواكه أو رسوم الراقصات ، والمناشف أو القوط المزخرفة برسوم الحيوانات ، ومسارح البرونز المصنوعة علي شكل أسد أو حمامة أو ثور أو طاووس ، وقنينات العطر وأنوات زينة المرأة من الأقراط والخواتم والمكاحل والمراوح وعقود الخرز الدقيق الملون وأمشاط العاج وشباك الشعر المزينة بالورد والصفائر المجدولة من اللونين الأبيض والأزرق . وحتى لعب الأطفال من الشخائيل والتماثيل صغيرة الحجم — وكان القبط يحبون التماثيل الصغيرة جداً المصنوعة من الطين في أشكال كاريكاتيرية وتعرف باسم أنطيو —

١- سعيد حوي : الرسول ﷺ مجزاء ، مكتبة وهبة .

٢- ابن كثير القرشي المشقي : البداية والنهاية ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٣

هادريان أو المساحيط .. أدوات حضارية كثيرة ، وإن كانت صغيرة ، تركتها مارية خلفها في قريتها الصغيرة حفن ، وكان من الصعب تعويضها في البيئة الجديدة .

ويقال إن النبي كان لديه مشط ومرآة ومدھنة وسواك وكحل ، وأن المقوقس أهدي له فيما أهدي قدح زجاج كان يشرب فيه ، (وقال عاصم هو قدح جيد عريض من نضار)^١ ، كما أهدي له (ربعة) يضع فيها (المرآة ومشطاً من العاج والمكحل والمقص والسواك)^٢ . وعلي الرغم من صغر هذه الأدوات إلا أنها كانت منار إعجاب البيئة المحيطة بالنبي وليلاً علي تميزه ، حيث يبعث وجودها علي راحة الإنسان ورقي نمط معيشته عموماً ، وينفع غيبها إلى خشونة الحياة وجهامتها .

وغياب كل تفاصيل الحياة اليومية وأدواتها التي تعودت عليها مارية في موطنها الأول كان يعني غياب وفقدان الألفة مع المكان الجديد وغربتها الكاملة عن كل ما يحيط بها ... مع ملاحظة أن جمال مارية وإعجاب النبي بها وغيره النساء منها بسبب اختلافها الحضاري والذي كان لا يزال يترك آثاره في ملابسها وزينتها وطريقتها في التعامل مع كل ما يحيط بها... فكان النبي كثير للتردد عليها طالما كان مقيماً في المدينة ، وفي أثناء الغزوات كان يتركها وحيدة في العالية حتى يعود .

ويري (جاك تاجر) أن تأثير مارية علي النبي كان تأثيراً حسناً جداً فأحب الأقباط من خلالها وأوصي بهم خيراً ، وأنه اطلع علي جزء كبير من تفاصيل وضعهم الاجتماعي ، ومدى الغبن الواقع عليهم من خلال معاشرته لمارية ... وقد

١- شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، الجزء الأول .

٢- المصدر نفسه : الجزء الأول ، ص ٢٨٩ .

زادت مكانتها لديه حينما رزقت بالولد في (ذي الحجة من سنة ثمان هجرية) بعد حرمانه من الإتيان لسنوات طويلة تعدت العشرين عاماً ، وفقده لابنيه القاسم وعبد الله من السيدة خديجة في طفولتهما الأولى .

وكان ميلاد إبراهيم بعد فتح مكة ، فاستخلف النبي صديقه أبا بكر علي المدينة المفتوحة ، وعاد إلى المدينة . كما بدأت وفود القبائل تهل عليه وتبايعه في المدينة معلنة خضوع الجزيرة العربية كلها لحكم النبي وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية .

وحينما جاء أبو رافع ، أحد موالي النبي الذين أوقفهم علي زراعة العالية ييسره بالولد فرح فرحاً شديداً وأعتقه من أسر العبودية ، بل أعتق مارية نفسها قائلاً : أعتقها ولداها .

وكانت سيرين أخت مارية قد أنجبت هي الأخرى ولداً لحسان بن ثابت يدعي عبد الرحمن . ويبدو أن طول سنوات حرمان النبي من الأبناء الذكور ، رغم كثرة زواجه ، وبلوغه سن الستين — قد جعل الفرحة بالمولود تتضاعف ، فاحتفل يوم سبوعه احتفالاً كبيراً بأن (عق عنه بشاة وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة علي المساكين وأمر بشعره فدفن في الأرض)^١.

وكانت زوجة أبي رافع قابلة مارية في الولادة وقد سميت العالية أو الموضع الذي سكنته مارية في العالية بمشربة أم إبراهيم ، لأن مارية (تعلقت حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشربة) . ويقول ابن الشبه في كتاب تاريخ المدينة المنورة أن تلك الخشبة معروفة حتى اليوم ، يقصد حتى أيام زمانه في القرن الثالث الهجري ، مما يبين مدى حفاوة الجميع بميلاد إبراهيم خصوصاً وأن ميلاده جاء بعد اتساع سطوة الدولة الإسلامية وزيادة نفوذ النبي وخضوع القبائل

له واتساع الثروة الأتية من غنائم الحرب ... وقد (تتافست نساء الأنصار أيتها ترضعه وأحبين أن يفرغن مارية لرسول الله ﷺ لما يعلمن من هواه فيها) ^١.
فاختار النبي مرضعة لابنه — علي عادة أثرياء العرب — وأعطاه لها يعيش معها بعيداً عن أمه مارية :

(فدفعه رسول الله ﷺ إلى أم بردة المنذر بن زيد ليبيد بن خداس بن عامر وزوجها البراء بن أوس ، فكانت ترضعه وكان يكون عند أبيه في بني النجار ، ويأتي رسول الله ﷺ أم بردة فيقبل عندها) ^٢.

والمرأة العربية التي تنفع وليدها إلى مرضعة تعتبر ذلك من علامات قدرتها وعلو شأنها وثراء أسرتها ، أما الفلاحة المصرية فقد تعودت أن تنشئ رضيعها بين أحضانها ، وتوفر له كل عوامل الاستقرار والحب ... ومارية الفلاحة القبطية الغريبة عن جميع من حولها حينما تنجب طفلاً فهي تتمنى أن يعوض غربتها ووحدتها ... ومع ذلك فقد انتزعوه من أحضانها وأعطوه لغريبة تحل محل أمه ...
تر كيف كانت مشاعر مارية في ذلك الحين ... وكيف تعاملت مع هذا الوضع ...؟
هذا مالا تُجيبنا عنه المصادر التاريخية التي لم تلتفت إلى مشاعر الجارية الغريبة كشأن العرب المحيطين بها .

أما النبي فكان يري ذلك عادياً وطبيعياً ، وكان فرحاً بابنه الذكر ، ويكثر الذهاب إلى بيت المرضعة ويقبل عندها — أي يقضي فترة القبوله عندها — ويضع إبراهيم في حجرة ويلطفه ، وأحياناً يحمله علي يديه ويخرج به ، ويروي الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت :

١- محمد بن سعد : المصدر السابق .

٢- المصدر نفسه .

(دخل علي رسول الله ﷺ ومعه ابنه إبراهيم يحمله ، فقال انظري إلى شبهه بي ... ، قالت عائشة أرى شبهها — تقصد مارية — قال أما ترين بياضه ولحمه ؟ قالت من قصر عليه اللقاح ابيض وسمن)^١.

وكان النبي قد أوقف قطعة من الغنم لمارية وإبراهيم يستفيدان من لبنها (فكان جسمه وجسم أمه مارية حسان) ، كما يقول ابن سعد^٢.

ومن المعروف أن النبي كان يملك عدداً من اللقاح وعددها عشرون ترعي في مكان كثير الزرع يسمى بالغابة ... وقد خصص النبي لكل زوجة من زوجاته لقحة (ناقة حلوب) ، وكانت لقحة عائشة تدعى السمراء ، ولقحة أم سلمى تدعى العريس ...

فلم تكن لقحة مارية وابنها بشيء فريد — إذن — حتى يثير غضب الزوجات اللاتي يثرن ضد غريمتهن بلا سبب واضح أو منطقي ... ، فما بالنا إذا كانت هذه الغريمة هي أم الولد في بيئة تقدر الأبناء الذكور ... ؟

لكن فرح النبي بإبراهيم لم يدم ، حيث مرض الطفل في عامه الثاني .. وحضرته الوفاة وهو لم يكمل رضاعه بعد ... فهل أصابه مرض حمي الملاريا ، خصوصاً وأن مياه السيول كانت تتراكم في المدينة في هذا الوقت (وتكون مستنقعات تؤدي إلى انتشار البعوض الناقل لحمي الملاريا)^٣ ، أم كانت وفاته بسبب مرض آخر ... ؟

١- تاريخ اليعقوبي ، ص ٨٤ .

٢- ابن سعد : الطبقات الكبير ، الجزء الرابع .

٣- الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين : جامعة الملك سعود ، الجزء الثاني

ويقال إن النبي حينما بلغه نبأ مرض إبراهيم (أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف وانطلق إلى النخل فيه ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه فأخذه فوضعه في حجره ثم بكى) . وقد هزعت « سيرين » هي الأخرى إلى أختها مارية حينما سمعت نبأ مرضه ، فتروي عن ذلك وتقول :

(حضرت موت إبراهيم فرأيت رسول الله ﷺ كلما صحت أنا وأختي ما ينهانا ، فلما مات نهانا عن الصباح)^١ .

فهل كانت مارية وسيرين تصيحان علي إبراهيم بالقبطية أم بالعربية...؟
أم اختلطت الأصوات لدي الأم التكلية الآتية من أعماق الصعيد المصري ، وفيه تعبر التكلية عن حزنها بالعديد الحار وتلطم الخدين ، وتحل الشعر ، وتتمايل مع اهتزازات إيقاع العديد .

وسرعان ما انتهت مراسم دفن إبراهيم بالبقيع ، وعادت مارية ذائبة إلى العالية ... وحيدة وحده مركبة ... وحزينة إلى ما لا نهاية بعد فقد وحيدها .

بينما عادت سيرين إلى حياتها السابقة في بيت حسان بن ثابت مع ابنها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ... وقد امتدت حياة عبد الرحمن بن سيرين بعض الوقت في بلاد العرب ، وأنجب ابنه سعيداً وإسماعيل ، الذين قُتلا بأيدٍ عربية في وقعة الحرة عام (٦٣ هـ) أثناء النزاع العربي/العربي علي الثروة والنفوذ، وفيها هاجمت جيوش يزيد بن معاوية المدينة لإجبار أهلها علي إعطاء البيعة ليزيد... فقتل في هذا اليوم ألف وسبعمائة من العرب ، ومن ضمنهما سعيد وإسماعيل ابنا عبد الرحمن بن ثابت ، وانقطع بذلك نسل سيرين القبطية من العرب^٢ .

١- ابن سعد : الطبقات الكبير .

٢- ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٤٧ ، وقد أٌبيحت المدينة ثلاثة أيام للقتل والنهب .

وبعد وفاة إبراهيم طلق النبي « الشنباء بنت عمرو الغفارية » ، وكان قد تزوجها قبلها بعدة أيام ولم يدخل بها لأنها حاضت (حين دخلت عليه ، ومات إبراهيم قبل أن تطهر فقالت لو كان نبياً ما مات أحب الناس إليه ... فسرحتها رسول الله ﷺ)^١.

وفارق النبي الحياة في الثالثة والستين من عمره ، وترك مارية شابة صغيرة السن ، ولم يذكر لنا المؤرخون عمرها علي وجه التحديد ، ولكن بالحساب المنطقي لحياة جارية صغيرة جميلة أهديت إليه في ريعان صباها ، بينما كان النبي في الثامنة والخمسين أو نحوه ، وعاشت في يثرب منذ أواخر العام السابع للهجرة ، ثم فارقتها النبي في العام الحادي عشر بعد مرور حوالي خمسة أعوام أو أقل علي الحياة معه ، وتركها للوحدة المطلقة والغربة الشاملة ، حيث يطبق عليها قانون عدم الزواج مرة أخرى كشأن سائر زوجات النبي ، وإن لم ترق إلى مرتبة الزوجة .. وأمرها القيمون علي الأمر بأن تعتد بعد وفاة النبي ، فاستبرأت ثلاث حيضات متتالية ... ثم عاشت وحيدة فحضرت زمن خلافة أبي بكر الذي ينفق عليها من بيت المال دون أن نعرف مقدار عطائها علي وجه التحديد ، ثم أدركتها الوفاة زمن الخليفة عمر بن الخطاب في المحرم عام ستة عشر من الهجرة ، ويقال إن عمر :

(كان يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها) ، فماتت في ريعان شبابها وهي لم تتجاوز العقد الثاني من عمرها علي أكثر تقدير ، والأرجح أنها كانت تقترب من عائشة في العمر .

١- الطبري : الجزء الثالث ، ص ١٦٦ ، شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، الجزء الأول ، ص ٣٣٢ .

بينما عمرت بقية نساء النبي ، وعشن حتى بلغن الشيخوخة ، وشهدن أحداث تطور الدولة العربية واتساعها شرقاً وغرباً ، فتوفيت أم حبيبة عام أربع وأربعين هجرية ، أي بعد وفاة مارية بحوالي ثمانية وعشرين عاماً وبعد وفاة النبي بحوالي ثلاثة وثلاثين عاماً . وتوفيت حفصة بنت عمر عام واحد وأربعين بعد وفاة النبي بحوالي خمسة وعشرين عاماً .

وتوفيت عائشة عام سبع وخمسين هجرية ، وكان سنها حين حضرتها الوفاة خمس وستين سنة ، وشاركت في أحداث كثيرة ، وشهدت الفتوحات ونالت العطاء لأكثر من ستة وأربعين عاماً ... وكانت هي أقرب الزوجات إلى عمر مارية علي وجه التقريب ، فعاشت أكثر منها بحوالي واحد وأربعين عاماً بينما كانت أم سلمى آخر زوجات النبي اللاتي أدركتهن الوفاة ، حيث توفت عام واحد وستين هجرية^١ . وموت مارية المبكر جداً يرجع لأسباب كثيرة : ربما المرض ... ربما الوحدة... ولكن السبب الأكثر تأكيداً هو الإحساس بالغربة الشاملة ... وقد دفنت بالبقيع بعيدة عن بلادها آلاف الأمطار ، دون أن تسمع عن فتح المسلمين لمصر ، وطنها الأول .

وإن قُذِّمت هي وأختها شرارة الروح المصرية التي حلت ببلاد العرب بعض الوقت ، فبينت مدى الاختلاف بين الحضارتين في السلوك والعادات والتكوين الثقافي .

ولو اهتمَّ المؤرخون قليلاً بمتابعة تفاصيل هاتين المصريتين نصف اهتمامهم بمتابعة سير الزوجات العربيات الحرائر ، لكانت الصورة أكثر وضوحاً ،

١- روي الطبراني أن أول من مات من أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش وآخرهن موتاً أم سلمة

وتفاصيل الغربة والوحدة أكثر اتساعاً ودقة . مما يجعل الموت المبكر نتيجة طبيعية وحتمية في ظل تلك المفارقات العميقة .

الفصل الثاني

وقائع الفتح
وسير الفاتحين

(ذكر أهل العلم والمعرفة والراوية أنه دخل مصر في فتحها ممن صحب رسول الله ﷺ مائة رجل ونيف)^١.

كانوا يمثلون قمة الصفوة العربية ، ومن خلفهم آلاف الجند الممثلين للقبائل المختلفة : العدنانية منها ؛ أو ما يسمى بعرب الشمال ، والقحطانية الأصول ؛ أو ما يسمى بعرب الجنوب .

وتتباين هذه القبائل من حيث الثراء والمكانة ، فعرب الشمال كانوا يتباهون على عرب الجنوب بالمبالغة في الأحساب والأنساب وحيازة شرف الإحاطة بالكعبة ، واحتكار تجارة شبه الجزيرة العربية والثراء ، ثم ظهور الدين الجديد بينهم ، وكما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان : « إن أهل مكة كانوا آمنين يغزون الناس ولا يغزون ، ويسبون ولا يستبون ولم تسب قرشية قط فتوطأ قهراً » .

وظلت قريش تنه على ما عداها من القبائل ، وتحتل موضع السيادة بينهم قبل وبعد الإسلام .

وكان جيش العربي القادم لفتح مصر يتكون من وحدات قبلية تسمى ألوية ، ويرفع كل منهم رايته المختلفة اللون والشكل عن رايات القبائل الأخرى ، ومن القبائل ما يكون على ميمنة الجيش ، ومنها ما يكون على ميسرته ، ثم يتوحد الجميع تحت راية القلب حول القائد العام للجيش .

وجاء من عرب الشمال في هذا الجيش ما يمثل حوالي ثلاثين قبيلة تضم ثلاثين بطناً من أبرزها : قريش ، وفهر ، وعامر ، وغفار ، وتقيف ؛ الذين احتل كبارهم

١- محمد بن يوسف الكندي : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم العدوي ، علي محمد عمر ، ص ٢٨ . ومنهم : الزبير العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن الصامت وأبو الدرداء عقبه بن عمر ، وأبو ذر الغفاري ، ومحمية بن جزء الزبدي ، ونبيه بن صواب المهري ، ورافع بن ملك ، وربيعه بن شرحبيل بن حسنة ، وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم .

مواقع أمراء الجيش وقواده ، وخرج منهم بعد ذلك أصحاب الشرط والقضاة ورؤساء الدواوين والقادة الذين حكموا مصر في العقود التالية للفتح .

ولم تبعث بعض القبائل الشمالية صاحبة السيادة والنفوذ سوى بأعداد قليلة من الرجال لا يكاد عددهم يكفي لتشكيل لواء مستقل للقبيلة كما هي العادة ، من هذه القبائل قليلة التمثيل : قريش نفسها ، والأنصار ، وخزاعة ، ومزينة ، وأشجع ، وتقيف ، ودوس عبس ، وجرش من كنانة ، ورفض كل وفد من هؤلاء الشماليين الأترياء الانضمام تحت راية قبيلة أخرى ، حتى لا تنقص مكانتهم ويصبحوا تابعين لغيرهم ، فرأى عمرو بن العاص القائد العام — بذكائه السياسي — للتغلب على هذه العقبة الداخلية في بناء الجيش أن يبادر إلى (جمعهم معاً وجعل لهم رايته هو بصفته القائد العام)^١ .

وكان عمرو يفضل استخدام راية سوداء اللون على غرار أول راية أعطاها له النبي في غزوة ذات السلاسل ، ومن يومها ظلت راية عمرو سوداء ، فرفعها في وقعة قيسارية وفي اليرموك وحروب الشام وفي معركة صفين .

أما ملابس عمرو — القائد العام — فيصفها الواقدي يوم وقعة قيسارية بقوله :
(عليه من فوق درعه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء وقد أدارها على رأسه كوراً وأرخص لها عذبة ، وفي وسطه منطقة ميور وقد تقلد بسيفه وأعتقل برمحه ، وأنه ظل على تلك الهيئة حتى وهو متوجه إلى أمير الروم في مباحثات ثنائية ، وحينما رآه الترجمان ضحك ، فقال له عمرو مما تضحك يا أبا النصرانية ، قال من دناءة زيك وحملك لهذا السلاح ما الذي تصنع به وما تريد حرباً ؟ قال عمرو إن العرب حمل السلاح شعارهم وهو

١- عبدالله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

وطاؤها ونثارها وإنما حملت السلاح معي استظهاراً لي على عدوى ولعلّي أن
القي عندكم حرباً فيكون السلاح حصناً لي .

وكانت صفة عمرو بن العاص : (قصيراً عظيم الهامة ناتئ الجبهة واسع الفم
عظيم اللحية عريض ما بين المنكبين عظيم الكفين والقدمين)^١.

أما عن بقية الجيش ، فسنجد الجنود ذوي الأصول القحطانية ، والذين شكلوا
قاعدة الجيش من الجنود المقاتلة ، وبلغوا حوالي ثلاثة أضعاف عرب الشمال ذوي
الأصول العدنانية ، فجاء منهم ما يمثل حوالي واحد وستين قبيلة يتفرع منها إحدى
عشر ومائة بطناً ، من أبرزها : الأزد ، وتجب ، ولخم ، وجذام ، والمعافر .

والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الجنوبيين كانوا من العرب المرتدة ، الذين
انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي رافضين دفع الجزية ، وحاربهم عليها
أبو بكر وأحرق من زعمائهم حتى أخضعهم مرة أخرى ، وكان أبو بكر يرفض
انضمام أهل الردة إلى جيوش الفتح ، ثم رأى بعد ذلك أن يُسمح لهم بالانضمام إلى
جيوش الفتح ووضعهم في أتون المعارك الخارجية ، فتح عمر بن الخطاب هذا
الباب واسعاً حتى يشغلهم عن الفتن والقلال الداخلية ، ويعطيهم فرصة الحصول
على بعض المنافع وتغيير وضعية الفقر المدقع التي كانت تحاصرهم ، وخصوصاً
قبيلتي عك وغافق — أصحاب الكثرة العددية في جيش عمرو بن العاص . كما
انضم إلى جيش الفتح عدد من الصعاليك — قطاع الطرق — الذين أسلموا ، وعلى
رأسهم أبو ذر الغفاري ؛ أحد صحابة النبي .

وقد انضم إلى الجيش العربي في طريقه من الشام وفلسطين إلى مصر عدد من
البدو ، وبعض الفرس ، وبعض الروم المهزومين ، وعرب الأنباط الذين قاموا
بدور الأدلاء والترجمة والمراسلين .

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٥٣ .

وهناك في أقصى الطرف المنسي من الصورة .. في مؤخرة الجيش ، كانت الجمال تتهادي ، وفوقها هودج النساء من زوجات القادة والأمراء ورؤوس القوم/ومن خشي أن يترك امرأته هناك مع القبيلة ، أو في مدن الصحراء الناشئة . جاءت العرب بالظعن — كما يقولون — كعلامة من علامات عزمهم على القتال حتى الموت دفاعاً عن الزوجات والحريم ، أو الانتصار على العدو . وكانت عادة اصطحاب النساء في الحرب عادة عربية قديمة لتحميم الرجال وقضاء حاجاتهم العاجلة ، وظلت تلك العادة سارية في غزوات النبي وبعد الإسلام^١.

وفى جيش فتح مصر جاءت ربيعة بنت منبه بن حجاج القرشية ؛ زوجة عمرو بن العاص ، التي لا نجد ذكرها سوى أثناء حصار الإسكندرية ، حينما اشتد القتال ، وقال بعض المسلمين يحترق عمرو : (إن العدو قد غشوك ونحن نخاف على ربيعة ، فقال إذا وجدون رباطاً كثيرة)^٢ .

فعمرؤ يقرر أنه في حالة انتصار الرومان على العرب فإنهم سيجدون رابطات كثيرات مثل زوجته ، مما يدل على وجود عدد من زوجات القادة العرب اللاتي جنن بصحبة الجيش — مثل بسيسة بنت أبي يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبي

١- روت عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج في سفر أفرغ بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها ، وكان يحب ألا أفارقه في سفر ولا حضر .. فما أراد غزوة المر يسيع أفرع بيننا فخرج سهمي وسهم أم سلمة فخرجنا معه ، لمزيد من التفاصيل ، انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الثالث .

٢- ربيعة أسلمت بعد زوجها يوم الفتح وهي واحدة من الخمس عشرة امرأة اللاتي خرجن لإثارة نار قريش ضد المسلمين ، وظلت تجاهر بعداوتها للإسلام حتى يوم الفتح ، وهي واحدة من وفد ساء قريش اللاتي آتين بالأبطح وبايعنه بشروط معينة .

٣- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس

سرح ، وزوجة معاوية بن حديج ، بالإضافة إلى خولة بنت الأزور الكندية ، ومزروعة بنت عملوق الحميرية ؛ اللتين يقول عنهما الواقدي أنهما قد (أبلتا بلاءً حسناً في فتوح الشام ومصر) .

وسار الجيش في طريق غزة / رفح / العريش / الفرما ، ومنها إلى الصالحية / بلبس وبها حامية رومانية بقيادة (Arteon) الذي سمّاه العرب الأرطبون ، وبعد قتال شهر استولى عمرو على المدينة ، ومنها انطلق إلى رأس الدلتا (فوصل إلى قرية تسمى تندونباس ويسمّيها العرب أم دنين واستولى عليها ، وحاصر العرب حصن بابليون ، ولما طال أمر الحصار أحس عمرو أنه في حاجة إلى مدد فأرسل إلى عمر بن الخطاب ، وجاء المدد بقيادة (أربعة من كبار القادة هم الزبير بن العوام ، وعادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد الأنصاري ، والمقداد بن الأسود) .

وكانت صفة الزبير بن العوام « فيما يزعمون ، أبيض حسن القامة ليس بالطويل قليل شعر اللحية أهلب كثير شعر الجسد » .

أما عبادة بن الصامت ، فكان قصيراً لا يتعد طوله « العشرة أشبار » شديد السواد . وكانت صفة مسلمة بن مخلد ، ثميناً كثير اللحم ثقیل البدن ، وقد قال عنه عمرو بن العاص في إحدى المعارك : (ما بال الرجل الذي يشبه النساء يتعرض في مداخل الرجال) .

واشتدّ ساعد عمرو بهذا المدد ، فشدد الحصار وخرج الروم للقائه عند هليوبلس ، وانتصر العرب عليهم ، ثم استطاعوا الاستيلاء على حصن بابليون ، ومن ثم انطلقوا إلى الإسكندرية ، عاصمة الدولة الرومانية – عبر قرى ومدن

مصر السفلى ، وفتح عمرو في طريقه « طرنوط » ، ثم نقيوس ، ثم سلطيس ، ثم الكربون ، وجاء دور الإسكندرية .

واستمرت أعمال الفتح حوالي ثلاثة أعوام من ١٨ هـ / ٦٣٩ م / وحتى تسليم الإسكندرية في ١٦ شوال ٢٠ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤١ م .

وبدت صور اللقاء للوهلة الأولى مختلفة التوازن ، متنافرة الأطراف بين الجيش العربي المغطى بغبار الصحراء وآثار القتال المتواصل ، والفرسان النحيفين شعث المظهر والجياد النافرة ، ويقال أن صفة الجنود اليمنيين المشككين لقاعدة الجيش العربي أنهم كانوا نحيفين ، ناتئ العظام ، وتغلب عليهم سمات تواضع المظهر وفقر الثياب .

بينما كان الجانب الآخر من الرومان يسرف في الزينة والتأنق والترهل . أيضاً يأكل الخلاف قادتهم ، ويقاثل بعضهم بعضاً ، ويختفون خلف الحصون ، وقد فضل بعضهم الفرار ليلاً تاركين جنودهم للموت .

وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم إدارية ، تستقل كل منها بحاميتها العسكرية وقائدها المستقل ، مما يفسر روح التطاحن الشديد بين القادة ، وصمود بعضهم للقتال ، وفرار البعض الآخر .

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى أخرى ، ومن مدينة إلى التي تليها كانت جموع الشعب المصري العزل من السلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الدائرة بين العرب والروم ويكاد الخوف من الجانبين أن يعصرهم وذكرى حروب الروم والفرس لم تجف دماؤها بعد ، وقد فضلت بعض قرى أسفل مصر الانضمام إلى جيش الروم ، تقايل معهم جيوش الغزو العربي .

هكذا بدت الصورة الخارجية لعناصر الصراع لحظة الفتح العربي لمصر ،
وتحتها آلاف التفاصيل والتشابكات والتناثرات التي سنحاول الاهتمام بتجميعها
وترتيبها ؛ علما تلقي الضوء على بعض المسكوت عنه في كتب التاريخ ، وما
تفرع عنها من دراسات ونتائج أخذت صفة القداسة والإطلاق على مرور الزمن .
وتحكي بعض المصادر التاريخية أن حديثاً جرى بين عمرو بن العاص وأحد
الرومان في الإسكندرية ، حينما دعا هذا الروماني قادة العرب إلى ما يشبه
المناظرة : (قال عظيم منهم أخرجوا إلى رجلاً أكلمه ويكلمني ، فقلت لا يخرج
إليه غيري ، فخرجت معي ترجماني ، ومعه ترجمانه حتى وُضع لنا منبران فقال
ما أنتم ؟... قلت نحن العرب ومن أهل الشوك والقرظ ونحن أهل بيت الله ، كنا
أضيق الناس أرضاً وشره عيشاً ، نأكل الميتة والدم ويغير بعضنا على بعض ،
كنا بشر عيش عاش به الناس ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفاً
ولا أكثرنا مالاً ، قال أنا رسول الله إليكم يأمرنا بما لا نعرف وينهانا عما كنا عليه
، فشنعنا له وكذبناه ورددنا عليه حتى خرج إليه قوم من غيرنا فقالوا نحن نصدقك
ونقاتل من قاتلك ، فخرج إليهم وخرجنا إليه وقاتلناه فظهر علينا ، وقاتل من يليه
من العرب فظهر عليهم ، فلو تعلم ما ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم
يبق أحد إلا جاءكم)^١.

وتكمن المفارقة في هذا الحديث الطويل في إبراز حال أناس يعانون ضيق
الموارد أمام أناس يتيهون ببذخ العيش ، فلو علم هؤلاء العرب بما تتمتع به مصر
من الخيرات لما بقى أحد منهم إلا وجاء يعبئ من خيراتها . وليس معنى ذلك
الإقرار بأن كل العرب كانوا فقراء مدقعين قبل الفتوحات العربية ؛ بل على
العكس فقد كان منهم التجار الأغنياء ؛ وجهاء قریش وأعيانها المسرفو الثروة ،

١- شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء .

مالكو العبيد والقطعان والإبل والعطر والجلود والحريز ، أصحاب قوافل التجارة إلى الشمال والجنوب ، وهمزة الوصل بين بضائع الشرق من التوابل والبخور وبضائع الغرب من النسيج ... أصحاب الروح المرنة ، والثقافة المطلعة على تطورات عصرهم ... وقد أسلم هؤلاء الوجهاء بأخرة قبل فتح مكة بقليل أو بعدها ، وهم من عفا عنهم النبي وسأهم بالطلاق ، وبعد عدواتهم المفرطة للإسلام — دين المستضعفين — في البداية ، أصبحوا هم سادة الدولة الجديدة ، كما كانوا سادة القبائل القديمة ، وراكموا في الوضع الجديد أضعاف ما راكموا قديماً.

وعمر بن لفسه قائد الجيش العربي لفتح مصر والذي أسلم متأخراً بعد صلح الحديبية ، كان ابناً لرجل من أهم أثرياء قرش ، ويحكى أنه اشترى قبل إسلامه حلة بمائة بعير ، (وأقبل يخطر فيها حتى أتى بنى مخزوم ، فنادة عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وقال أتبيع الحلة يا عمرو ؟ وقد كان بين الرجلين منافسات عديدة علي السيادة والفتوة ، فغضب عمرو وأنشد شعراً يهجو فيه عمارة ، فغضب عمارة وقال يا عمرو ما هذا التهور ؟ إنك لست بعتبة بن ربيعة ولا بأبي سفيان بن حرب ولا الوليد بن المغيرة ولا سهيل بن عمرو ، ولا أبي بن خلف ، وكان كل هؤلاء من أغنياء قرش وسادتها)^١.

فرد عليه عمرو بفصاحته المعهودة بأنه إن لم يكن أحد هؤلاء فقد جمع خير ما فيهم — لمزيد من التفاصيل حول مدى ثروة قرش ، وإسراف سادتها في التمتع — انظر كتاب الأغاني للأصفهاني .

وثرء قرش كان يقابله فقر شديد تعاني منه القبائل العربية الأخرى ، وخصوصاً القبائل ذات الأصول الجنوبية ، والتي نزح بعضها إلى بادية الشمال

١- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، الجزء الثامن عشر ، لخبار عمارة بن الوليد ونسبه ، ص ١٢٣ .

بحثاً عن الرزق ، وهي من يسميها عمرو بأهل الشوك والقرظ ، وإليها تعود غالبية جيشه .

وقد أدرك عمرو منذ بداية فتح مصر فداحة الفرق بين ملابس رجاله وملابس جيش الرومان ، فحاول تغيير الصورة وإخراجها من جديد بأن فرض على المصريين إلى جانب ما يؤدونه من الجزية والخراج وواجب الضيافة والمحاصيل العينية أن يقدموا (لكل رجل من أصحابه ديناراً وجبة وبرنساً وعمامة وخفين)^١ ويؤيد البلاذري ذات الرواية بقوله :

(وأحصي المسلمون فالزم جميع أهل مصر لكل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام . أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً)^٢ .

بعد أن تهنئ العرب بتياب أهل مصر الغالية الثمن ، جاء نفر من القبط — وغالباً هم من الزعماء — يستأذنون عمرو في الرجوع إلى قراهم وأهلهم فسألهم عمرو : (كيف رأيتم أمرنا ؟) ، وبحكمة المغلوب علي أمره قالوا لم نر إلا حسناً ، فقال لهم إذن لا حاجة لنا الآن بصنيعكم أعطونا عشرين ألف دينار)^٣ .

وأضيف عبء هندمة الفارس العربي إلى عبء تأمين طعامه الذي يقضي به قانون ضيافة الفارس مدة ثلاثة أيام في أي مكان ينزل به ، وتوفير كل ما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب وإقامة ، وهو ذات الحق الذي كان الرومان يفرضونه لأنفسهم من قبل ، وكان الفلاح القبطي يشكو منه مرّة الشكوى .

١- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، الجزء الأول ، ص ٢٩٣ .

٢- البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٥٣ .

٣- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، الجزء الأول ، ص ٢٩٣ .

وتنبؤنا تلك الفوارق الكبيرة بين القادة والجنود في الأصل القبلي وفي نوع الملابس ، وفي غيرهما ، أن صورة المساواة الكاملة التي وردت عدة مرات في كتب التاريخ العربي علي لسان بعض الرومان ، كما في قولهم : (أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا السيد من العبد)^١ . أو فيما وضعوه علي لسان المقوقس أن العرب : (ليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا قدر بلعة العيش من الطعام واللباس)^٢ . هي صورة تحتاج إلى إعادة نظر ، لأنها تتناقض مع كثير من حوادث النزاع داخل الجيش العربي الناتجة عن صراع العنجهيات القبلية ، ورغبة كل قبلية في الاستئثار لنفسها بدرجة أعلى من الأخرى ، وخصوصاً بالنسبة لقبيلة قريش وقادتها الأقل عدداً والأكثر استحواذاً علي المغام، وقد أدى هذا الوضع إلى ثورة الجنود عدة مرات عليهم .

ويذكر المؤرخون أنه قد حدث سوء تفاهم في أثناء الهجوم علي حصن بابلون بين الزبير بن العوام القرشي ابن عمه النبي ، وقائد جيش المدد الذي جاء لإنقاذ جيش عمرو بعد فترة طويلة من الحصار ، وبين شُرْحَيْيل بن حُجَيَّة المُرَادِي من قبيلة مراد التي كانت تحتفظ بطابع (بدوي نموذجي علي الرغم من أنها كانت تجاور حضارة جنوبي الجزيرة ، ويبدو أن بلادهم الجرداء المجدية كانت مسؤولة عن سمعتهم السيئة وكونهم قطاع طرق)^٣ .

وكانوا من أهل الردة المهزومين الذين انضموا إلى جيوش الفتوحات مؤخراً ، وحينما حدث النزاع بين الزبير و شُرْحَيْيل بن حُجَيَّة المُرَادِي ، والذي كان قد نصب مسلماً آخر علي حصن بابلون بخلاف سلم الزبير بن العوام وكان من

١- البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ، نهضة مصر ، ص ٢٥٣ .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها .

٣- عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ، ص ٢١٤ .

السَّابِقِينَ إِلَى اقْتِحَامِ الْحَصَنِ ، فَمُتَنَازَعًا عَلَيَّ شَرَفَ بَدَايَةِ الْاِقْتِحَامِ وَمَنْ يَكُونُ صَاحِبُهُ ... ؟

وَرَأَيْتُ الزَّبِيرَ أَنَّهُ الْقَائِدُ وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْمُقْتَحِمِينَ ، وَظَلَّ يَفَاخِرُ بِذَلِكَ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُعَلِّقُ فِي قَصْرِهِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَقِّ هَذَا الْيَمَانِيِّ أَنْ يَنَازِعَهُ شَرَفَ جَسَارَةِ الْاِقْتِحَامِ ... وَتَصَاعَدَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمَا حَتَّى : (عَرَضَ عَمْرُو عَلَيَّ الزَّبِيرَ أَنِ يَسْتَقِيدَ مِنْ شُرْحُبِيلِ الَّذِي أَهَانَهُ ، وَلَكِنَّ الزَّبِيرَ اسْتَكْبَرَ قَائِلًا : أَمِنْ نَعْفَةٍ مِنْ نَعْفِ الْيَمَنِ أَسْتَقِيدُ يَا بَنِي النَّابِغَةِ ؟)^١.

وَالنَّعْفَةُ هِيَ الدُّودُ الَّذِي يَكُونُ فِي أَنْوْفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ ، مِمَّا يَعْكُسُ نَظْرَةَ شَدِيدَةِ التَّعَالِيِ وَالْعَنْصَرِيَّةِ تُغْلَفُ نَظْرَةَ الْقَائِدِ الْقُرَشِيِّ إِلَى جَنْدِيِّ مِنَ الْجُنُودِ يَمْنِيَةِ الْأَصْلِ ، حَتَّى أَنَّهُ رَأَى أَنِ فِكْرَةَ الْقَصَاصِ تَضَعُهُ فِي مَرْتَبَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ ، وَهُوَ ابْنُ الشَّرَفَاءِ ، فَرَفَضَ فِكْرَةَ الْقَصَاصِ مُكْتَفِيًا بِوَضْعِهِ مَعَ أَشْبَاهِهِ مِنْ دُودِ الْيَمَنِ الْمَكُونِ لْغَالِبِيَةِ جَيْشِ الْفَتْحِ لَصْرَ .

وَحَدَّثَ نَزَاعَ آخِرِ بَيْنِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَبَيْنَ أَحَدِ الْجُنُودِ الْبَلُوبِيِّينَ فَأَظْهَرَ الْجَنْدِيَّ سَخَطَهُ فِي وَجْهِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ، وَصَاحَ فِيهِ عَمْرُو : (أَخْرَسَ فَإِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ) ، وَرَدَّ الرَّجُلُ قَائِلًا : (إِنْ أَنْتَ أَمِيرُ الْكِلَابِ)^٢.

وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ بِالْذُّودِ وَالتَّشْبِيهِ بِالْكِلَابِ مَارَسَ الْقَادَةُ مِنْ عَرَبِ الشَّامِ وَخُصُوصًا مِنْ قُرَيْشٍ نَفُوذَهُمْ عَلَيَّ جُنُودِ الْجَنُوبِ الْفُقَرَاءِ النَّحِيلِيِّينَ نَاطِقِي الْعِظَامِ ، وَالْحَالَمِينَ بِتَأْمِينِ الْقُوَّةِ النَّادِرِ الشَّحِيحِ فِي بِلَادِهِمُ الْبَعِيدَةِ . وَظَلَّتْ قُرَيْشٌ تَتَمَتَّعُ بِمَرْكَزِ قُوِيٍّ مُمْتَازٍ فِي السِّيَاسِيَّةِ وَالْحُكْمِ ، حَتَّى أَنَّهُا احْتَلَّتْ مَنَصِبَ الْوَالِيِّ بِنِسْبَةِ أَعْلَى مِنْ كُلِّ الْقَبَائِلِ الْآخَرَى .

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها .

٢- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ص ٢٦ .

وأثناء تقسيم مدينة الفسطاط وتخصيص خطة لكل قبيلة « تنافس الناس في المواضع ، فولّي عمرو بن العاص علي الخطط معاوية بن خديج وشريك بن سئى وعمرو بن قحزم زجيريل بن ناشرة المعافري ، فكانوا هم الذين نزّلوا القبائل وفصلوا بينهم ^١ .

وربما كان استخدام عمرو بن العاص لرجال جنوبيين مثل « معاوية بن حديج » ، « زجيريل المعافري » هو نوع من الذكاء السياسي لضمان سرعة امتصاص الغضب العام وتهذبة الموقف ، ومع ذلك فقد راعت تلك القيادات الجنوبية منزلة القائد العام ورجاله ، فاختطت لبني سهم وقريش قريباً من نقطة الارتكاز بجوار الجامع .

وفي مناطق الإرتباع اختار عمرو المناطق الوافرة بالخيرات القريبة من الفسطاط لنزول القبائل الشمالية ، والمناطق الأقل وفرة والأكثر بعداً للقبائل ذات الأصول الجنوبية .

وقريش التي اختطت حول خطة عمرو ومسجده بالفسطاط أخذت مرتبعتها في (كورة منف ووسيم القريبة من الفسطاط حيث كان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يرتبعون) ^٢ .

أما بالنسبة لديوان العطاء فقد تم ترتيبه في العموم وفق القرابة من النبي ، الأمر الذي وضع قريش علي رأس المنتفعين بهذا الوضع ، وتلتها العدنانية ، ثم جاءت القبائل ذات الأصول القحطانية في مؤخرة ترتيب الديوان والعطايا . وقد حدثت عدة خلافات أثناء توزيع الغنائم ، حينما تمسك رجل من قبيلة مهرة اليمنية بأن ينال نصيبه بعد فتح الإسكندرية تمسكاً بأوشك أن فتح باب النزاع واسعاً مع

١- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ص ٢٢٩ .

٢- عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر .

قريش ، لولا أن عمرو بن العاص تدارك هذا الموقف أيضاً بدهائه السياسي ، وفكر أن يلجأ إلى طريقة لتقسيم الثروة تختلف في ظاهرها عن المتعارف عليه بين العرب ، فأقر نظام الروم المعمول به قبل الفتح في جمع الضرائب والخراج . ورفض مبدأ تقسيم الأرض بين الفاتحين ، وتمسك برأيه أمام تعنت « الزبير بن العوام » الذي كان يريد تقسيم كل الغنائم فيناً ، كما قسم رسول الله غنائم غزوة خيبر ، الأمر الذي يحفظ لقادة قريش خمس أرض مصر وخمس مالها وخمس سببها .

ورفض عمرو تلك الفكرة لأنها ستفتح باب الشقاق واسعاً ، وتمسك بقانون الرومان الذي يعتبر الأرض كلها وحدة واحدة يدفع عنها المزارعون الخراج ومختلف أنواع الضرائب الأخرى ، وكان هناك ديوان كامل ينظم أمر الأرض وضرائبها .

وحينما عرضوا الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب جاء قراره موافقاً لرأي ابن العاص ، واشتروا رضي الزبير حينما (صولح كلئ شئ أرضي به)^١ . وأراد بعض القادة تقسيم سلطيس ومصيل وبلهيت ، وهي ثلاث قري انضمت إلى جانب الروم ، وقاتلت العرب قتالاً شديداً ، لكن الخليفة والوالي رفضا تلك النظرة الضيقة ، ونظراً للفائدة الأبعد في إقرار القبط على جباية الروم ، وفي ترك الأرض حتى « يغزو منها حبل الحبله » .

وفي بيوت الإسكندرية وقصورها رأي عمرو أن تكون « أخائذ » بمعنى أن كل من أخذ منزلاً صار له ولعائلته ، فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغت حوالي أربعة آلاف داراً محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفي كل

١- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ص ٢٩٥ .

دار منها كان يوجد حمّام تختص به ، (فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه)^١ .

وأراد عمرو أن تكون هناك علامة لمنع الخلافات بأن يركّز الرجل رُمحه في الدار وبذلك تصير له دنون غيره ... لكن هذا الاقتراح لم يضع حداً للنزاعات الشديدة (فكان الرجل يدخل الدار فيركّز رُمحه في منزل منها ، ثم يأتي الآخر فيركّز رُمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقيبيلتين وثلاث)^٢ .

انتهى الزهد العربي إذن مع أول خطوات الفتح — هذا إذا سلمنا بوجوده من الأصل — ولم تعد الأقوال الموضوعية علي لسان المقوقس وغيره من الرومان عن زهد العربي في الدنيا ، واكتفائه ببلعة العيش من الطعام واللباس ذات معنى ، في ظل الأحاديث التي ستروي بعد ذلك عن غرق القادة في مظاهر الأبهة والعظمة .

ويُحكى أن عمرو بن العاص كان يحتفظ لنفسه بمظاهر أبهة الإمارة بأن (يلبس الغالي من الثياب والحريير والموشي بالذهب ويتخذ من الحرس والحجاب عدداً)^٣ . ويقول بجير بن ذاخر المعافري : (جئت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة بهجير وذلك آخر الشتاء بعده بأيام يسيرة ، فأطلعنا الركوع إذ أقبل رجال بأيدهم السياط يزخرون الناس فرُعبت — تملكني الخوف — وقلت يَأبُت من هؤلاء ، فقال يابني هؤلاء أصحاب الشرط فأقام المؤذنون للصلاة وصعد المنبر عمرو)^٤ .

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر .

٢- ابن عبد الحكم : المصدر السابق .

٣- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة .

٤- ابن ظهيرة : المصدر السابق .

وَيَصِفُ ذَاخِرَ الْمُعَاظِرِيِّ هَيْئَةً عَمَرُو إِلْتِي رَأَاهُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَيَقُولُ :
(رَأَيْتُ رَجُلًا رُبْعَةً قَصِيرَ الْقَامَةِ وَافِرَ الْهَامَةِ أَدْعَجَ أَبْلَجَ عَلَيْهِ ثِيَابَ مَوْشَاةٍ كَانَتْ بِهَا
الْعَقِيَانُ ١ . تَتَأَلَّقُ عَلَيْهِ حُلَّةُ حَمْرَاءَ وَعِمَامَةُ وَجْبَةٍ ٢) .

وَالْوَالِي الَّذِي يَحِيطُ نَفْسَهُ بِمَوَكِبٍ مِنَ الْحُجَّابِ وَالْحَرَسِ وَرِجَالِ الشَّرِطَةِ - حَدًّا
يَفْزَعُ النَّاسَ حَتَّى دَاخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَيَرْتَدِّي الْحَرِيرَ الْمَشْغُولَ بِالْعَقِيَانِ - وَهُوَ ذَهَبٌ
مُتَكَاتِفٌ فِي مَنَاجِمِهِ خَالِصٌ مِمَّا تَخْتَلِطُ بِهِ الرَّمَالُ وَالْحَجَارَةُ ، لَا يُمْكِنُ الْحَدِيثُ عَنْ
زَهْدِهِ أَوْ مَسَاوَاتِهِ بِجُنُودِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُورِ الْمَسَاوَاةِ الزَّائِفَةِ .

وَتَدُلُّ الرِّوَايَةُ السَّابِقَةُ عَلَى الْمَفَارِقَةِ الشَّاسِعَةِ بَيْنَ أَبْهَةِ الْقَائِدِ الْعَرَبِيِّ الْقَرَشِيِّ
وَمَنْ يَحِيطُ بِهِ مِنَ الْقَادَةِ وَرِجَالِ الْحَاشِيَةِ .. وَبَيِّنُ تَوَاضُعَ مَكَانَةِ بَقِيَّةِ جُنْدِ الْجَيْشِ
الْعَرَبِيِّ ذَوِي الْأَصُولِ الْيَمْنِيَةِ الْفَقِيرَةِ .

١- العقيان : ذهب متكاتف في مناجمه خالص مما تختلط به من الرمال والحجارة

٢- المصدر السابق

(تلك الأمت تحب الذهب والفضة
والنساء والخيل ولذات الحياة)

من مخطوطة قبطية قديمة لأخت
طبيعة الحكيم العربي لمصر

العرب يتناهبون علي الثروة

و ثارت الكثير من الفتن والقتال فيما بين العرب ، ونظر أصحاب العطايا الأهل إلى من يستحوذون على منابع الثروة ، ويذكر البلاذري نبذة عن مدى التفاوت في تقسيم العطاء ، فيقول : (لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسع مائة إلى خمس مئة إلى ثلاث مئة ولم ينقص أحداً عن ثلاث مئة) ١ . وبالطبع يكون التفاوت كبيراً جداً بين مقدار الألفين ومقدار الثلاث مئة ، هذا بالإضافة إلى مصادر الثروة الأخرى التي أتاحت للقادة والحاشية المحيطة بون غيرهم من الرجال .

وقد استخدم عمرو بن العاص هذه النفوذ في جمع ثروة طائلة ؛ حتى بعث الخليفة ابن الخطاب سألته عن مصدرها بقوله : (بلغني أنك فشت فاشية من خيل وإيل ، فاكتب إلي من أين لك هذا المال ؟) ٢ .

ورد عليه عمرو بن العاص : (أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك و لا مال لي ، وإني أعلمُ أمير المؤمنين أني ببلد السعرُ فيه رخيص وأنى أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة) ٣ .

وعمره يعترف في الخطاب السابق بالثروة التي حلت عليه بعد حكم مصر ، فمن أين جاءت ... هل كان يزرع قطعة ارض ، أم كان الأقباط يزرعون له أرض مهد كلها ...؟

١- البلاذري : فتوح البلدان

٢- القلقشندي : صبح الأعشي ، الجزء السادس ، ص ٣٨٦ .

٣- القلقشندي : المصدر السابق ص ٤٧٧ .

ولم يصدق ابن الخطاب حجج عمرو ، وبعث إليه محمد بن مسلمة يقاسمه أمواله ، ومعه رسالة عنيفة ، يقول له فيها : (إنكم معاشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتم الحرام واكتمت الحرام وأورثتم الحرام)^١ . وقاسمه ابن مسلمة كل ممتلكاته ، فقال عمرو ساخطاً : (قَبِحَ اللهُ يَوْمًا صَرْتُ فِيهِ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَالْيَأَى ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْعَاصِ بْنَ وَائِلَ السَّهْمِيِّ — أَبَا عَمْرٍو — يَنْبِسُ الدِّيْبَاجَ الْمَزْرُكُشَ بِالذَّهَبِ ، وَالْخَطَّابُ بْنُ نَفِيلٍ — أَبَا الْخَلِيفَةِ — لِيَحْمِلَ الْحَطْبَ عَلَى حِمَارِ بَمَكَةَ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ : أَبُوكَ وَأَبُوهُ فِي النَّارِ ، وَلَوْلَا الْيَوْمُ الَّذِي أَصْبَحْتَ تَذُمُّ — يَعْنِي لَوْلَا الْيَوْمُ الَّذِي عَيْنُكَ فِيهِ ابْنُ الْخَطَّابِ وَالْيَأَى عَلَى مِصْرَ — لَأَكْفَيْتَ نَفْسَكَ مُعْتَقِلًا عِزًّا يَسُوكُ غَرْزَهَا وَيَسُوكُ بِكَوْهَا)^٢ .

ولم يكن ابن الخطاب يطالب عمرو بتقليل حجم الضرائب وعدم جمع الأموال من قبط مصر ؛ بل كان يطالبه بزيادة الخراج ، والحرص على تحصيل الجزية ، وجمع كل ما يستطيع من خيرات مصر ، وهو صاحب الكلمة الشهيرة « أخرج الله مصر في عمران المدينة » على ألا يحتكر الوالي لنفسه هذه الثروات ؛ بل يبعث بها إلى المدينة موطن الصفوة القرشية الإسلامية ، والتي كان ابن الخطاب يحول بينها وبين نزول الأمصار ، حتى لا تفسد ويفسد معها الدولة الإسلامية ... وكان ابن الخطاب يحرص على جمع ثروات الأمصار في بيت المال الرئيسي ، وتوزيعها عليهم حسب منزلة كل منهم .

فسياسة الخليفة كانت تهتم بالصفوة الإسلامية ، وسياسة الولاة تنحرف إلى الاهتمام بالنفس وبالحاشية المحيطة ... ومن هنا كان خلاف ابن الخطاب مع جميع عماله ومنهم عمرو بن العاص . وقد استمرت ملاحظة عمر للتغيرات التي

١- ابن الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٤٦ .

٢- ابن عبد الحكم : المصدر السابق .

نظراً على ابن العاص من جراء إقامته في بمصر ، وحينما استدعاه إلى المدينة وجده (وقد صيغ رأسه ولحيته بسواد ، فقال عمر : من أنت ؟ فقال : أنا عمرو ابن العاص ، قال عمر : عهدي بك شيخاً وأنت اليوم شاب ، قد عزمت عليك إلا ما خرجت فغسلت هذا)^١ .

وقد جمع عمرو ثروة طائلة من فترتي ولايته على مصر ، ويقال أنه خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهباً ، و (سبعين بهراً دنانير ، وإليها جلد ثور مملوء إردبان بالمصري)^٢ .

ويقال : (خلف عمرو من العين ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الورق ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر ، وضيعة المعروفة بالوهط قيمتها عشر آلاف درهم — حوالي مليون درهم)^٣ .

ونجد في كتاب سير أعلام النبلاء أن عمرو بن العاص امتلك بستاناً بالطائف يسمى تعريش الوهط ألف ألف عود كل عود بدرهم) .

ورغم اقتطاع الخلفاء من مال عمرو — جياً علي سنة ابن الخطاب — فقد ورث ابنه عبد الله — وهو أحد ابنيه — قناطير مقنطرة من الذهب المصري ، فكان عبد الله من ملوك الصحابة ، ونجد في كتاب « المغرب في حلي المغرب » أن عبد الله امتلك قرية عسقلان بكل ما فيها وماعليها ، وهي من حبس عمرو لولده .

والمشهور عن عبد الله بن عمرو أنه زاهداً ، لم يمنعه زهده من ملكية القرى والديار والأموال ، وفي رواية عن سليمان بن الربيع قال : (انطلقت في رهط من

١- ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلي المغرب ، ص ٤٨ .

٢- ابن ظهيرة الفضائل الباهرة ، مروج الذهب ، الجزء الثالث ص ٢٣٠ .

٣- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثالث ، ص ٢٣ ، وفاة عمرو بن العاص

نُساك أهل البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فتحدثنا إليه ، فقلنا علي عبد الله بن عمرو بن العاص فأتينا منزله فإذا قريب منه ثلاثمائة راحلة (وسأل النساك بدھشة (علي كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو ؟ قالوا نعم هو ومواليه وأحبّاه ١) . ولم يكن آل العاص قط من ظهرت عليهم علامات الثراء الفاحش ، بل شاركهم هذا الوضع الزبير بن العوام ابن عمه الرسول ، الذي أصبح يمتلك خطة في الفسطاط وخطة في الإسكندرية وداراً بالكوفة وداراً بالبصرة وإحدى عشر داراً بالمدينة وأرضين فيها الغابة التي يبلغ ثمنها في ذلك الحين سبعين ومائة ألف دينار ، ومن كثرة اتساع ثروته أنه حينما مات وقسمت ثروته علي زوجاته الأربع أخذت كل واحدة منهم ألف ألف ومائة ألف (أي مليون ومائة ألف) ، وحسب رواية ابن سعد أن ثروة الزبير كانت تقدر بخمسة وثلاثين مليوناً ومائتا ألف دينار . وكان يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين ، لكنه قُتل يوم الجمل دون هذا الحلم .

أما خارجة بن حذافة الذي كان قاضياً لعمرو ، أو كان علي شرطته وقُتل فيما بعد بدلاً منه — فقد ترك أموالاً لا تحصى وموالي وعبيد .

ويعلق ابن ظهيرة علي هذا الوضع بقوله : (ولم تزل ملوك مصر من عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا يجمع كل واحد منهم أموالاً عظيمة لا تدخل تحت الحصر . وكذا الأمراء والوزراء والمباشرين علي اختلاف طبقاتهم كل منهم يأخذ أموالاً تحصى في حياته) ٢ .

١- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، ص ٦٠

٢- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٣٠ .

ويبدو أن سياسة عمرو بن العاص لم تعجب كل العرب النازحين إلى مصر ، خصوصاً بعد أن ركز عمرو عصبية البشرية والمادية في بني سهم — أقاربه من جهة أبيه وممن تحالف معهم .

وكان عمرو كثير الفخر بأبيه العاص بن وائل السهمي القرشي ، الذي يقول عنه الألويسي في كتاب (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) أن العاص كان من حكام قریش المعدودين .

ويقدر ما كان عمرو يفخر بأبيه ، كان المنتقون له يغيرونه بأمه التي كانت سبيّة من « بني جلدان » من قبيلة « بلي » اليمنية وتدعي النابغة^١ ، وكانت قد أسرت في إحدى المعارك القبلية^٢ ، وكثيراً ما قال الناس : « لولا أمه لكان عمرو من سادة العرب المعدودين » .

ورغم أن ثلثي جيش الفتح من أصول يمنية ، وكانوا أحوال عمرو بن العاص ؛ إلا أنه كان يفضل آل أبيه ذوي العصبية القرشية في توزيع الثروة ، فأنزلهم بأجود الأراضي . وبعد وفاة عمرو بن الخطاب ، وتولى الخليفة عثمان بن عفان ، كثرت شكوى العرب الآخرين — من غير أقاربه — من ذلك ، وجعلوا يعملون عليه ، وانتظروا من عثمان أن يقيد صلاحياته ، وكما يقول ابن كثير القرشي في كتاب (البداية والنهاية) إن كثيراً منهم (كانوا محصورين من عمرو بن العاص

١- هي سلمي بنت حزملة تلقب النابغة من بني عترة ثم أحد بني جلدان ، أصابتها رماح العرب فبيعت بعباظ فاشترها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جذعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له .

٢- لمزيد من التفاصيل ، انظر نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري ، الجزء العشرون ، ص ٢٩٧ .

حتى عزل — أي الخليفة عثمان بن عفان — عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة وجعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج (١) .

وفي قول آخر : كان عمرو على الحرب وابن أبي سرح على الخراج ، وأن عمراً قال ساخطاً : (أكون كماشك البقرة وغيري يحلبها) (٢) . ووقع خلاف كبير بينه وبين أبي سرح (حتى كان بينهما كلام قبيح فأرسل عثمان وجمع لابن أبي سرح الخراج والحرب والصلاة ، وبعث إلى عمرو يقول له لا خير لك في المقام عند من يكرهك فأقدم إلى ، فانتقل عمرو إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر كبير) (٣) .

وانفتح باب الفتنة الكبرى ، وكان أحد أسسها الهامة : الفوارق الصارخة بين ثراء الصفوة واحتكارها لمواطن المال والنفوذ ، في مقابل الانخفاض النسبي لشأن العرب ذوي الأصول اليمنية ، وسياسة عثمان بن عفان وابن أبي السرح زادت النار اشتعالاً ، لأن أخو الخليفة من الرضاعة بالغ في التصبيق على أتباع عمرو من جانب ، والعرب اليمنية من جانب آخر . وقد ذكر المؤرخون قتل « عائذ بن ثعلبة البلوي » اليمني في البرلس عام ٣٥ هـ بأيدي عربية دون ذكر أسباب وتفاصيل الحادث . كما غالى في جمع الضرائب من القبط وإغراق حاشيته وحاشية الخليفة في مجتمع المدينة بالأموال ، و(كثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجه حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدره وفي كل بدره أربعة آلاف أوقية) (٤)

١- ابن كثير القرشي : البداية والنهاية ، ص ١٦٦ ، في بداية الفتنة سنة أربع وثلاثين هجرية .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٧٨ .

٣- ابن كثير القرشي : البداية والنهاية .

٤- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين .

واشتدت حدة رياح التذمر في المركز ، كما في الأمصار ، وخصوصاً في مصر ، ونجد في كتاب (نهج البلاغة) نقلاً عن الواقدي والمدايني والكلبي أن (عبد الله بن أبي السرح أمر بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق — وهما من قبيلة بلى اليمنية — وحلق رؤوسهما ولحاهما وحبسهما وصلب قوماً آخرين من أهل مصر ، وهى نفس عقوبة المتأخر عن القتال والمخالف للأمير الذي يوقع عليه عقاباً فوراً يبدأ بالحق الأذى بالجسد ويترك علامة فيه تظل تلحق العار بصاحبها أينما حل)^١ .

وأمام زيادة الثروة ، كانت صلاحيات الأمير في إنزال العقاب على مخالفه ، واستخدام مبدأ التعزير بترك علامات وحشية على الجسد ، والحرمان من مواطن الارتفاع تنزل على المعارضين وتوسع قاعدتهم .. وقد وجد بعض ثائري البيوت القرشية الأخرى — من غير آل عثمان و آل الحكم من أقاربه — في غضب القاعدة العريضة من الجند ذوي الأصول اليمنية ضالتهم لتنجير الموقف ؛ وحتى في تلك الحالة نجد أبناء البيوت القرشية الغاضبة يلعبون دور الزعماء ، بينما ظل اليمانيون هم المنفذين والمقاتلين .

وكان محمد بن أبي حنيفة — القرشي الأصل — من أشد المحرضين ضد أبي السرح في مصر ، وبعث ابن أبي السرح يشكو محمداً إلى الخليفة ، فحاول عثمان أن يسترضيه بأن بعث إليه (ثلاثين ألف درهم ومحملاً عليه كسوة فوضعهما محمد في المسجد وقال يا معشر المسلمين ألا ترون إن عثمان يخادعني عن ديني

١- الشريف الرضي : نهج البلاغة ، (وقد تطورت عقوبة الأمير لمخالفه بعد ذلك فنجد أنه لما ولي بشر بن أبي مروان الأموي : (زاد فيه فصار يدفع الرجل عن الأرض ويسمونه في يديه بمسارين في حائط فربما مات وربما خرق المسمار يديه) المقفي الكبير : المقرئزي ، الجزء الثاني . ص ٤٢٩ .

ويرشوني عليه ، فازداد أهل مصر تعظيماً له وطعناً على عثمان وباعوه على رناستهم (١) . وانضم محمد بن أبي بكر — ابن الخليفة الأول ؛ أبو بكر الصديق — إلى صفوف المحرضين على عثمان وابن أبي السرح في مصر ، حتى أن ابن أبي السرح اضطر إلى عزل ابن حذيفة وابن أبي بكر في مركب ليس به إلا القبط في غزوة ذات الصواري ، بعد أن تحدثا كثيراً في أمر توزيع الغنائم ، وأفاضاً في انتقاد الخليفة والوالي ، ففرض عليهما ابن أبي السرح أن يركبا سفينة معزولة عن الجند العربي ، وليس فيها سوى القبط ؛ وبينهما عازل اللغة والتفاهم (ولم يقاتلا . ففيل لهما في ذلك ، فقالا : كيف نقاتل مع ابن أبي السرح الذي استعمله عثمان ، وقد فعل عثمان كذا وكذا ؟)^٢ .

ولم يفلح هذا العزل في إخماد النار ، وانداد التزمر بعد عودة الجيش إلى مصر من غزوة ذات الصواري ؛ حتى (خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء ، المقل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف ، على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر التجيبي ، وعروة بن شبيب الليثي ، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وسواد بن رومان الأصبحي وزرع بن يشكر الياضي ، وسودان الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج)^٣ .

وجميعهم من الجند اليمانية كما يتضح من أسمائهم المنسوبة إلى : بلى / تجيب / ليث / خزاعة / أصبح / يافع / وأخيراً غافق من عك . وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن عديس الذي سبق ومثل به الوالي وحلق رأسه وسجنه مع آخرين .

١- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب ، الجزء العشرون ، ص ٢٤١ .

٢- لمزيد من التفاصيل ، انظر المقرئزي : المقفي الكبير ، الجزء الخامس ، ص ٥٢٥ .

٣- الطبري : الجزء الرابع ، ص ٣٤٨ .

وعين ابن حذيفة نفسه والياً . ربما لبث وفود مصر أن دخلت المدينة ، وحاصرت عثمان بعد مفاوضات عديدة وبعد أن انضمت إليهم وفود البصرة والكوفة . ويقال أن الحصار قد حدث بعد أن قابل أهل مصر في طريق عودتهم من المدينة رسول الخليفة على راحلته ومعه خطاب إلى ابن أبي السرح يطالب منه فيه القبض على هؤلاء الثائرين وقتل زعمائهم مما أشعل غضبهم ، وعادوا ليسألوا الخليفة عن ذلك فنفى صلاته بالخطاب ، وحاصروه في بيته ثم كان مقتله على يد ثوار مصر . ونلاحظ أن المؤرخين العرب يطلقون على العرب الذين اتخذوا من مصر محلاً لإقامة (أهل مصر) ؛ دون أن يقصدوا بذلك أهلها الحقيقيين من القبط^١ .

وانضم هؤلاء الثوار بعد ذلك إلى على بن أبي طالب في معاركه التالية ضد شيعة عثمان ، وكما يقول المؤرخون : إن مصر كانت (علوية الهوى) وكان لحزب معاوية بن أبي سفيان — الرافع لقميص عثمان — رجالٌ ذوي بأس وقوة وحيلة ودهاء ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص المقيم مؤقتاً بقصره في فلسطين — والذي خرج من المدينة بعد أن احتدام الخلاف بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان ، وقال له ابن عفان : (قَمَلْتُ والله جبتك منذ نزعتك عن العمل)^٢ كناية عن تواضع حاله بعد قرار عزله عن ولاية مصر ، وكانت صلات ابن العاص

١- ينطبق ذات الكلام على حادثة الرجل الذي اشتكى عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب لأنه ضربه بعد أن سبق ابنه ، فاستدعي ابن الخطاب عمرو وابنه ، وقال له اضرب ابن الأكرمين ، وأطلق المؤرخون عليه اسم المصري جرياً على ذات عادتهم في تسمية العرب المقيمين بالمصريين ، على الرغم من حداثة وفودهم إلى أرض مصر ، فالمرصود هو : الذين امتلكوا أرض مصر .

٢- الشريف الرضي : نهج البلاغة ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ .

برجال حزبه في مصر لازالت قوية ، وعلى رأسهم معاوية بن حُديج الذي أقام في الصعيد أثناء تلك الفتنة ، ومنها حارب حزب ابن أبي طالب في مصر ، ويقال أنه غزاهم من المغرب بعد أن لجأ إلى عقبة بن نافع — قريب عمرو بن العاص — الذي كان يحكم ولاية برقّة ثم انقضّ على أعدائه في مصر من جهة الغرب ، ومن يقرأ تاريخ تلك الفترة يدرك حقيقة أن كل الفصائل المتناحرة كانت لا تريد استمرار خلافة عثمان بن عفان الذي تزايدت في عهده الثروة بما لا يعقل ، وكان بمثابة مرحلة انتقالية بكل ما تحمل من تناقضات السياسة والحكم والثروة والتكتلات القبلية ... وحزب عثمان الذي يتخذ من مقتله تكتة للتخلص من الخصوم السياسيين ، يريد الآن ما هو أكثر من مجرد الاستمتاع بالثروة ؛ إنهم يريدون مباشرة الحكم بأنفسهم ، كما سيحدث مع آل سفيان وآل الحكم ، ولمعرفة عمرو بن العاص بمصر كان يرى أن « مصر تعدل الخلافة كلها » ، وأنه لا يرضى بغير حكمها بديلاً .

أما علي بن أبي طالب ، وطلحة ، والزبير بن العوام ، فكان لكل منهم مآربه الخاصة في السياسة والحكم — لمزيد من التفاصيل ، انظر طه حسين : الفتنة الكبرى .

وفي خلافة علي بن أبي طالب — قصيرة العمر — عين قيس بن سعد على ولاية مصر ، وكان في مواجهته حزب عثمان (معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة وغيرهم ، قد اعتزلوا في رقية ولهم ربايع وأولاد وعيال وعبيد)^١ .

وكانت سياسة قيس بن سعد هي ملاينة رجال حزب معاوية تجنباً لشرورهم ، فشك علي بن أبي طالب في واليه ، وعُيّن مكانه محمد بن أبي بكر الذي نشب

١- ابن ظهيره : الفضائل الباهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ص ٢٤ .

بينه وبين أهل خريتا - مقر بن حديج - نزاع (ثم خرج معاوية بن حديج ودعا إلى الطلب بنم عثمان فأجابه ناس وفسدت مصر علي محمد بن أبي بكر بعد أن هدم دور شيعة عثمان ونهب أموالهم وسجن ذويهم)^١ .

وفسدت مصر علي محمد بن أبي بكر ، وبلغ الخليفة ذلك ، فاستدعى الأشتر وقال له : (ليس لها غيرك فأخرج إليها) لكن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان دبوا للأشتر قتلاً يليق به ، حينما اتفقا مع أحد الرجال لدس السم في العسل ، وشرب الأشتر شربة - ومات علي أبواب مصر قبل أن يدخلها وكان معاوية وعمرو كثيراً التندر علي تلك الحادثة بقولهما : (إن لله جنوداً من عسل)^٢ .

وبقي أمامهما محمد بن أبي بكر فأعدا له جيشاً ، وهزماه في معركة كنانة ، ثم لم يكتفيا بذلك ؛ بل تبعه ابن حديج حتى قبض عليه وقتله ، ثم وضعه في جيفه حمار وأحرقها حتى أكلت النار جثة محمد ، مما يبين وحشية الوسائل التي اتبعها العرب في قتال بعضهم البعض من أجل الفوز بالسلطان والنفوذ والمال .

وكان عمرو بن العاص من أوائل المتآمرين ضد عثمان بن عفان ، ومن أوائل المستفيدين من قتله ، ومن أشد المطالبين بالثأر له ... وكما يقول هو عن نفسه : (أنا أبو عبد الله ، إذا حككت قرحة نكأتها)^٣ .

مما يتفق مع رواية شمس الدين الذهبي حينما ذكر أن (عمرو هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء أيام وقعة صفين ، فقال له : أحرقت قلبي

١- المقرئزي ، ص ٢٦٤ .

٢- المقرئزي ، المصدر السابق ص ٢٠٠ .

٣- الطبري : الجزء الرابع ، ص ٣٥٧ .

بقصصك . أتري أننا خالفنا علماً لفضل ومن عليه ، لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها . وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنا بذكك ^١ .

وفاز عمرو بمصر طعمة له كما أراد ، كما عين الخليفة الجديد عبد الله بن عمرو علي الكوفة مكافأة لبني ابن العاص علي ما قدموه لإقامة دعائم الخلافة الأموية لكن المغيرة بن شعبة أوحى إلى معاوية بن أبي سفيان ببوانر الخطر علي الخلافة الأموية ، حينما قال له : (عمرو بمصر وابنه بالكوفة أنت إذأ بين فكّي الأسد) فعزل عبد الله عن الكوفة ، واكتفي بترك مصر طعمة لعمرو حتى وفاته . أما بقية الرافيين لقميص عثمان ، الذين أوغلا في سفك دماء أعدائهم أو إخوانهم من العرب المسلمين — فقد استفادوا أيضاً مثل بسر بن أرطاة الذي :

(أوفده معاوية لأخذ البيعة له من المدينة ومكة بحد السيف ، فسار حتى أتى المدينة وقتل ابني عبد الله بن عباس ، وفرّ أهل المدينة ودخلوا حرة بني سليم ، كما أغار علي همدان وسبي نساءهم فكان أول مسلمات سبين في الإسلام) ^٢ . وأطلق معاوية يد بسر في الأموال والأمالك .

أما معاوية بن حديج فقد تولي قضاء مصر ، وكان كثير الأملاك والأموال ، ومن كثرة ممتلكاته قيل عنه أنه (سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس) ^٣ . ويبدو أن ولاء ابن حديج المطلق لحزب معاوية قد ترعزع فيما بعد ، حينما قتل حجر بن الأديب وأصحابه ، وهم من رجال معاوية بن حديج ومن قبيلته اليمنية فغضب ، وقال :

١- شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء .

٢- المقرئزي : المقفي الكبير : الجزء الثاني .

٣- السقلاني : رفع الأصر عن ولاة مصر ص ١١٢ .

(يا أشقائي في الرحم وأصحابي وجيرتي ، أنقائل لقريش في الملك حتى إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا ، أما والله لئن أدركتها ثانية لأقولن لمن أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بنا ، ودعوا قريشاً بقتل بعضها بعضاً فأيهم غلب اتبعناه)^١ .

وندم ابن حديج السابق علي معاointه لحزب معاوية ضد حزب علي - القريشان - مبني علي أساس عنصري يمتزج بالطموح إلى الثروة وإن غلفته الحنكة السياسية . فهو يساعد حزب ابن أبي سفيان حتى يتمكن من السلطة بشرط أن يصبح له مكان بارز هو وشيعته في الدولة الجديدة ، أما أن يقتل رجاله علي مرأى منه فذلك ما يهدد ولاءه لحزب معاوية ، وبما لاحظ ابن حديج أن الرجال الآخرين ذوي الأصول القرشية قد نالوا من السلطة الجديدة حظاً أوفر ، خصوصاً وأن الخليفة قد عين مسلمة بن مخلد والياً علي مصر سنة سبع وأربعين ، وجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب دون ابن حديج الذي مات بمصر سنة اثنتين وخمسين هجرية.

ولم يتوقف الصراع العربي / العربي في مصر بانتصار الأرستقراطية الأموية وحلفائها ؛ بل احتدم مرة أخرى أثناء أزمة عبد الله بن الزبير ، وظهور بعض الأنصار له في مصر ينتمون إلى المعافر (قالوا لا نخلع بيعة عبد الله بن الزبير فضرِب مروان أعناقهم وكانوا ثمانين رجلاً)^٢ .

وتصادف يوم إعدامهم مع يوم موت عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن شدة خوف الناس لم يستطع أحد الخروج بجنائزته ، فدفن في داره لشعب الجند علي مروان ، ثم ضرب مروان عنق الأكر بن حمام اللخمي - وقبيلة لحم من أصول

١- الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام الجزء الثاني ، ص ٣١٧ .

٢- ابن تغري بردي الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

يمينية — مما زاد ثورة الجنود ضد مروان. (وتنادي الكندي قتل الأكرد فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفاً وخشي مروان وأغلق بابه)^١ .

وتجددت الفتنة مرة أخرى في عهد حوثر بن سهيل الباهلي — من قبيلة قيس العدنانية الشمالية — فقبض على زعماء الثورة ذوي الأصول اليمنية ، وقتلهم جميعاً ، وقال له حسان بن عتاهية رئيس شرطته : (لم يبق لحضرموت إلا هذا القرن فإن قطعته قطعته — يعني خير بن نعيم — وكان على القضاء فعزله حوثر)^٢ .

وهكذا لم تخدم النار المشتعلة بين الجند اليمنية من جهة ، والأرستقراطية القرشية من جهة أخرى حتى خمدت الدولة الأموية ، وانتهت على يد العباسيين ؛ وهم آخر بيت من بيوت قریش ، ستشهد معه الدولة الإسلامية في مصر تطورات أخرى .

وقد سجل أدب تلك الفترة الأولى لفتح مصر تعالى الصفوة القرشية على جنود الجيش العربي ، ومارسوا عليهم العنجهية والصلف في كل المناسبات . ولعل أول قصيدة رُويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي ، التي هجا فيها العرب القاطنين أرض مصر ، لأنهم من أصول يمنية ، وكانت تجد هوى كبيراً في نفوس ذوي الأصول القرشي . لأن في نفس معاوية من الثوار الكثير « فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سألته أن ينشده هذه القصيدة »^٣ التي يعيب

١- الكندي : الولاة والقضاء . ص ٤٥ .

٢- الكندي : المصدر السابق .

٣- كتاب المكافأة : ابن الداية ، ص ١٢٦ .

فيها الشاعر عرب مصر بأنهم حضرميون ليس لهم شرف ولا جد ، وأنهم متكبرون .

كما نجد في خطبة عتبة بن أبي سفيان هجاءً حاداً لعرب مصر — وكان من دهاة السياسيين وخطيباً مفوهاً ، عذّة الأصمعي أحد أهم اثنين من خطباء بني أمية ، وذكر القلقشندي خطبته التالية في صناعة الإنشا :

(يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين ؛ إنما قلمت أظفاري عنكم ليبلين مني إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم إذا كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم فإن حسمت مستشري دائعكم وإلا فالسيف ورائكم . فكم من عظة لنا قد صمّت عنها آذانكم ، وزجرة منا قد محتها قلوبكم ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جُدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤايساً لكم من المراجعة إلى الحسنى إن صرتم إلى التي هي أبرّ وأتقى^١ .

وتصوير عتبة السابق (يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين) يوحى برغبة عرب مصر الدائمة في الخوض في مسائل السياسة والحكم ، وكشف أفعال الولاة وانتقاد سياساتهم الجائرة ، فهم لا يملون المراقبة ، وإظهار المعارضة والسلطة الأموية تخص كل من لا يلزم الصمت بتقطيع السياط على ظهره ، وإعمال السيف في رأسه .. الصمت أو الموت ، كما يقولون .

لكن الجنود يستقزهم نهر الثروات النازح إلى الحكام وحاشيتهم ، ويقارنون ما يحصلون عليه وما عبه الآخرون فلا يستطيعون الصمت.

ويحكى ابن لهيعة أنه في زمن ولاية مسلمة بن مخلد ؛ وبعد أن قسّم العطاء وأعطى كل جهة ما كان مقررّاً لها : (فأعطى أهل الديوان عطياتهم وعطيات

١ - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا

عياهم وأرزاقهم ونوابب البلاد من الجسور وأرزاق وحملان القمح إلى الحجاز ، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل ... فلما نهضت الإبل لقيهم « برح بن كسحل المهري » — من قبيلة يمنية — فقال ما هذا ؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا رثوه فردوه ، حتى وقف على المسجد فقال أخذتم عطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونواببكم ، قالوا نعم ، قال لا بارك الله لهم فيه خذوه ... فساروا به^١ .

والعربي اليمني لا ينظر بارتياح إلى المال المشحون إلى مكة والمدينة وعواصم القبائل العدنانية المفتخرة بأصولها عليه ... فيقف على باب الجامع — نقطة ارتكاز العرب جميعاً مكان تجمهرهم ؛ حيث كان لكل قبيلة فيه عمود ومكان يرتب حسب مكانة القبيلة أيضاً ونفوذها — محاولاً تحريض العرب أصحاب العطايا الأقل ، وينهى محاولته بالدعاء على العرب المستفيدين من وضع الاستنزاف . وصيغة الملكية الطاغية على الحديث (ما بال مالنا يخرج من بلادنا) ملفقة للنظر ؛ حيث كان العرب جميعاً في ذلك الحين — سواء من الشمال أو من الجنوب — حديثي الوفود على مصر ، ولم يكن قد مضى ثلاثون عاماً أو أكثر قليلاً أثناء تلك الواقعة ، وقد اعتبروها بلدهم — لهم وحدهم بكل ما فيها من أرض وزرع وماء وهواء وكنوز طبيعية وثروات ومبانٍ — كل شيء لهم بمجرد إشهار السيف وخضوع الآخرين لهم . وحتى البشر القاطنين أرض مصر منذ فجر التاريخ هم أيضاً جزء من ملكية العرب العامة ، وقد خلقت لضمان استمرار سيلان الثروة عليهم ، وانعكست تلك الرؤية العامة واليقين الراسخ على الخطاب العربي الموجه إلى الأقباط بعد الفتح ابتداءً من تدفق أسرى القبط على مدن

١- ابن الداية : كتاب المكافاة ، ص ١٢٦ .

الجزيرة العربية ، وإشارة الخليفة عمر بن الخطاب بتفضيله بقاء المصريين في بلادهم ، واستخدامهم في زراعة الأرض لتعميم الانتفاع بهم .

وقد مارس الحكام العرب صفات السيادة وتسخير المصريين في شتى الأعمال الصعبة من أجل زيادة حصّة الضرائب ، ومن هذا المنطلق سخر عمرو بن العاص آلاف الفلاحين في إعادة حفر خليج تراجان أو قناة أمير المؤمنين ، كما سخر عبد الله بن أبي سعد بن أبي السرح صنّاع مصر لبناء الأسطول العربي ، وفي العموم : كان المصريون يقومون بحفر القنوات وبناء الخطط والبيوت للسادة العرب ... بينما يكتفي هؤلاء السادة بصفتهم الفرسان أصحاب السيوف والخيول والجيوش باستهلاك الخيرات وإنفاق الثروات .

وكثيراً مما عبر ملوك بنى أمية عن العبودية الصريح في رسائلهم إلى أمراء مصر بقولهم : (إن مصر إنما دخلت عنوة ، وإنما هم عبيدنا — المصريين — نزيد عليهم كيف شئنا ونضع ما شئنا)^١ .

وكثيراً ما كانت العنجهية تذهب بهم إلى حدّ الرغبة في الاستخدام المباشر لتثاقية السيادة والعبودية ، وعدم الاكتفاء بالوضع العام لقوانين عدم الاختلاط ؛ كما حدث مع هذا العربي الذي سخر ملاحاً قبطياً لنقله عبر النهر بمركبه ، وحينما طلب القبطي أجره ، رفض العربي متدّعاً بحق السيادة الذي يُخوّل له استخدام المصريين دونما مقابل ... لمزيد من التفاصيل ، انظر المقرئزي وآخرين.

وطقوس التبعية تتفاوت حدتها من زمان إلى آخر حسب نكاه الحاكم وقدرته على إدارة الأمور . فجد المغالاة والتشدد أثناء ولاية حاكم ، والانفراج النسبي في ولاية آخر .. على أن الميراث العام يتضح في أدبيات القرون التالية للفتح بشكل مبالغ فيه ، كما نجد في كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة ، الذي يقدم شروط

١- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٠٦ .

دفع الجزية بأن (يقف النمي بين يدي عامل الجزية ذليلاً ، فيلطمه المحتسب بيده على صفحة عنقه ، أد الجزية يا كافر ، ويُخرج النمي يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطئها له بذلة وانكسار)^١. ومسرحية أداء الجزية هذه تعكس الصورة في أشد عصور الظلام قتامة ، وإن لم تنفذ بهذه الجهامة في أوقات أخرى كثيرة. حيث لم يكن الحكام العرب الأوائل يهتمون بمثل هذه الطقوس الشكلية بقدر ما يهتمون بمبادئ ترسيخ السيادة العامة وما يترتب عليها من أحكام مالية وعينية. ووسط هذا الجو ، كان طبيعياً بروز سلسلة من التناقضات العنصرية بين العرب والمصريين من جهة ، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى ؛ طالما أنهم من فئات غير متجانسة ، وطالما أن نشاطهم الأولى زرعت فيهم الولاء القبلي الصرف ، ولولا حنكة ودهاء القادة الأوائل ، واستخدامهم كل وسائل الترغيب والترهيب لصارت الأمور في اتجاهات أخرى.

١- القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٩٩ .

جدول ولاية مصر حتى سقوط الدولة الأموية

اسم والي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الأصل القبلي
عمرو بن العاص	من ٢٠ هـ / ٦٣٥	خمس سنوات	بنو سهم من قريش
عبد الله بن سعد بن أبي السرح	من ٢٥ هـ / ٦٣٥	عشر سنوات	قريش
محمد بن أبي حنيفة	٢٥ هـ	فترة قصيرة	قريش
قيس بن سعد بن عباد	من ٣٥ هـ / ٦٣٧	سنتين	من الخزرج
الأشتر	٣٧ هـ	لم يدخلها وتوفي على أبوابها	من نخع بن منجج جنوبية الأصل
محمد بن أبي بكر	لنصف من رمضان ٣٧ هـ	خمس أشهر	قريش
عمرو بن العاص/الثانية	٣٨ هـ / ٤١ هـ	أربع سنوات	قريش
عتبة بن أبي سفيان	شوال ٤٣ هـ / ٤٤ هـ	سنة وشهراً	قريش
عتبة بن عامر الجهني	٤٤ هـ / ربيع أول ٤٧ هـ	سنتين وثلاثة أشهر	جهينة من الجنوب
مليحه بن مخلد الأنصاري	٤٧ هـ / ٦٢ هـ	خمس عشرة سنة	من الأوس والخزرج جهينة من الجنوب
سعيد بن يزيد الأزدي	٦٢ هـ	سنتين	من أهل فلسطين كهان الجنوبية
عبد الرحمن بن جحتم	٦٤ هـ	تسعة أشهر	قريش
عبد العزيز بن مروان	٦٥ هـ / ٨٦ هـ	عشرين سنة وعشر أشهر وثلاثة عشر يوماً	قريش
عبد الله بن عبد الملك	٨٦ هـ / ٩٠ هـ	أربع سنوات	قريش
قرة بن شريك	٩٠ هـ / ٩٦ هـ	ست سنوات	قيس / عنانية/شمالية
عبد الملك بن رفاعه	٩٦ هـ / ٩٩ هـ	ثلاث سنوات	قيس /شمالية
أيوب بن شرحبيل	٩٩ هـ / ١٠١ هـ	سنتين	أصبح/جنوبية الأصول
بشر بن صفوان	١٠١ هـ / ١٠٢ هـ	سنة واحدة	كلب من عمران جنوبية الأصول
حنظلة بن صفوان	١٠٢ هـ / ١٠٥ هـ	ثلاث سنوات	من عمران جنوبية الأصول

محمد بن عبد الملك	١١ شوال ١٠٥هـ	شهر واحد	قريش
الحر بن يوسف	١٠٥هـ / ١٠٨هـ	ثلاث سنوات	قريش
حفص بن الوليد	١٠٨هـ	أسبوعين	من بني عوف من حضر موت
عبد الملك بن رفاعه	١٠٩هـ	أسبوعين	من بني طاعن الفهمي / شمالية
الوليد بن رفاعه	١٠٩هـ / ١٧٧هـ	تسع سنوات	الفهمي / شمالية
عبد الرحمن بن خالد	١٧٧هـ	سبعة أشهر وخمسة أيام	الفهمي / من الشمال
حنظلة بن صفوان / الثانية	١١٩ / ١٢٤هـ	خمس سنوات	من قبيلة كلب من حمير / جنوبية
حفص بن الوليد / الثانية	١٢٤هـ / ١٢٧هـ	ثلاث سنوات	من قيس / شمالية
حسان بن عتاهية	١٢٧هـ	١٦ يوماً	من تجيب / جنوبية
حفص بن الوليد / الثالثة	١٢٧هـ / ١٢٨هـ	سنة واحدة	جنوبي
الحوثر بن سهيل	١٢٨هـ / ١٣١هـ	أربع سنوات	من قيس / عذانية شمالية
المغيرة بن عبيد الله	١٣١هـ / ١٣٢هـ	مدة يسيرة	من الغزالي قيسية / شمالية
عبد الملك بن مروان	١٣٢هـ	شهور قليلة	من لخم / جنوبية الأصل تقطن الشمال

وهكذا نرى أنه منذ فتح مصر عام ٢٠هـ إلى سنة ١٣٢هـ، عام انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين ، تولى عليها ثمانية وعشرون عاملاً ، تتابوها اثنين وثلاثين مرة ، لأن بعضهم كان يعزل ويعود مرة أخرى كعمرو بن العاص ، حنظلة بن صفوان ، وحفص بن الوليد فإنه تولى حكم مصر ثلاث مرات.

وكان من بين الثمانية والعشرين عاملاً حوالي أحد عشر والياً من قريش فقط ، وثمانية ولاية من قبائل ذات أصول شمالية ، وأربعة من أصول جنوبية ؛ ولكنها قبائل تقطن الشام وفلسطين ، وستة من أصول جنوبية صرفة ؛ وهو عدد لا يتناسب مع انتماء القاعدة العريضة الجيش إلى هذه الأصول الجنوبية.

جدول أسماء القضاة

اسم القاضي	في العهد الوالي	الموطن القبلي
قيس بن أبي العاص بن سہم بن فہر	في عهد عمرو بن العاص	من بطون قريش
كعب بن يسار بن ضمنہ	رفض أن يقبل القضاء	من بطون قيس / شمالية
عثمان بن قيس بن أبي العاص	في عهد عبد الله بن سعد بن ابن السرح	من قريش
سليم بن عتر التجيبي	كان يقص بمسجد عمرو بن العاص	من أصول جنوبية توفي ۸۷۵ھ
عابس بن سعيد المرادي	في عهد مسلمة بن مخلد	من أصول جنوبية
عابس على القضاء	ظل يتقلب على القضاء والشرط	سنة ۴۹ إلى سنة ۶۸ ھ
بشير بن النضر المُرَني	من قبل عبد العزيز بن مروان	من قبائل الأردن/جنوبية الأصل
عبد الرحمن بن حجيبة الخولاني	ولاه عبد العزيز بن مروان	من خولان / جنوبية الأصل
مالك بن شراحيل الخولاني	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية عزل سنة ۸۴ھ
يونس بن عطية بن أوس الخصومي	كان على القضاء والشرط في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول حميرية حتى ۸۶ ھ
أوس بن عبد الله بن عطة	ابن أخي السابق	من أصول حميرية / جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	على القضاء والشرط وخلافة للفسطاط	من بطون العرب الجنوبية حتى رمضان ۸۶ ھ
عمران بن عبد الرحمن الحسي	على القضاء والشرط	من بطون الجنوبية / عزل سنة ۹۰ ھ
عبد الوليد بن عبد الرحمن بن حديج		من بطون العرب الجنوبية عزل سنة ۹۰ ھ
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيبة الخولاني	من قبل قرّة بن شريك	من أصول جنوبية حتى ۹۳ ھ
عياض بن عبيد الله الأزدي	من قبل قرّة بن شريك	من أصول كهلان الجنوبية حتى ۹۷ ھ

<p>من أصول جنوبية حتى ٩٨ هـ</p> <p>من أصول كهلان الجنوبية</p> <p>من مائة إلى ١٠٥ هـ</p> <p>من أصول جنوبية</p> <p>من أصول جنوبية/توفي ١٢٠ هـ</p> <p>من أصول جنوبية</p> <p>أول كوفي يلي مصر</p> <p>٦٧ / هـ</p>	<p>جمع القضاء وبيت المال</p> <p>من قبل سليمان بن عبد الملك</p> <p>من قبل هشام</p>	<p>عبد الله بن عبد الرحمن بن حنبل</p> <p>علاء بن عبيد الأزد (الثانية)</p> <p>عبد الله بن يزيد بن جذام</p> <p>يحيى بن ميمون الحضرمي</p> <p>توبة بن نمر الحضرمي</p> <p>غوث بن سليمان / الثانية</p> <p>عبد الله بن لهيعة الحضرمي</p> <p>إسماعيل بن اليسع الكندي</p> <p>غوث بن / سليمان الثالثة</p>
--	---	---

لاحظنا سقوط اسم خير بن نعيم من جدول القضاء ، وقد تولى القضاء حسبما جاء في كتاب الولاية والقضاء للكندي من سنة ١٢٠ هـ إلى ١٢٧ هـ. وهو من حضرموت ، وكان يتاجر في الزيت.

وتولى القضاء ثانية سنة ١٣٣ هـ ، وعُزل في شعبان سنة ١٣٥ هـ.

جدول رؤساء الشُّروط

اسم رئيس الشرطة	في عهد الوالي	الموطن القبلي
خارجة بن حذافة بن عدي	في عهد عمرو بن العاص	من بطون قریش
هشام بن كنانة بن عامر بن لوي	في عهد بن أبي السرح	من بطون قریش
السائب بن هشام بن كنانة	في عهد قيس بن سعد	من قبائل مضر الشمالية ٥٤٩ هـ
عبد الله بن أبي حرملة البلوي	في عهد محمد بن أبي بكر	من أصول يمنية نزحت إلى حدود الشام
خارجة بن حذافة	في عهد عمرو بن العاص (الثانية)	من بطون قریش
زكريا بن جهم بن قيس العبدي	في عهد عمرو واستمر في عهد عتبة بن أبي سفيان	
السائب بن هشام بن كنانة العامري	في عهد مسلمة بن مخلد	من مضر / عدنانية شمالية
عابس بن سعيد المرادي	في عهد مسلمة ، وعهد سعيد بن يزيد	من أصول قحطانية جنوبية
عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية التجيبي	في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية (٥٧٦ / ٥٨٤)
يونس بن عطية بن أوي الحضرمي	في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول حميرية ٥٨٦ هـ
عبد الرحمن بن معاوية بن حنيج	في عهد عبد الله بن عبد الملك	من بطون العرب الجنوبية
عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة	في عهد عبد الله بن عبد الملك	من مضر / من أصول شمالية / عزل ٥٨٩ هـ
عبد الأعلى بن خالد بن ثابت القهفي	في زمن قرّة بن شريك	من أصول شمالية / توفي ٥٩١ هـ
عبد الملك بن رفاعة بن ثابت القهفي	تولى الولاية والشرط	من بطون قيس مضرية / شمالية
الشيخ بن جرو الحضرمي	في عهد سليمان عبد الملك	من أصول حميرية / جنوبية
الحارث بن ذاخر سهم الأصبحي	في عهد أيوب بن شرحبيل	من أصول حميرية / جنوبية

الحسن بن يزيد	في عهد أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية /عجلان توفي ٩٩ هـ
شعيب بن حميد البلوي	في عهد بشر بن صفوان	من أصول يمنية
حنظلة بن صفوان	كان على الولاية وللشرط	من عمران / جنوبية الأصول
محمد بن مطير البلوي	في عهد حنظلة بن صفوان	من أصول يمنية/ عزل سنة ١٠٣ هـ
القاسم بن أبي القاسم السائي	مولى سهم	
حفص بن الوليد بن يوسف	في عهد الحر بن يوسف	من سبا/جنوبية/عزل ١٠٥ هـ
الحضرمي		من أصول حميرية
عبد الله بن أبي سمير الفهمي	في عهد الوليد بن رفاعه	
عبد الرحمن بن خالد بن مضاف	في عهد عبد الملك بن رفاعه	من بطون قيس الشمالية
الفهمي		من بطون قيس شمالية /مضرية

النساء يشاركن في القتال العربي / العربي

برزت في أحداث الفتنة الكبرى أسماء بعض النساء المقيمات في مركز الحكم بالمدينة مثل نائلة بنت الفرافصة آخر زوجات عثمان بن عفان ؛ الخليفة المقتول ؛ ويحكى أن عثمان تزوجها وهو على مشارف الثمانين من عمره بينما كانت هي في ريعان الصبا والشباب ، ويقال أنها كانت نصرانية ، أو بالأحرى من قبيلة نصرانية دخلت الإسلام^١ .

حينما دخل وفدٌ ثائري مصرَ المدينة وتصاعدت الأزمة ، أشارت نائلة على عثمان بأن يقبل رأى على بن أبي طالب في إجابة مطالب الثائرين لتسكين الموقف ؛ لكن يبدو أن عثمان كان متردداً ، وتسارعت الأحداث ، وحاصر الثوار بيت عثمان ، ومنعوا عنه الماء ، ثم تسلقوا سور البيت المجاور له وانقضوا عليه يضربونه ، ودافعت عنه نائلة وقطعت أصابعها وهي تحاول حمايته من سيوفهم ، ولم ينته دور نائلة بموت عثمان ؛ بل راحت توجع نار الثار للخليفة المقتول ، فخطبت في مسجد المدينة (وهي منسوبة في أظمار معها نساء من قومها والخطبة طويلة)^٢ .

وحينما انشغل الناس بأمر الفتنة ، وتركوا الخليفة المقتول في داره المحاصرة ، أرسلت نائلة إلى قليل من الرجال ليجهزوا عثمان ، فقالوا : إنا لا نقدر أن نخرج به نهراً ، وهؤلاء المصريون على الباب ، فأملوا حتى كان بين المغرب والعشاء فدخل القوم ، فحبل بينهم وبينه ، فقال أبو جهم : والله لا يحول بيني وبينه أحد إلا

١- الأب الدكتور جورج قناتني : المسيحية والحضارة العربية ، ص ٢٦٣ .

٢- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٢٧ .

مَتُ دونه ، احمـلوه إلى البقيع ، فحملوه وتبعـتهم نائلة بسراج فدفن الخليفة ليلاً دون أن يتبعه أحد .

وبعثت نائلة بقميص عثمان وإصبعها معلق فيه — الخنصر — إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام تحريضه على طلب الثأر ، ولما أتى التحريض بنتائج واشتعلت الحرب العربية ، وامتدت إلى الأمصار ، وقتل شيعة عثمان محمداً بن أبي بكر ، بعثت شيعة عثمان هي الأخرى في مصر بقميص محمد بن أبي بكر الذي قتل فيه إلى المدينة (فوصل إلى دار عثمان واجتمع رجال عثمان ونساؤه وأظهروا السرور ولبست نائلة بنت الفرافصة القميص ورقصت به وأرسلت أم حبيبة أخت معاوية بكبش شواء إلى عائشة وقالت : هكذا شوي أخوك بمصر ، فحلفت ألا تأكل شواء حتى تلقى الله ، ودخلت على أسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر فقيل لها — قُتلَ محمدٌ بمصر وأحرق بالنار في جوف حمار ، وكانت في مصلاها فعضت شفتيها وكظمت غيظها فشخبث ثديها دماً ^١) .

ولم تكتف نائلة بأن تلبس قميص محمد بن أبي بكر وترقص به ؛ بل إنها حينما حج معاوية بن حُذَيج عقب قتله لمحمد بن أبي بكر وإحراقه بالنار (لَقِيَتْهُ نائلة وقبـلت رجليه وقالت شفيت نفسي من ابن الخنعية) ^٢ .

ومثل هذه القصص تعكس طبيعة الصراع الدائر بين العرب ، حينما تمتزج النزعات القبلية بالرغبة في الحفاظ على المكانة والسيادة ، ولو كان السبب جريان بحور من الدم .

ورود فعل النساء تجسد الإحساس بالشماتة والمبالغة في إعلان الفرح بمصائب الطرف الآخر من العرب المتناحرين .

١- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، ص ٢٧ .

٢- ابن ظهيرة : المصدر السابق .

وقد دخلت عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي المحبوبة وأم المؤمنين دائرة الصراع ، فكان دورها في هذه الأحداث كبيراً ، وظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة ، خصوصاً وأن ثائري الأمصار كانوا يستخدمون اسمها واسم زوجات النبي الأخريات في تحريض العامة ؛ كما كان يفعل محمد بن حذيفة في مصر .

وبعد مقتل عثمان رأت أن التهاون في القصاص للخليفة المقتول ليس من الإسلام ، كما أنه ليس من شيم العرب القاضية بالثأر .

وخرجت عائشة إلى البصرة لتتضم إلى طلحة والزبير ، وأطماعها في الخلافة غير خافية ، ضدّ علي بن أبي طالب الذي كانت تحرض الناس ضده وتتهمه بحماية قتلة عثمان ... ورغم أن الناس كانوا يتهمون أخاها محمد بن أبي بكر بالاشتراك في قتله ، كانت تصر على التحريض ضدّ علي بن أبي طالب .

ودارت معركة شرسة بين الأقارب ، (وقد كاد أصحاب عائشة أن ينهزموا) ، ولكن الجمل الذي يحمل هودج عائشة قائم ، (وفي الهودج أم المؤمنين تحرض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة) ؛ حتى صاح علي في أصحابه (اعقروا الجمل فإن في بقاءه فناء العرب)^١ .

وقد سُميت هذه المعركة باسم « موقعة الجمل » لأهمية دور عائشة فيها ، ورغم احتجاجها خلف هودج مغلق على ظهر جمل .. ورغم أنها لم تحمل سيفاً ولم تقتل أحداً ، إلا أنها قد لعبت دور المحرض الأساسي — وهي فصيحة اللسان واضحة البيان — وكلما تفرق الرجال خطبت من جديد ، حتى لم يجد عليّ بداً من تسديد الضربة نحو الهدف المركزي ؛ وهو الجمل الحامل لهودج عائشة ، الذي

١- طه حسين : الفتنة الكبرى ، الجزء الثاني ، (علي وبنوه) .

كان شارة وعلامة حزب طلحة والزبير ، وبسقوط الشارة تفرق الجمع وانتهت المعركة .

وقد جسد كتاب « الفتنة الكبرى » لطف حسين أزمة الدولة الإسلامية الناشئة وخلافاتها الدائرة حول توزيع الثروة والجاه والنفوذ والسيادة ، حتى كانت ستارة الإسلام أن تسقط في نيران العصبية القبلية وأساطير المجد والشرف العنصريين ، وعاد بنو عبد مناف يقاتلون بنى أمية . وبرزت بعض النسوة يحدثن وينظرن ويرقصن طرباً لأخذ الثأر ، كما في حالة نائلة بنت الفرافصة .

وتنسب بعض المصادر إلى عمرو بن العاص قوله لعائشة : (وددتُ لو مُت يوم الجمل ...) وحين سألته عن السبب قال : (لَنُعِيرَ بِكَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَحُزْبَهُ)^١ .

ومن المستبعد أن تصل عدم اللياقة بعمرو إلى هذا الحد ، ولكننا نذكر له موقفاً آخر حين عزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر ، فيقال أنه على إثر ذلك طلق زوجته أم كلثوم بنت عقبة ؛ وهي أخت عثمان من الرضاعة ، وكان عمرو قد تزوجها فيما يشبه الزواج السياسي بعد وفاة زوجيها السابقين . وعاشت أم كلثوم ما بقي لها من حياة بعيداً عن الانغماس في الخلافات الدائرة .

وظهر اسم امرأة أخرى في تلك الأحداث ، وهي فاختة بنت قريظة ؛ زوجة معاوية بن أبي سفيان ، ويحكى أنها كانت تصنع طعاماً لمحمد بن أبي حذيفة — عدو زوجها اللدود — وترسله إليه في السجن الذي حبسه فيه معاوية بالشام . وذات يوم بعثت له مبارد مخبأة في الطعام ، (فيرد بها قيودة وهرب فاختى في

١- ابن المبرد : الكامل ، ص ٢٦٧ .

غار فأخذ وقُتل). ولم تشفع له قرابته من زوجة معاوية بن أبي سفيان ، فأُسرع بالقبض عليه ثانية وقتله^١ .

وهكذا شاركت بعض النساء في الصراع العربي الدامي ، وانتصرن للصراعات القبيلة الحادة .. وخلفهن كانت القاعدة العريضة من النساء تتوارى خلف أستار الحريم ، وينتظرن الرجال المتقاتلين العائدين بالغنائم وخيرات البلاد المفتوحة .

ولكن ماذا عن وضع المرأة المصرية بعد الفتح العربي لمصر ..؟ هل شاركت هي الأخرى في الأحداث ، أم اكتفت بالعمل مع أقرانها من الرجال في أعمال الزراعة والصناعات المختلفة من أجل توليد الثروة للحاكمين الجدد...؟
إن الكتابة عن وضعها تبدو درياً من المستحيل وسط هذا الركام الهائل من المصادر التاريخية النافية للنساء ؛ بل والنافية لوجود الشعب المصري نفسه حينذاك.

١- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء العشرون

حال قبض مصر

وإذا كانت هذه هي حياة الصفوة العربية الحاكمة — الأشراف كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم — بعد أن أزاحوا الرومان عن مقاعد السلطة ، واتخذوا أماكنهم ، وتركوا قوانينهم في الدواوين ونظام المحاسبة سارية كما هي.

فكيف كانت حياة الشعب المحكوم المنزوي دائماً في خلفية الصورة ، حيث إن مصر لم تكن أرضاً منبسطة بلا شعب ، فتحها عمرو بن العاص من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، واستولى على كل مدنها وقراها وسواحلها في نزهة بسيطة تحت راية الإسلام... أم أن شعبها استقبل الجيش العربي بالترحيب والأحضان ؛ كما يحلو للبعض أن يصور الأمر في تبسيط مغلٍ وصور زائفة.

والملفت للنظر أن استقراء أحداث الفتح العربي من خلال مصادر التاريخ العربي : « كتب التراث » — يغفل وجود الشعب القبطي ، أو يأتي به في مواضع عابرة ؛ كدافع للجزية والخراج أساساً ، أي كممول خفي لحياة الصفوة التي تعيش بسيفها ورماحها.

فهي مصادر تقدم وجهة نظر الفاتح العربي المشغول بنفسه دائماً ، والحريص على إظهار صورته المعتدلة في الحكم ، وتكرار تلك الصورة وإعادة إنتاجها طوال الوقت ورفعها إلى مصاف الحقائق المطلقة.... بينما تضرع بفعل الإهمال والاضطهاد وجهة النظر الأخرى ، ووجهة نظر الشعب القبطي ، فيطويها النسيان وكأنها لم تكن هنالك أبداً... ونيش الذاكرة لإيجاد ما ضاع ليس سهلاً — وإن كان ممكناً بالتقريب بين طيات المراجع البالغة الندرة.

وبين أيدينا مؤرخ قبطي عاش في أواخر القرن السابع الميلادي وبداية القرن الثامن الميلادي ، وأشارت المصادر القديمة إلى أنه كان في سنة (٦٩٨م) شيخاً

كبيراً ، فعاصر في شبابه ونضجه أحداث الفتح ورآها رؤى العين ، وسجلها في مخطوطته الحاملة لاسمه.

وتتكون مخطوطة « يوحنا النقيوسي » من (مائة واثنين وعشرين باباً ، وقد حظيت مصر بأكبر قدر من اهتمام المؤلف ، حيث لم يترك فرصة يتحدث فيها عن مصر إلا انتهزها ... وقد حظيت فترة الفتح بالفصل الأخير من المخطوطة)^١ ، التي تعالج أحداث العالم منذ الخليقة حتى الفتح العربي الإسلامي لمصر.

إنه صوت وحيد للشعب القبطي المنزوي في خلفية الصورة ، كتب عما رآه ولمسه قبل أن تمتد أيدي الرواة إلى التاريخ وتقطعه حسب الهوى الشخصي والسياسي ، وهو يفوق من حيث الأسبقية مصادر التاريخ العربي.

ويوحنا النقيوسي ليس قبطاً عادياً ؛ بل هو رجل من رجال الكنيسة شغل منصب أسقف مدينة نقيوس.

وكان (أحد أهم اثنين من الأساقفة في مصر وعُيِّنَ في عهد البابا يوحنا الثالث رئيساً لأساقفة مصر السفلى) ، ثم المسؤول عن تدبير أنيرة وادي هيبب (وهو وادي النطرون ويعرف ببرية شبهات وبيرية الأسقط ويميزان القلوب فإنه كان بها في القديم مائة دير ثم صارت سبعة ممتدة غرباً على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم وهي في رمال منقطعة وسباخ مالحة وبرار منقطعة معطشة وقفار مهلكة وشراب أهلها من حفائر وتحمل النصارى إليهم النذور والقرايين وقد ثلاثت في هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأنيرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتاباً هو عندهم^٢ .

١- عمر صابر : مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي .

٢- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، الجزء الثاني ، ص ٥٠٨ .

وقد ظلت مخطوطة يوحنا النقيوسي مجهولة للدارسين العرب فترة طويلة^١ ، بينما كان يجري الاستشهاد به في الدراسات الغربية ، خصوصاً وأن النقيوسي كان قد كتب كتابه باللغة القبطية ، ثم تُرجم إلى اليونانية والعربية والأثيوبية .. ولظروف مجهولة فُقدت النسخ اليونانية والعربية والقبطية ، ولم يبق إلا النسخة الأثيوبية محفوظة بمكتبة الكنسية بأثيوبيا حتى قام الدكتور (M.H.Zotenberg) بتقديمها مع ترجمة فرنسية لها . وظلت موضع بحث واستشهاد الغرب ؛ حتى ذكرها المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الراجعي نقلاً عن (زوتنبرج) . وتتالت الاستشهادات ، إلا أنها تأتي عابرة ومبتسرة ؛ حيث يقطع كل باحث من النص الأصلي ما يوافق هواه ، فلا يبقى من المخطوطة في دراساتهم سوى جُمل تتنزع من سياقها مع تجاهل روح المخطوطة وجوها العام .

وسيدة إسماعيل الكاشف — علي سبيل المثال — تذكر النقيوسي كمادح لسماحة جيش الفتح العربي لمصر ، بعد أن اقتطعت فقرة واحدة تؤكد أن عمرو لم يمس ممتلكات الكنسية وأنه ترك لها حرية العبادة علي عكس كل ما سبق ذلك ، وما تلاه .

أما (جاك تاجر) فيري أن يوحنا اهتم بالشكوى من العرب (أكثر من ذكر الأعمال التي نشرَ الفاتح فيطلعنا في تاريخه علي سينات الفتح)^٢ . بينما قراءة الفصل رقم (١٢٢) كاملاً من المخطوطة تطلعنا علي تفاصيل المعارك الحربية وحال الجيش الروماني أثناء الغزو ، وكيفية سيطرة الجيش العربي علي المواقع والبلاد . ومقاومة بعض المدن واستسلام البعض الآخر ... فيرسم صورة حية

١- مازالت المخطوطة حتى الآن لا تجد إلا التراب والعنكبوت أصدقاء لوحدها في مخازن جامعة القاهرة المعنمة الرطبة ... ضمن دراسة الدكتوراة الشائقة للدكتور عمر صابر .

٢- جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلي عام ١٩٢٢ ، كراسات التاريخ المصري ١٩٥١ .

يغلفها إطار سميك من الحزن على القرى المقاومة وما لاقته من أهوال على يد الجيش العربي .

ومن القراءة الأولى للمخطوطة نلاحظ عداة النقيوسي للجانب العربي من جهة ، ويسميه بالإسماعيلين مرة وبالمسلمين مرة أخرى ، ويظهر عداة للجانب الروماني من جهة أخرى ، ويسمى أولئك وهؤلاء أعداء المسيح ، أما الأقباط فهم وحدهم أصحاب العقيدة الحقّة من وجهة نظره . ويتمني النقيوسي أن ينزل الله عقابه الشديد على الجيش العربي وقادته بسبب كل ما فعلوه بالمصريين ، مثلما فعل الرب بفرعون موسى حينما (أغرقه في البحر الأحمر مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيلين فقد صنع بهم كما صنع بفرعون) ^١ .

وفي ذات الوقت لا يُخفي فرحه لم نزل بالرومان من هزيمة وقتل ، ويذكر فرحاً أنه عقاب السماء الذي حلّ عليهم بسبب كل ما أنزلوه بالقبط من العذاب الشديد ، ويسمى الرومان بالنجسين في بعض المواضع ، وبأعداء المسيح ، أو أعداء العقيدة الحقّة في مواضع أخرى .

فالنقيوسي صوت قبطي صرف ، يرى ظلم الرومان وقسوتهم من جهة ، وضراوة العرب وشدتهم من جهة أخرى ، ويتابع سير المعارك بين الجانبين بهذه العين المصرية الخالصة ، وسرعان ما ينتابه الأسى لما يحل بشعبه القبطي على أيدي الجانبين .

ويذكر النقيوسي في مخطوطته أحد أهم أسباب هزيمة الرومان ، وانتصار العرب عليهم ، وهو سبب انتشار عوامل الانحلال داخل المعسكر الروماني ، وتناحر قاداته ومكائدهم ؛ بعضهم لبعض ، كأثر من آثار اختلافات المركز في

١- يوحنا النقيوسي : المخطوطة .

بلاط هرقل ؛ الإمبراطور الروماني المريض والمشرّف على الموت ، وصراع زوجته الثانية نيابة عن ابنها ضد الابن الآخر لهرقل من زوجته الأولى ، وانقسام رجال البلاط بينهما ... وخزّانة الدولة خاوية من كثرة نهب كل فريق ، وخصوصاً بعد سلسلة الهزائم التي حلت بالإمبراطورية أمام الهجوم الفارسي من الشرق ، والهجوم السلافي في الشمال .

وقد انعكست كل هذه الخلافات على وضع الرومان في مصر ؛ حيث (لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر بل وحدات متفرقة في الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة ، روعي فيها التطابق ؛ فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط)^١ . (وخصوصاً بعد ما طرد الرومان الفرس من مصر واكتفوا بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحرى) .

ويذكر النقيوسي أن الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم ، وأنه (كان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة)^٢ ؛ مما يفسر فرار بعض القادة المحليين أمام جيش المسلمين وانضمام آخرين إلى جيش عمرو خوفاً من بطش الحاكم العسكري الروماني « تيودور » .

لقد غزا عمرو بن العاص المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية ، ويبدو أن عمرو كان ملتماً بتلك الأحوال عن طريق (أدلاء للشام) ، مما يفسر رغبته في الإسراع بغزو مصر بعد ما ألم بالرومان من هزائم في الشام ، وقبل أن يفتقروا من آثار الصدمة الأولى .

١- سيرها رولندل : تاريخ مصر الهيلينية .

٢- مخطوطة يوحنا النقيوسي

وإذا حاولنا تجميع مفردات الصورة العامة كما جاءت في مخطوطة « يوحنا النقيوسي » ، سنلاحظ تقهقر الجنود الرومان ووحداتهم العسكرية تبعاً من الشرق إلى الغرب ، أو مناطق الحصون عند رأس الدلتا وغربها، فيقول : (سار المسلمون إلى الصحراء ، وأخذوا الكثير من الخراف والظباء من الجبل ، ولم يعرف أهل مصر هذا) ^١ .

فهو لا يذكر هنا المواقع الحربية التي دارت في الشمال الشرقي مثل معركة الفرما أو معركة بلبيس أو غيرها من المواقع التي أفاض المؤرخون الآخرون في ذكرها - لمزيد من التفاصيل انظر هامش سير المعارك الحربية ^٢

١- النقيوسي : المصدر السابق

٢- هامش سير المعارك الحربية حسب توقعات بعض المؤرخين :

أ- حسب رواية البلاذري في كتاب فتوح البلدان :

سار جيش عمرو بن العاص من العريش إلى الفرما إلى الليونة (بابلون) أو القسطنطينية ومنها وجه جيشاً إلى عين شمس بقيادة عبد الله بن حذافه السهمي ، وآخر إلى الفيوم والأشمونيين بقيادة خارجة بن حذافه العدوي ، وثالث إلى تبتيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ونقهلة وبنا وبوصير بقيادة عمير بن وهب الجمحي ، ورابع إلى سائر قرى أسفل الأرض بقيادة عقبة بن الجهمي .

ب- حسب رواية ابن تغري بردي الأتابكي، المأخوذ عن ابن عبد الحكم (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) : سار جيش عمرو إلى رفح ، ومنها إلى العريش ثم إلى الفرما، وهي أول موضع قاتلته فيه الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر .
والفرما هي مدينة عتيقة على ساحل بحر الروم، وهي الآن خراب ، وهي على جانب بحيرة تبتيس مما يلي الشرق.

ثم مضى إلى القياصر ، ومنها إلى بلبيس وفيها قاتل نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم ننين (كانت تطلق قبل الإسلام على المقس وكانت واقعة على النيل ، ويقع فيها الآن جامع أولاد عناني وشارع كامل وحديقة = الأريكة) فقاتلوا من بها قتالاً

شديداً، وأبطأ عليه الفتح فطلب مدداً من الخليفة عمر بن الخطاب... وظل حصار بابليون سبعة أشهر حتى سقط في أيدي الجيش العربي .

ج- في كتاب (الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة) لابن ظهيرة نجد نفس خط سير القتال .

في معجم البلدان لياقوت الحموي :

الفرما قتال نحو شهرين

بليبس قتال نحو شهر

أم دفين وهي المقس شهرين

حصن بابليون سبعة أشهر

هـ - سير عمرو بن العاص حسب ما ذكر حسن إبراهيم حسن :

من البقعة الريفية بالملح التي تحيط بالفرما مر عمرو وعلى أرض مفروشة بقشور الصنف البيضاء التي استلحت إلى رمال حتى وصل إلى مجدل نحو الجنوب والغرب ، ومن ثم إلى الجهة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس ، حيث يتغطى سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب ، وفي خلالها بقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب ، ثم أخذ في السير إلى الصالحة والقصاصين ومن ثم اتجه منحرفاً نحو الجنوب مجتازاً تلال وادي الطميلات (رأس الوادي) على مقربة من التل الكبير الآن وقريباً من بليبس .

وقد اتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقاً غير هذا مثل قميز الذي سار من الفرما متحياً نحو الغرب إلى سنهور وتيس (صان) ومن ثم إلى بليبس ولكن في هذا الوقت - أي حين الفتح الإسلامي - انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره ، إذا لم يكن لدى عمرو وجنده من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور .

و- أما سير القتال حسب تصور د. حسين مؤنس في أطلس تاريخ لفتح الإسلامي :

من غزة إلى رفح وسار في الطريق الشمالي القريب من البحر ، فدخل ثم مر بالعريش ومر ببئر المساعيد ورؤس الأتراب وبئر العبد وقطيا ثم انتهى إلى الفرما ، وهي ميناء صغير على البحر يسمى عند الروم Pelusium وكان يصب بقرتها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البلوزي .

ومن الفرما اتجه جنوباً حتى قرة مُجَدَل Migol قرب الفرما ثم مر بمكان قرية القنطرة ثم إلى مكان الصالحية ووادي الطميلات. وعندما وصل عمرو ببليس وجد بها جمعاً من الروم يقودهم قائد يسمى Arteon وقد سماه للعرب الأرطبون، فاستولى عليها العرب بعد قتال نحو شهر. ومن ببليس اتجه عمرو إلى رأس الدلتا، فوصل إلى قرية تسمى تند ونياس ويسمّيها العرب أم دنين واستولى عليها.

أما رأس الدلتا فكان في جنوبها حصن للروم يسمى حصن بابليون أو باب النيون، جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد وضمان طاعة أهلها وصّد أي غانية تكون على مصر من الشرق. وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام؛ قيل الفتح العربي بقليل. وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنه إلى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر، وهي منطقة مزارع من قرى وحدائق، وحاصر العرب حصن بابليون (وبعد مجئ المند) كان اللقاء عند هيلوبوليس وانتصر العرب، ولجأ الروم إلى بابليون فتحصنوا به، وعاد المسلمون يحاصرونه، وبعد صلح بابليون قرر عمرو المسير إلى الإسكندرية؛ قاعدة مصر البيزنطية...

وسار إلى الإسكندرية محاذياً فرع رشيد الذي يسمى الفرع البولييتيني نسبة إلى رشيد، وكان اسمها Paulatina وفتح عمرو في طريقه طرنوط ثم نقيوس، ثم سلطيس ثم الكريون وكلها كانت مراكز لجاليات رومية حاولت مقاومة العرب. وكان تيودور قائد الحامية الرومية تحصن في الكريون ثم انهزم بالإسكندرية وتحصن بأسوارها وكتب إلى هرقل، واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر حتى قلق عمر بن الخطاب وكتب إلى عمرو، فقرر عمرو اقتحام أسوار البلد وعهد إلى عبادة بن الصامت في ذلك فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده...

وفي أثناء حصار الإسكندرية كانت بعض نواحي مصر قد حاولت الوقوف في وجه المسلمين في الفيوم وأعلى الأرض وشمال وغرب الدلتا، فوجه عمرو خارجة بن حذافة السهمي في قوة إلى شمال غرب الدلتا فعارب البشردات؛ أي أهل الشرود وهم أهل منطقة المنزلة — مع ملاحظة أن المنزلة شمال شرق الدلتا وليس غربها كما يقول حسين مؤنس.

وجه عُمر بن وهب الجمحي إلى نواحي تيس ودمياط وتونة ودميرة وشنا ودقهلة وبنابوصير ففضى على مقاومتها. وكانت في الفيوم قوة رومية يقودها رجل يسمى دومينينا نوس فحاول التقدم نحو الفيوم ولكن القائد الغربي عبدة بن عامر تصدى له وهزمه. وتولى عبدة بن عامر القضاء على كل مقاومة في الصعيد.

كما نلاحظ إشارته إلى تفكك الجيش الروماني ، وبطء وصول المعلومات ، أو إشارته لعنصر المفاجأة ؛ حيث يقول : (لم يعرف أهل مصر هذا) .

وسمع تاودسيوس الحاكم — وهو سماع متأخر في هذا السياق وغريب في ذات الوقت نظراً لاستمرار اقتحام الجيش العربي مدن الشام وسقوطها تباعاً حتى حدود مصر الشرقية سمع تاودسيوس الحاكم بمجيئ الإسماعيليين ، وكان يسير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء . (وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا

غزة ← رفح ← العريش ← الفرما ← بلبس، الصالحية ← نقيوس
عين شمس ← أم دنين — بابليون ← الجيزة عبر النهر
حلوان ←

ترمنت الفيوم

أهناسيا

دلاص

البهنا

وفي النهاية يمكن أن نميز ثلاثة خطوط حربية : ١- خط جيش عمرو الرئيسي القادم من الشام إلى الفرما إلى بلبس ، وعند بلبس تفرع منه جيش بقيادة سمالوط إلى بقية الصعيد حتى النوبة

وبمقارنة سير المعارك لدى يوحنا النقيوسي والمؤرخين العرب القدامى والمحدثين نلاحظ أن النقيوسي لم يذكر المعارك الشرقية وأن اهتمامه بالتفاصيل ينحصر في الدلتا والشمال الغربي حتى الإسكندرية وربما تكون بعض الأوراق قد ضاعت من مخطوطة النقيوسي ، وربما لم يبدأ اهتمامه بالتفاصيل إلا مع اقتراب الخطر العربي من المناطق المحيطة به والقريبة منه.. مع ملاحظة أنه لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر ؛ بل وحدات متفرقة مع الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقسيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة روعي فيها التطابق ، فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط ، كما يقول سير هارولد بل في كتاب الهلينية في مصر .

رئيس الجند وكل من معه دون رحمة . في الحال فتحوا المدينة ، وعندما شاع الخبر فر بعض القادة إلى حصن بابلين ^١ .

ويشير النقيوسي إلى مواطن تركز الجيش الروماني في رأس الدلتا وغربها ، حينما يذكر حصن بابلين الذي فر إليه القادة ، ومسلحة نقيوس التي تراجع إليها الجند ، ثم يذكر معارك « أون » عين شمس وطلب عمرو بن العاص من الخليفة أن يمدّه بمزيد من القوات ، ويذكر تقسيم عمرو للجيش إلى ثلاثة أقسام : قسم عند طندونباس ، وقسم عند شمال بابلين ، وقسم عند أون عين شمس . وانتصر العرب في المعركة ، واستولوا على طندونباس ، وتقهقر الرومان بعضهم إلى بابلين وبعضهم إلى مسلحة نقيوس.

ومع كل هزيمة كانت النزاعات تتسع بين القادة الرومان ، وحتى دمنديانوس الذي كانت وحدته العسكرية تمثل نقطة مقاومة رومانية ضد العرب في الفيوم ، (وبويط هرب ليلاً) وسار بالسفينة إلى نقيوس « وعندما عرف المسلمون أن دمنديانوس هرب — ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط وأراقوا بها دماً غزيراً ^٢ .

وبدأ عمرو بن العاص يثبّت أقدامه ويطلب من بعض حكام المدن مساعدته ، فطلب من أباكيري في مدينة دلاس أطفيج بنى سويف أن يمدّه بسفن الريف لتنتقله إلى شرق النهر ، كما طلب من جيورجيس والى المقاطعة أن يشيّد له قنطرة عند النهر بمدينة قلوب ليستولى على كل مدن مصر ومدينة أتريب — ناحية بنها — منوف وجميع ضواحيها ، في ذات الوقت الذي كان يعسكر في بابلين ، وقبض عمرو على كل من يخالفه من حكام الرومان : (وكبّل أيديهم وأرجلهم بأغلال

١- النقيوسي.

٢- النقيوسي : المصدر السابق.

الحديد والخشب ونهب أموالاً كثيرة بعنف ، وضاعف فرض الضرائب على العمال وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم ، وارتكب آثاماً كثيرة لا تحصى ^١ . وهنا حدث زعر عام في مصر ، وكان الرومان يفرون من المدن الأخرى ليتحصنوا في الإسكندرية قبل أن يدركهم عمرو (يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية ، وهجروا كل أموالهم وخزائنها وحيواناتهم) ^٢ .

وفي مقاطعة أخرى عند مدينة سمنود رأى الرومان هناك ضرورة قتال الجيش العربي ، في ذات الوقت الذي كان القائد العسكري للرومان يحاول رأب صدع الخلافات بين رجاله المتناحرين ، وظل عمرو يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنها .

ويذكر النقيوسي المواطن التي قاوم أهلها الجيش العربي مثل سخا - كفر الشيخ غريبة - ونوход من أعمال البحيرة ، و(مصاى) من أعمال البحيرة أيضاً ، ودمياط ، بالإضافة إلى مدن الشمال . وعودة عمرو دون تحقيق النصر عليهم إلى جنوده في بابلون (وأمرهم أن يمهّدوا طريقاً من حصن بابلون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين - رشيد - ليحرقها) ^٣ وحدث زعر عام نتيجة تلك المحرقة الكبيرة . وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها ، وأرسل قليلاً من المسلمين إلى مدينة (أنصنا) مدينة مارية القبطية (وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين فأبى ونهض بسرعة مع جنوده . وجمع كل مال الضرائب من المدينة) ^٤ . وهرب إلى الإسكندرية ، وخضع أهل المدينة

١- النقيوسي : المصدر السابق.

٢- النقيوسي : المصدر السابق.

٣- النقيوسي : المصدر السابق

٤- النقيوسي : المصدر السابق

للعرب وقدموا لهم الضرائب ، وكره سكان البلاد من القبط الروم الذين تركوهم مكشوف في الظهر وهربوا بعد أن سرقوا الأموال ، ولذلك راح الناس يقتلون من يجدوا من جنود الروم أمامهم .

ومات هرقل في ظل كل هذه الهزائم . وسلّم حصن بابليون بعد أن أخذت حامية الحصن (قليلاً من الذهب وساروا) ، وبعد أن عذبوا الأقباط الذين كانوا يسجنونهم ، وقطعوا أيديهم قبل أن يرحلوا .

وهرب حاكم (أباديا) إلى الإسكندرية تاركاً جنوده نهياً للذعر والقتل . ودخل الجيش العربي مدينة نقيوس (مكان الكوم الأثرى الجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف)^١ ، ويقول البعض : إنها قرية شبشير الآن ، أو قرية أبشادي مركز تلا منوفية .

ثم يذكر (النقيوسي) الخلافات الدائرة بين الحكام الرومان في الوجه البحري ، وانقسامهم إلى قسمين : قسم انضم إلى جانب المقاومة بقيادة تيودور الحاكم العسكري ، وقسم أراد أن ينضم إلى المسلمين .

وبعد استيلاء العرب على كريون الواقعة جنوب الإسكندرية ، ظهر كيرس البابا الخلقيدوني — أو المقوقس — وعقد اتفاقية التسليم وأداء الجزية ، (واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوباً وشمالاً وضاعفوا عليهم فريضة الضرائب ثلاثة أمثال)^٢ .

وهكذا نرى في مخطوطة النقيوسي : فقدان الثقة ، والفرار ليلاً ، والاحتفاء بالحصون دون البروز في المعارك ، ثم الفرار من موقع سقط إلى

١- محمد رمزي : القاموس الجغرافي .

٢- النقيوسي : المصدر السابق

موقع آخر لم يسقط بعد ... وكلها من أهم السمات الغالبة على الجيش الروماني .
ويمكن تقسيم قادة الجيش الروماني إلى قسمين :

- المتعاونون مع العرب مثل : أحد رجال (أرمياس) ، وقد دلّ العرب على مكان اختباء يوحنا الحاكم في الحظائر والمزارع .

وأباكيرى حاكم مدينة دلاس (أطفيح) ، وقد أمّد عمرو بن العاص بسفن الريف .

وجيورجيس الوالي ، وقد شيدّ لعمرو قنطرةً عند النهر بمدينة قليوب ، وكروديس وغيرهم .

- بالإضافة إلى القادة المتذبذبين بين التعاون والندم على التعاون ، مثل :
كلادجى وسبنديس ، وكلاهما كان مضاراً من عنف رؤسائه في الجيش الروماني ، فانضم إلى العرب نكاية فهم من جانب ، ورغبة في تأمين النفس من جانب آخر . ثم ندما وعادا إلى صفوف الرومان ، وعاد سبنديس إلى مدينة الإسكندرية (معترفاً بخطئه لدى السادة مع عزيز الدموع) .

وسوف نجد أيضاً في مخطوطة يوحنا النقيوسي صورة ساخرة للقادة الهاربين ، مثل تاودسيوس وأنسطاسيوس اللذين تركا البهنسا (قرب واحة سيوة) بعد سماعهما نقصة قتل يوحنا الحاكم ورميه في البحر ، فتوجها في الحال إلى حصن بابلون ، وبقياً هناك .

ولمنديوس الذى كان بمدينة فيوم ، وسمع أن محاربي الإسلام قد استولوا على مدينة ضنئونباس وأفنوا ما بها من الجنود (ولم يبق بها سوى ٣٠٠ جندي) فنهض لمنديوس (ليلاً دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام وسار بالسفينة إلى نقيوس) .

ومنديوس حاكم أباديا الذي (هرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم ... ولما رأى الجنود أن حاكمهم فرّ ، تركوا عدّة حربيهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر ولم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريا ، وهو قوى محارب)^١ .

وفي العموم ، اتجهت حركة الهرب إلى ثلاثة مواقع — في مخطوطة النقيوسي — من الشرق إلى حصن بابلين ، ومن حصن بابلين إلى حصن نقيوس (مركز منوف أو المنوفية) ، ومنه إلى حصون الإسكندرية . وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذهب والمنقولات إلى القسطنطينية . وبخلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار ، فحصدتهم السيوف العربية ، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة .

وفي خلفية الصورة سجد جُموعاً غفيرة من المصريين — القبط وغيرهم — في القرى والمدن ، كانوا ينتظرون في البداية تصدى الجيش الروماني للجيش الإسلامي (ليتلاقوا لقتال الإسماعيلين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعوا الحرب ، لئلا يتلف زرعهم فيموتوا جوعاً مع صغارهم وحيواناتهم)^٢

ولكن كثرة الهزائم التي حلت بالرومان ، وكثرة القتل والنهب التي أحدثها الجيش العربي ، خلقت حالة من الفوضى والذعر ؛ (خوف عظيم في كل مدن مصر) .

١- النقيوسي : المصدر السابق

٢- النقيوسي : المصدر السابق

والمدن التي شرعت في المقاومة ؛ كان عمرو بن العاص ينشب النار في أسوارها وبيوتها وطرقها وزروعها ، مثلما فعل بمدينة دمياط التي (لم ترض عنه) والمدينة ذات النهرين ، وغيرهما .

وأحياناً أخرى ، كان قتل من يقف في طريق الجيش العربي من المدنيين وسيلة الجيش الإسلامي في الاستيلاء ، كما حدث عندما دخلوا مدينة (نقيوس) واحتلوها ولم يجدوا (أحداً من المحاربين وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس ، رجالاً وأطفالاً ولم يشفقوا علي أحد)^١.

(ونهبوا كثيراً من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال ونقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه - يقصد مدينة نقيوس - فقيرة)^٢.

ويبدو أن ما حدث فيها كان أكبر من الوصف ، حتى أن النقيوسي يطالبنا بأن (نصمت الآن ، فإنه لا يستطيع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا علي جزيرة نقيوس)^٣.

وبعد وصوله إلى الإسكندرية (هدم بيوت السكندريين الذين هربوا وأخذ أخشابها وحديدتها وأمر أن يمهّدوا طريقاً من حصن بابلليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار)^٤.

ويشير يوحنا النقيوسي إلى أن الجمهور المصري لم يأخذ وضع المتفرّج الساكن السلمي ، أو الفار المذعور دائماً أمام الاجتياح العربي - رغم أنه أعزل ؛ بل كان نواة المقاومة في هذه المدن ، التي كان الحرق جزاءً لمقاومتها -

١- النقيوسي : المصدر السابق

٢- النقيوسي : المصدر السابق

٣- النقيوسي : المصدر السابق

٤- النقيوسي : المصدر السابق

وخصوصاً مدن الشمال ، حتى أن عمرو رئيس المسلمين (مكث اثني عشر شهراً يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح منهم)^١ .
وحتى عندما كان عمرو يحرق مدينة كان أهلها يخرجون ليلاً ويطفئون مدينتهم علي قدر استطاعتهم .

ونقطة الفصل في فهم موقف عمرو بن العاص من المصريين ، ومن كيفية تعامله معهم ، هي في النظر إلى مدي تمسك الشعب بالمقاومة أو عدم تمسكه بها، لأنه كان علي استعداد لفعل أي شئ في سبيل إتمام الفتح ، وكما قال النقيوسي إنه : (كان ذو اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي علي مدينة مصر)^٢ . ولذلك فإنه لم يذخر وسعاً لتحقيق هدفه واستخدام كل وسائل الحرب في عصره ؛ كما يقتضي منطق الفتح — الغزو — لإخضاع البلاد المطلوب ، وبما كان الحرق أو التهديد بالحرق أكثر وسائل عمرو بن العاص الموجهة ضد مقاومة العزّل من سكان المدن ، أما تلك التي سلّمت سريعاً فقد كان يبادر إلى مضاعفة الضرائب فيها (ثلاثة أمثال) ؛ كعلامة من علامات الخضوع والتسليم .

فالأساسي لدي عمرو هو أن تدين له البلاد بالطاعة أو تُدمّر ... إما أن تخضع أو تُحرق .. وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدامية والمحارق الواسعة وهوان الهروب والتشرد ، استكان المصريون للعرب ، وتعاملوا معهم علي أنهم أمر واقع لا يملكون تغييره . وأدرك عمرو من خلال بعض رجال القبط المتعاونين معه مدي الخلاف بين الكنيسة المصرية وبين الكنيسة الرومانية ، كما أدرك ما للكنيسة المصرية ورجالها من أهمية وتقديس في قلوب الأقباط المصريين ، فعمل علي تأمين عودة الأنبا بنيامين ورجال الإكيروس ، ومنحهم الأمان الذي افتقدوه في

١- النقيوسي : المصدر السابق

٢- النقيوسي : المصدر السابق

الأعوام العشر السابقة على الفتح ، (ودخل الأنبا بنيامين بطريك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هروبه من الروم وسار إلى كنائسه وزارها كلها .

وساد المسلمون مصر ، وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله ويأخذ الضرائب التي حدودها ، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً سلباً أو نهباً وحافظ عليها طوال الأيام)^١ .

وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتها " الدكتورة سيدة الكاشف " لتدل بها على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي؛ بل من خلال أحد رجال الكنيسة القبطية المهمين في ذلك الحين .

ولكن كما نرى : فإن إقرار السماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مر عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتى خضعوا واستتبّت الأمور للفاتحين الجدد ، وفهم عمرو بن العاص أن التغاضي عن مال الكنائس هو الحصول على كل الثروة؛ بل هو مفتاح الخضوع الكامل للشعب القبطي المحب لكنيسته ، والذي أخفى رجالها في الحشايا والضلوع لحمايتهم من الاضطهاد الروماني . وفي ذات الوقت الذي يفرح فيه هذا الشعب لعودة البابا بنيامين ورجال الإكليروس وتأمين أموال الكنيسة وممتلكاتها ، يسوده الحزن والغم الشديد من جراء تزايد أعباء الضرائب والجزية والخراج . وميزة النقيوسي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تُلف رأسه ، بصفته أحد رجال الكنيسة المهمين ، ولم تنسه ذكر ما ألم بالشعب ، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة ، ويقول : (ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابساً كما تعلم من تيودر العاصي وزاد الضرائب قدر

اثنين وعشرين عصاً من الذهب ، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون^١ .

وقراءة النقيوسي قراءة صحيحة تقتضي النظر للجانبين ؛ جانب استخدام العنف للقضاء على مقاومة أهل البلاد ، وجانب التسامح مع رجال الكنيسة القبطية أصحاب السلطة الروحية المهيمنة على الشعب ؛ بل يجب النظر للجوانب العديدة التي تملأ مخطوطته ، حتى إنما يمكن أن نرسم من خلال تفاصيلها الثرية صوراً للقادة المتصارعين ؛ عليها تُكوّن جزئيات من الصورة الكلية للصراع لحظة الفتح العربي لمصر .

بورتريحات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي

١- هرقل

إمبراطور الروم القاطن في القسطنطينية ... يضعه النقيوسي على رأس أعداء الذين أنزلوا العذاب بالأقباط المصريين (أبناء الله العزل أو أبناء المسيح الطيبين) وهو الآن طريح الفراش يري مملكته وسبب جبروته الأول تتكسر أمام ناظره قطعه ... قطعة ، وتضيع إلى الأبد ، ورجاله يتساقطون كالهوام ويتركونه حزينا يتسلم جثته ويودعهم مთاهم الأخير ، ويرى نار الخوف والانقسام تأكل من بقى منهم : (كان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم ويوحنا الحاكم للذين قتلهم المسلمون) ، وكان أحدهم هو الذي أخرجوا جثته بشبكة من البحر وبعثوها إليه يحمسونه ضد قاتليه العرب ... ومن كثرة الهزائم في الشام و فلسطين ومصر ، أخذت روح القنوط تسرى في أوصاله المتعبة ، وتمكن الحزن من قلب هرقل (وأخذ الله قوته) وجاءته الحمى الأخير تحصد ما بقى من أشلائه ، و(بأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك مرض هرقل بمرض الحمى ومات)^١ .

إلى جانب تلك الأسباب الإلهية العليا المتمثلة في غضب قبط مصر وكراهيتهم له ، وبالتالي غضب الرب في السماء ، يشير يوحنا إلى تجليات واقعية لأزمة الرئاسة والحكم : (كان الناس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاث ملوك إحداها صورته والاشتتان صورتا ابنيه ، واحد من الجهة

اليمنى والآخر من اليسرى ، ولم يجدوا مكاناً يكتبون فيه اسم مملكة الروم ، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاثة ^١ .

فالفُرقة والاختلاف السياسيين وصراع الأبناء والاتباع والزوجة على الحكم تجرى جميعاً أمام ناظري الإمبراطور وهو قعيد تأكله الحمى وأخبار الهزائم .

وجميعها أسباب لتتفيذ مشيئة الرب العادل — من وجهة نظر النقيوسي — لإنزال العقاب على الإمبراطور الطاغية ^٢ .

٢- قيرس

ليس له وجود في أحداث المعارك الأولى وحتى سقوط حصن بابلليون ؛ إلا في إشارة عابرة تدل على أنه هو نفسه البابا الخلقيدوني الذي كان أداة هرقل لإنزال العذاب على مصر أصحاب العقيدة الحققة ^١ .

ظهر كيرس «قَيْرَس» في المخطوطة بوضوح بعد وفاة هرقل وبعد الهزائم المتتالية التي أصابت الروم . وبعد نجاح العرب في اقتحام حصن بابلليون والسير إلى الريف ليستولوا عليه ؛ عند ذلك : (نهض كيرس البابا وسار إلى بابلليون حيث المسلمون ، راغباً أن يعمل سلاماً وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب

١- النقيوسي .

٢- يقال أن هرقل كانت تعتريه بين الحين والآخر نوبات من الخمول والانتقباض خصوصاً بعد المعارك الضارية التي دخلها خسرو إمبراطور الفرس وغارات جموع الآفار والشعوب السلافية، بالإضافة إلى أنه كان يشك في إخلاص بريسكوس القائد العام . كما كانت الإمبراطورية تعاني من ضيق الموارد وخواء الخزينة العامة من جراء كثرة الحروب .

عن بلاد مصر . فرحب عمرو بمجيئه وقال له : منحكم الرب هذا البلد من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة وحددوا عبء الضرائب التي تؤدى ^١ . وهكذا قام كيرس «قَيْرَس» بوضع لمسات التسليم الأخيرة ، وأخذ الأمان للروم؛ فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهراً .. هرب خلالها الروم الكثير من الأموال إلى موطنهم الأصلي ، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك . وبعد لمسات الاعتراف والتسليم التي قام بها كيرس «قَيْرَس» ، عاد إلى مقر حكمه بالإسكندرية ، وأبلغ القادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل — وغالباً كان المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك . وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها ، خطب كيرس في الجنود ، (وقال لهم كلهم ، إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل) ^٢ .

وحينما انتشر نبأ المعاهدة حدثت فتنة عظيمة بالإسكندرية وثورة عارمة ضد هؤلاء الرومان المتعاسين والمستسلمين للعدو العربي ، وزحف الناس إلى مقر البابا الخلقيدوني وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار ، لكن بحكمته السياسية وكهنوته الديني خطب فيهم قائلاً: (إنما صنعت هذا لأنقذكم مع أبنائكم ، واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن ، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهباً كثيراً ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب . وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين وسألوا البابا الخلقيدوني وقالوا له : تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلادنا ونخضع لهم . فعلم لهم كما قالوا واستولي المسلمون على كل بلاد مصر جنوباً وشمالاً وضاعفوا فريضة الضرائب ثلاثة أمثال) ^٣ .

١- النقيوسي .

٢- النقيوسي .

٣- النقيوسي .

وواضح أن كيرس « قَيْرَس » كان خطيباً مؤثراً استخدم شتى الأساليب البلاغية والتمثيلية ؛ حينما (استعطفهم بكثير من البكاء والحزن) فرقوا له ، أو جعلتهم المأساة الشاملة يرقون ويحسون أن ظهورهم للحائط ، وأنه لم يعد أمامهم إلا طلب النجاة وشراء الأنفس ببذل المزيد من الأموال والذهب لكيرس ليؤديها عنهم للعرب ، هذا في ذات الوقت الذي انشغل فيه القادة الهاريون عن طريق البحر إلى القسطنطينية .

نهبٌ موسّع جرى تحت غطاء نموع (كيرس) وأحزانه البادية من جهة ، والفوضى الناتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى .

وينتهي دور كيرس « قَيْرَس » بنفس الغموض اللازم لملاح رجل التسليم ، فتتأبه الحمى ، ويموت أيضاً أسيف القلب .

(ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات)^١ .

٣- تيودور

يحتل مساحة كبيرة في مخطوط يوحنا النقيوسي ، ويبدو انه كان بمثابة الحاكم العسكري لمصر ، وأنه لم يتحرك للقاء الجيش العربي إلا بعد هزيمة رجاله في البهنسا ، وحينما أسرع إلى تلك المنطقة لقتال العرب أخفق في الجولة الأولى .

١- يذكر سير هارولد أن كيرس كان رجلاً قلق المزاج ، ولما وجد أنه لا سبيل إلى جعل القبط يعتقدون المذهب الخلقيدوني بدأ حملة عنيفة من الاضطهاد . وأنه عقد معاهدة بابليون بعد الهزائم الأولى ، ولما ذهب يعرضها على الإمبراطور رفضها ونفاه ، وبعد وفاة هرقل عاد قيرس بأمر زوجة الإمبراطور إلى مصر ، وكانت بابليون قد سقطت وزحف العرب إلى الإسكندرية ، ولما رأى أن الإسكندرية قد مزقتها الحزبية؛ عقد مع العرب معاهدة الإسكندرية في ظل رضى وموافقة الوصية علي عرش هرقل الصغير .

و) بحث تيودور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر ، وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة وإلى هرقل^١ فكان نظير شؤم للإمبراطور المحتضر .

ثم كان اللقاء الثاني له مع العرب في أون — عين شمس — فكانت الهزيمة الكبرى الثانية ، وفرّ هو وجنوده إلى حصن بابلليون ، ودارت بعد ذلك معركته الثالثة مع العرب في كريون ، وهزم فيه أيضاً .

وأمام هذه الهزائم المتتالية حاول تيودور أن يجمع شمل رجاله فبعث إلى كلادجي ، الذي يبدوا أنه قرّ من الجيش مع رجاله (ودعاه قائلاً : عد أنت إلينا وعد إلى الروم . ووهب كلادجي تيودور كثيراً من المال خوفاً منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئين في الإسكندرية وطُيّب تيودور قلب كلادجي)^٢ . وتفوح من بين سطور النقيوسي السابقة أصابع الاتهام إلى تيودور :

هل كان قائداً مُرتشياً... ؟ سفاهاً يقتل زوجات وأمّهات رجاله المتمردين ... ؟ هل كان قائداً سئ السمعة حتى تفرّق عنه رجاله وسط المعارك الطاحنة فكانت الهزائم المتتالية... ؟

النقيوسي يقول إن تيودور حاول أن يسترضى سبنديس أيضاً الذي (هرب من أيدي المسلمين وانضم إلى دمنديانوس لحرب الإسلام)^٣ .

ينضم إلى من ... ؟ إلى دمنديانوس عدو تيودور وغميره في الصراع الطاحن ! إذن فقد كان تيودور يحاول أن يقطع سبنديس من جبهة غريمه دمنديانوس ويضمه إلى جبهته هو ، ولذلك كان أيضاً يتحالف مع ميناس وكلاهما ضد

١ - النقيوسي .

٢ - النقيوسي .

٣ - النقيوسي .

دمنديانوس . وكل هذه الخلافات هي مجرد صدى لما يحدث في مركز الإمبراطورية هناك ، وكلها تدور حول سؤال من يتولى الحكم بعد هرقل ؟ وبيدو أن جبهة دمنديانوس كانت تخوض غمار مقاومة الجيش العربي ، أما جبهة تيودور فكان التحال يضرب فيها إلى الجذور ، ولذلك فقد اشترك تيودور مع كيرس في مهام تسليم مدينة الإسكندرية للعرب ، كما حاول أن يَهْدَأ من ثورة الشعب ضد الرومان المستسلمين .

وفي النهاية تولى القائد المهزوم (تيودور) مهمة الإشراف على ترحيل الجيش إلى بلاده بعد تلك الهزيمة غير المشرفة .

٤ - شخصيات عابرة وظلالها الخامرة

تكنم في مخطوطة النقيوسي — على الرغم من قصر الفصل الخاص بأحداث الفتح — شخصيات غير محورية ، لكن وجودها والوصف المقترن بها يضيفي نوعاً من حيوية الحقيقة ، ويغني عن آلاف التعليقات مثل شخصية لوندسيوس حاكم إحدى المدن الذي بعثه تاودسيوس وأنسطاسيوس القائدين اللذين هربا إلى حصن بابلون بعد واقعة قتل يوحنا ورميه في البحر ، ومن هناك (أرسل لوندسيوس الحاكم إلى مدينة أبويط ، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة . لا يعرف شأن الحرب . وعندما وصل وجد جنود مصر وتيودور يقاتلون الإسلام ، وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابلون ليخبر السادة)^١ .

وهكذا يختبئ القادة في الحصن وبيعثون برجل بدين مترهل ، لا شأن له بالحرب ، وحينما يصل متأخراً إلى ميدان المعركة ينظر إلى القتال الدائر نظرة

مراقب خارجي ، يأخذ نصف الجنود إلى الحصن ، (فهل كانوا هاربين ويريدون الاحتماء بالحصن) ، ويترك تيودور في المواجهة مع النصف الآخر ويعود في هدوء.

أسقوطاوس

يذكر النقيوسي أن عمرو بن العاص وجيش المسلمون بعد أن فتحوا مدينة نقيوس ، ساروا إلى أماكن أخرى حولها ونهبوها وقتلوا كل من فيها حتى وصلوا إلى مدينة قضا (فوجدوا أسقوطاوس هذا ومن معه موجودون في ساحة الخمر ، فقبض المسلمون عليهم وقتلوهم)^١ . كما ذكر أنهم كانوا يمتنون بصلة قرابة إلى تيودور الحاكم الروماني .

ميناس الروماني

عُيِّنَ الإمبراطور هرقل ، قبل الاجتياح العربي لمصر ، حاكماً على الوجه البحري ، ويبدو أنه كان حاكماً ظالماً ويفوق غيره في التعسف ضد الشعب المصري ؛ حيث يصفه النقيوسي بأنه : (كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب ، يكره المصريين جداً) ، وما لبث غير زمن قصير في منصبه الروماني حتى استولى العرب على مصر .

واتبع عمرو بن العاص سياسة الإبقاء على بعض الرومان في مناصبهم لضمان استمرار نظام جباية الضرائب وجمع الأموال . واختار عمرو بن العاص

ميناس (القاس القلب بما لا تعرفه الكتب) ليستمر في منصبه ؛ رغم ما عرف عنه ضراوة وشراسة ضد المصريين — وربما كان هذا سبب اختياره .

كما عتِن رجلاً لا يقل عنه شدة ؛ ويدعى (سينودا) .. عينه في بلاد الريف . أما (فيليكانوس) فقد عينه في مدينة أرجاديا التي هي الفيوم .

(وهؤلاء ثلاثهم يحبون الوثنيين) ؛ أي يحبون العرب ، بينما (يكرهون المسيحيين — أي القبط المصريين — ويضطرونهم أن يحملوا العلف للحيوان ، ويضطرونهم لحمل البن والعسل والفاكهة والكرات ، وبأعمال أخرى كثيرة وهذا كله كان مضافاً إلى الطعام)^١ .

ولم يكتف ميناَس الروماني بمقدار الضرائب التي يجبيها لعمر بن العاص وللـعرب — وكانت ثقيلة بما يكفي ، ومقدارها (٣٢٠٥٧) اثنين وثلاثين ألفاً وسبعمائة وخمسين ديناراً ذهباً على المدينة . وكان غليظاً قاس القلب على الناس حتى لم يستطيعوا أن يسدوا المقدار المفروض عليهم ، وكانوا يتنازلون عن أولادهم لقاء تسديد جزء من هذه الضرائب .

وحيثما زادت شكوى الناس منه إلى الحد الذي يهدد بحدوث عصيان ، وتوقف عن تسديد الضرائب كلياً ، عزله عمرو بن العاص ، وعين رومانياً آخر ويدعى (يوحنا الدمياطي) الذي كان يُظهر الشفقة والحزن على الفقراء (وكان يبكي ألماً لما أصابهم) ، إلا أن دموعه لم تمنعه من التعاون مع تيودور الحاكم العسكري من قبل ، وعمرو بن العاص من بعد ، وهما رأس حربتي الجيوش المستنزفة للشعب مرة من قبل الدولة الرومانية ، ومرة من قبل الدولة الإسلامية .

صوت قبطي آخر

بعد حوالي أربعة قرون من أحداث الفتح العربي لمصر، ومن كتابة يوحنا النقيوسي لمخطوطته سابقة الذكر، كتب ساويروس بن المقفع أسقف الأشمونيين كتاب (سير الآباء البطاركة) وهو تجميع لسير آباء الكنيسة المصرية من مارمرقس حتى تاريخ عصره في القرن العاشر الميلادي.

وساويروس صوت رسمي للكنيسة المصرية، وفي حياته السابقة على الرهبنة ودخول سلك البطريركية؛ كان يعيش في الأوساط الرسمية لبلاط الخليفة المسلم. وحياته؛ كما يؤرخها من جاء بعده بدأت في القرن العاشر الميلادي بين سنتي ٩١٠/٩٠٥، وتربى تربية دينية، والتحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية، حتى أصبح كاتباً ماهراً في ديوان الخليفة، مما يدل على أنه كان متضلعا في اللغة العربية، ملماً بأداب عصره وأسرار الكتابة وفنونها، وعُرف في هذا الوقت باسم أبي البشر بن المقفع الكاتب، وعرف أبوه باسم المقفع؛ أي المنكس الرأس أبداً، أو «من كانت يده متشنجة»، فعرف هو باسم ابن المقفع، ولقب أبي البشر الذي حمّله لم يكن يعني أن أباه سماه بشراً، وإنما يدل على أنه كان شخصاً محترماً ذا مكانة عالية؛ إذ لم يُكنَ (أهل مصر المسيحيين بأبي فلان إلا إذا كانوا ذوي قدر وعلو شأن).

ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة في البرية.. (ولما كان ذا علم وفضل ذاع صيته بين المسيحيين فاختره أراخنة الشعب — أي قادته — والبطريرك «كليسام» أسقفاً على مدينة الأشمونيين. وكانت يومئذ مدينة عظيمة لها شهرة في التاريخ المصري وهي الآن قرية بمركز ملوي — مديرية أسيوط. فغير اسمه وعرف بأنبا

ساويروس^١). وكان ساويروس محباً للكتابة. له مؤلفات عديدة يجادل فيها أصحاب المذاهب والأديان الأخرى لإثبات صحة العقيدة القبطية.

وقد جمع ما توافر في الأديرة من سير الآباء المصريين ، أو كما يقول هو في مقدمة كتابه: (استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم)^٢. فجمع تلك السير من الدور المختلفة ، وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد ، فجاء كتابه في أربعة أجزاء ، يعيننا منها الآن الجزء الأول الممتد من مارمرقس وحتى البابا يوساب ؛ الأب رقم ٥٢ للكنيسة.

وحينما يكتب ساويروس عن تلك الفترة ؛ فإنه ينظر إلى أحداث القرن الأول الهجري / السابع الميلادي من مسافة بعيدة نسبياً ، فيرى الصورة الإجمالية لتلك السنوات ، وقد سقطت منها تفاصيل الأحداث وبعض صور المذابح ورائحة المحارق ، ووقع سياط السخرة أثناء حفر خليج تراجان ، أو قناة أمير المؤمنين كما سميت بعد ذلك ، وتلاشت صور جمع العبيد وشحنهم إلى مكة والمدينة ، وبقيت لديه صورة عامة مختصرة تتلخص في سطرين :

(بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور مضوا إلى عمرو وأخذوا أماناً على المدينة لئلا تنهب)^٣.

١- التراث العربي المسيحي (١) ، كتاب مصباح العقل تقديم وتحقيق الأب سمي خليل القاهرة

١٩٧٨م ، ساويرس بن المقفع حياته (آباء الكنيسة) رسالة الكنيسة (٢١٩٧٠م).

٢- ساويروس بن المقفع : تاريخ الآباء البطركه ، الجزء الأول ص ٩.

٣- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ص ١٠٦.

ويبدأ ساويروس في الإفاضة ؛ حينما يصل إلى نقطة إدراك عمرو لأهمية رجال الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الكليروس ، وندائه الموجه إلى البابا بعودته إلى بيعه آمناً أينما كان.

وبعد عودة البابا بنيامين أكرمه وقال لأصحابه وخواصه أن جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا — وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً جيد الكلام بسكون ووقار — ثم التفت عمرو إليه وقال له : (جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم وإذا أنت صليت علىّ حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر وأعود إليك سالماً بسرعة فعلت لك كل ما تطلبه مني ، فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلاماً حسناً أعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وريح كثير لمن يسمعه وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرماً مبجلاً وكلما قال له الأب الطوباني للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحاً لم يسقط منه حرف واحد)^١.

وكان ذلك بداية التعاون المزدوج بين الكنيسة التي أوحى بطريركها إلى القائد العربي بأشياء ، وعمرو الذي طلب منه أن يصلي « من أجله حتى يفتح المدن الخمس ويعود ، تلك المدن التي استخدمت فيها المراكب المصرية ، وسخر للعمل فيها البحارة الأقباط ، وقد أتى هذا التعاون المرحلي بينهما على أرضية إحراق عمرو بن العاص لبيع الأقباط وكنائسهم بعد دخوله الإسكندرية ، ومنها حرق كنيسة مارمرقس التي سيسمح لهم بإعادة بنائها بعد ذلك نظير تعاونهم معه » .

وساويروس يسند إلى شخص « الدياقون بطرس » الذي أشار إليه النقيوسي في مخطوطته ، وأشار إلى أنه لعب دور المتعاون مع العرب ، الذي قدم لهم

١- ساويروس : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

المراكب وكل ما يحتاجونه لإتمام عملية الفتح والانطلاق غرباً ، لقاء مساهمته في عودة البابا بنيامين إلى منصبه الرسمي.

وفي الوقت نفسه الذي كان البابا يصلي فيه لأجل عمرو ويوحى إليه بأشياء ؛ كان عمرو يسوق المصريين لتجهيز مراكب غزو شمال إفريقيا... واهتمام ساويروس بن المقفع لا ينصب على ذكر المواقع الحربية بقدر اهتمامه بتسجيل كل ما يخص الكنيسة القبطية ورجالها ، الأمر الذي أدركه عمرو بن العاص بدهائه السياسي ؛ حينما استشعر أهمية تحييد الكنيسة القبطية ، ومنحها بعض الامتيازات الخاصة لأنها الجهة الرسمية الطافية على سطح الشعب القبطي فبدأت تحت تلك المظلة :

(عمارة ديارات وادي هبيب والمنى وكانت أعمال الأرثوذكسين الصالحة تنمو وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على لبنان أمهاتهم. فلما عاد عمرو إلى مصر خرج منها إلى معونة كبيرهم — يقصد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة — وأنفذ إلى مصر عَوْضَهُ رجلٌ يسمى عبد الله بن سعد)^١.

لكن عبد الله بن سعد بن أبي السرح يختلف عن عمرو في أنه لم يُراع الاستثناءات السياسية ، ولم يرفق بأحد حتى ولو بهدف تسكين جانب على حساب جانب ، فاشتد مع الكنيسة واشتد مع الشعب القبطي ، واشتد حتى مع جنوده العرب من ذوي الأصول اليمنية.

ولم يكن مهتماً سوى بجمع الأموال وشحنها إلى الخليفة وزاد خراج مصر في عهده زيادة كبيرة ، ويعلق ساويروس على هذا الوضع بقوله :

١- ساويروس بن المقفع : تاريخ الأباء البطركه ، الجزء الأول

(وصل - يقصد عبد الله بن سعد - ومعه خلق كثيرون وكان محباً للمال ، فجمع له بمصر أمراً وهو أول من بنى الديوان بمصر ، وأن يستخرج فيه جميع خراج الكورة وحدث في أيامه غلاء عظيم لم يحدث مثله من زمان أقلوديس الملك الكافر وإلى أيامه وانحدر كل من في الصعيد إلى الريف في طلب الغلة وكان الموتى مطروحين في الشوارع والأسواق مثل السمك الذي يرميه الماء على البر لا يجدون من يدفنههم وأكلوا بعضهم بعضاً ولو لم يترأف الرب بكثرة رحمته وصلاة أبينا بنيامين القديس ويزل ذلك الغلاء بسرعة كان قد فني كل من في كورة مصر لأنه كان يموت كل يوم من الناس ربوات لا يحصين)^١. ولم يدم الحال لابن أبي السرح الذي كان له خمس الخمس من الغنائم ، بخلاف ما جمعه من أموال مصر ، وكانت أحداث الفتنة الكبرى ثم عودة عمرو بن العاص مرة أخرى إلى ولاية مصر ، وعادت معه علاقة مراعاة الكنيسة المصرية ورجالها.

وبعد وفاة عمرو بن العاص وتولي مسلمة بن مخلد في مدة ولايته الطويلة التي استمرت خمس عشرة سنة وأربعة أشهر من (٥٤٧ إلى ٥٦٢هـ).

يحكي ساويروس واقعة حدثت في زمنه ، وملخصها أنه (جمع سبعة أساقفة وأنفذهم إلى سخا بسبب قوم على أنهم كانوا يحرقون بالنار من القوم المستخدمين ليكشفوا عن جريرتهم ، فوصلوا واجتمعوا بإنسان أرخن بسخا اسمه إسحق وسددوا مالهم وأعفوا من الحريق)^٢.

ولو حاولنا فك طلاسم حكاية ساويروس فسنجد أن مسلمة بن مخلد قد استعان برجال الكنيسة المصرية لحل الأزمة المتصاعدة في سخا - وهي إحدى المدن التي أمر عمرو بن العاص بحرقها أثناء الفتح بسبب مقاومتها - ويبدو أن

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق.

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٢١ في عهد البابا أغاثون.

السلطات العربية التي استمرت في سخا كانت تستخدم أسلوب إحراق المتمردين ، أو الرافضين لدفع الضرائب ؛ حتى لا تتصاعد المقاومة في منطقة لها مثل هذا التاريخ ، وجملة (سندوا مالمهم وأعفوا من الحريق) التي يذكرها ساويروس تؤكد أن هؤلاء القبط لم يدفعوا ضرائبهم أو حملهم لسبب أو لآخر ، ومن ثم حكم عليهم القائمون بالأمر بالحرق... وأن المنطقة كانت على شفا الثورة نتيجة لهذه الأحكام القاسية.

لكن رجال الكنيسة الموفدين من عند والي استطاعوا بعد اجتماعهم بالأرخب المحلي إقناعه بتسديد الضرائب بدلاً من هؤلاء البائسين وتهنئة الموقف... وبعد نجاح مهمتهم عادوا إلى مسلمة بن مخلد ينبئونه بنجاح مهمتهم في تسكين ثورة الشعب القبطي ، فكافأهم بالموافقة على بناء الكنيسة. وربما هذا الموقف في سخا بعض الوقت ، ولكن ليس إلى الأبد... فسوف تتجدد الاضطرابات مرة أخرى زمن « قرّة بن شريك » ، عام ٩٠ هـ ، وكان قرّة محباً لجمع المال (نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يرفع فيهن الدم الزكي)^١ مما اضطر الكنيسة إلى استخدام كاسات من الزجاج بدلاً من كاسات الذهب والفضة التي نهبها ، كما كان يستولي على أموال رجال الكنيسة القبطية بعد وفاتهم ، مما يعد كسراً لقانون الكنيسة المعمول به منذ زمان طويل ، والقاضي بأن الكنيسة هي وارثة رجالها. (كما زاد مقدار الضرائب المفروضة على الناس ، وكان القبط يفرون من القرى بنسائهم وأولادهم من قسوة رجال قرّة ، وولى قرّة رجلاً من مدينة سخا يبدوا أنه كان مشهوراً بالشدة لأنه كلفه بجمع القبط الهاربين من قراهم)^٢.

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٥.

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٥.

ولم ينقذ مصر من هذا الظلم الفادح سوى وفاة قرّة بن شريك بعد أن قتل الوباء نساءه وغلماؤه ، ثم أصابه هو الآخر وأودى بحياته.

وشدة هجوم « ساويروس بن المقفع » على « قرّة بن شريك » لا تتبع من قسوة هذا الوالي على الشعب فقط ، وإنما تعود إلى قسوته على رجال الكنيسة واستيلائه على أموالهم ، كما رأينا في الفقرة السابقة. ذلك أن ولاية مصر التالين لم يتحوا بنفس النكاء السياسي الذي تحلى به عمرو بن العاص ومسلمة بن مخد اللذين أعطيا الكنيسة بعض المميزات بعد أن أدركا طبيعة العلاقة بين الكنيسة والشعب من جهة ، والكنيسة والسلطة الحاكمة من الجهة الأخرى.

أما هؤلاء الذين كان يبلغ بهم العسف حد البطش ؛ فكانت التمردات تتسع في عصورهم ، وسنلاحظ تصاعد ثورة القبط على الولاية العرب ترداد منذ ١٠٧هـ ، وتتصاعد في سلسلة من التمرد والقمع يسجلها ساويروس بقوله :

(من بعد موت قرّة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر والياً اسمه أسامة فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يسمع بمثله من الجيل الأول ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت ، ثم أن رخاء عظيماً أقبل حتى انتهى القمح إلى خمسة وعشرين أردباً بدينار وبعد قليل وافى أيضاً وباء فأفنى العالم ولو لم يرحم الرب من بقي منهم على الأرض لم يبق منهم أحد ، وكان الأمير مقيماً على فعله السوء وكل المسلمين والنصارى خائفون منه ثم تقدم ألا يأوي أحد غريباً في البيع ولا الفنادق ولا في السواحل وكانوا خائفين منه وطردوا من كان عندهم من الغرباء وتقدم إلى الرهبان أن لا يرهبوا من يأتي إليهم ، ثم أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام وكان

في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان وضيق على المؤمنين وإذا ظهروا بهارب أو غير موسم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج ولم يكن يحصي عدد من شوّه به على هذه القضية وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة وكان يقتل جماعة تحت العقوبة بالسياط وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكاتبهم ويقول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحداً ، وأي موضع نزلتموه فانهبوه كانوا يخربون المواضع ويقلعون العمد والأخشاب ، ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار والنبيذ أربعين مطراً بدينار والزيت مائة قسط بدينار وكل من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب ، ومن الضيق والضنك هم الناس ببيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد^١.

وتشدد الوالي في عمل سجل لكل إنسان يكتب فيه اسمه وموطنه وعمله ، ومقدار الضريبة المفروضة عليهم ، ثم لا يسمح لأي إنسان بالتحرك من موضع إلى آخر إلا بعد إظهار سجله ، وفعل نفس الشيء مع المراكب ومن لا يدفع (تتهب المراكب وما فيها وتضرب بالنار)^٢.

وقبض في زمنه على عدد كبير من الروم وأدار فيهم القتل وتقطيع الأطراف مما كان له أسوأ الأثر على حركة التجارة الداخلية والخارجية (فانقطع الطريق ولم يبق من يسافر ولا يبيع ولا يشتري وثمرات الكروم تتلف ولم يبق من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السجل بالإفراج عنهم)^٣.

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٦.

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٧.

٣- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٨.

ووسط هذه المسلخة العامة التي لم ترحم قبطياً سواء أكان تابعاً للكنيسة أم غير تابع ، من رجالها الرسميين أم من عامة الشعب ، يحكي ساويروس قصة أرملة قبطية أخرجت بعد وفاة زوجها سجلاً لها ولولدها اليتيم حتى يتمكن من العمل فتعيش من أجر عمله ، وفي رحلة البحث خرجت به من الإسكندرية إلى مدينة صغيرة تسمى أغراوة وهناك (خرج الصبي إلى البحر يشرب ماء فخطفه التمساح والسجل مربوط معه وأمه تبكي وتحترق عليه فرجعت إلى الإسكندرية فأعلمت الأمير الغير مؤمن ما جرى عليها فلم يترأف عليها بل اعتقلها حتى وزنت عشرة دنانير بسبب السجل وأنها دخلت المدينة بغير سجل وباعت ثيابها وكل مالها وطاقات تتصدق حتى أوفت العشرة دنانير)^١.

أما الرهبان الذين وجدهم بغير خلق في أيديهم (فمنهم من ضربت رقبتة ومنهم من مات تحت السياط) وأغلق البيعة طالباً ألف دينار غرامة مع غرامة دينار عن كل راهب. وهددهم إن لم يدفعوا هدم البيع وخزئها وسرّح الرهبان للعمل في مراكب الأسطول مما أقلق شيوخ الرهبان ، فصاروا يجتمعون بأعداد كبيرة للصلاة والتضرع.

وظل الوضع على مأساويته السابقة حتى عُزل هذا الوالي بأمر الخليفة الجديد « عمر بن العزيز » وقبض الوالي الجديد على « أسامة البائس » وقيد رجله بربطهما في « طوبة حديد » ووضع يديه في خشبة ورماه في سجن مظلم بالإسكندرية ، وما كاد الناس يفرحون بتلك الإجراءات حتى بدأت الإجراءات الصارمة للخليفة الذي أمر بعزل جميع الأقباط من دوائر العمل بالدواوين ، كما أمر بأن تفرض جزية من اسلم على بقية الأقباط الذين لم يسلموا ، وبذلك تزداد نسبة أعباء الضرائب على الأقباط بينما يحاول الخليفة أن يبدو متسامحاً.

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٨.

وهذا السلوك المزدوج من الخليفة « عمر بن عبد العزيز » جعل « ساويروس » يشبهه بالذجال ويفرح بسرعة هلاكه ، وكانت الإجراءات ذات الطابع المضطهد للأقباط في تزايد مستمر .

وجاءت أول قرارات الخليفة التالي لعمر بن عبد العزيز أشد جهامة أيضاً ، حيث أمر بعودة الضرائب على الكنائس والبيع وأمر (بكسر كل الصليبان وكشط الصور التي في البيع)^١ .

ثم جاء الخليفة هشام بن عبد الملك فأظهر تسامحه مع الكنيسة ، لكنه سرعان ما عتِن والياً شديد القسوة يذكر ساويروس بن المقفع أن اسمه عبيد الله ، وأنه (أحصى الناس والبهائم وأحصى الأراضي حتى البور منها ، وختم بختم الرصاص في حلق كل الناس ، وجعل علامة الأسد على أيدي النصارى ، ومن ليس على يده علامة (تقطع يده ويخسر خسارة عظيمة) كما ضاعف الخراج على الناس حتى هلكوا .

وقبض على بطرك النصارى حتى يختهه هو الآخر ، ويذكر ساويروس أن البطريرك ظل يصلي في محبسه ثلاثة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي من اسمه ، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه ، بينما تمكن رجال الوالي من راهب آخر كان بصحبة البطريرك (فنزعوا عنه ثوبه وألبسوه مسخ شعر وعلقوه بذراعيه وهو عريان وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه بسياط من جلد حتى جرى دمه على الأرض)^٢ .

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٤٩ (زمن البابا الاكسندروس الثاني البابا الثالث والأربعين للكنيسة المصرية).

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٥١.

ويسترسل ساويروس في ذكر المصائب التي حلت بأقباط مصر على أيدي هؤلاء الولاة بما يفوق تعذيب الرومان للرهبان في فترة الشدة العظمى ، وفرضهم الضرائب على رهبان ورجال الكنيسة مما لم يكن مسبوقاً أبداً في العهود السابقة. وقد تمكن الوالي عبد الملك بن مروان (١٣٢هـ) من القبض على الأنبا ميخائيل بطرك الكنيسة المصرية وعدداً من الأساقفة ، وسجنهم (في خزانة مظلمة لا تنظر منها الشمس وليس فيها طاق لأنها كانت نقرت في حجر ، وكان أبونا البطريرك تحت ضيق عظيم من التكبير بالحديد من الحادي عشر من توت إلى الثاني عشر من بابه ، لم ينظر في هذه المدة شمساً وكان في الاعتقال معه ثلثمائة رجل ونساء أيضاً معتقلات في ضيق أكثر من الرجال والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار ويغلق المتولي للسجن علينا ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار)¹.

وظل الأنبا ميخائيل ورجاله محبوسين في تلك المغارة الجبلية الموحشة مع ما يقرب من ثلاثمائة بائس وبائسة حوالي سبعة عشر يوماً حتى أمر الوالي بإحضارهم وطالب البطريرك بسداد الضرائب قائلاً له :

(بيعك كلها بغير خراج وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها وضيق عليه ، فقال له : إذا كان هكذا أين لي أن أمضي إلى الصعيد مهما دفعوا لي النصراني وساعدوني به أحضرته لك ، فأطلقه وخرجنا من عنده وشرنا إلى الصعيد)². وهكذا أطلق الوالي بطرك الكنيسة المصرية ليشحذ له من شعبه وجمع البطريرك من شعبه الفقير ما استطاع جمعه ، وعاد إلى الوالي الذي أخذ ما تصدق به النصراني على البطريرك ثم أطلقه.

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٧٧.

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١٧٨.

ثم تتالت أحداث سقوط الدولة الأموية سريعة مدوية ، بكل ما صاحبها من انهيار وتخطيط وشره إلى النهب السريع ، وأمام زحف العباسيين من الشرق هرب الخليفة مروان بن محمد إلى مصر ، بعد أن أشعل النار في جميع المدن والقرى التي تركها خلفه.

ووصل إلى مصر أثناء ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بقرية وثورة أهل شبرا سنبوط ، وفشلت حملات والي العسكرية في تمكين للثورة واخضاعهم عدة مرات ، ففكر والي في استخدام الأنبا ميخائيل لتسكين للشعب القبطي الناصر — الأمر الذي سيتكرر بعد ذلك في ثورة البشموريين الثانية تحت مظلة الخلافة العباسية وفي عهد الخليفة المأمون الذي اضطر إلى أن يأتي مصر بنفسه ليقود حملة القضاء على البشموريين ، بعد أن فشلت جهود واليه في القضاء عليهم ، وسوف يستخدم المأمون رجال الكنيسة في تهدئة الثورة. هذا وقد قبلت الكنيسة — غير مرة — القيام بدور الوسيط لتهنئة روح الثورة للعارمة ، وكتب الأنبا يوساب لشعب البشموريين يعظهم : (قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله ، والذي يقاومه يدان)^١ ، فيعلن بذلك أن معصية الحاكم من معصية الله مطالباً شعبه بالخضوع للخليفة المسلم.

أما في حالة مروان بن محمد — آخر خلفاء بني أمية — فقد جاء مصر ووجدتها في حالة اضطراب وفوضى من جراء سياسته ومياسة واليه ؛ (فالسجون كانت غاصة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل يونس السمنودي) ، وقد رأى البشموريين (أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية ليستطيعوا أن يَفْتُوا عَضُدَ والي. وكان رئيس البشموريين واحداً منهم مينا بن بقرية. فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون للفرع بين الجند المرابطين في

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ (زمن الأنبا يوساب البطريرك ٥٢ للكنيسة)

حدود مديريتهم. ثم يختبئون في النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التي تكتنف أراضيهم والتي لا يعرف مخاضاتها غيرهم^١.

وقد رأى مروان مفاوضة البشموريين بإزاء حرج موقفه من القوات الموالية لأبي العباس ؛ لكنهم رفضوا المفاوضة وأصرروا على القتال.

وزاد الموقف اشتعالاً عصياناً والى الإسكندرية ، وإعلانه الاستقلال بحكم المدينة ، (فضاق مروان ذراعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب ، ولم يجد بداً من إرسال « حوثة » أكثر قواده بطشاً لقمع الثورة في الإسكندرية فقهر « حوثة » الجيش السكندري وفتك بالأهالي فتكاً ذريعاً. وفي ثورة غضبه ألقى القبض على الأنبا ميخائيل الأول وزعماء القبط)^٢.

وبعد وضعهم في السجن طلب « حوثة » من البابا التدخل لتهنئة ثورة البشموريين (ففك قيوده واقتاده إلى رشيد ومن هناك استكتب البابا السكندري خطاباً إلى البشموريين) وأخبرهم فيه بكل ما أصابه من آلام وحمل الثائرين وزر عذابه ولاهمهم على تماديهم في العدوان. وحينما قرأ الثوار خطاب البابا اشتد غضبهم وضاعفوا هجماتهم على جنود الوالي.

وفي الوقت نفسه الذي كانت الأزمة تشتد فيه حول الخليفة الأموي وتحاصره من كل جانب ، دفعه اليأس والرغبة في الانتقام إلى حرق مدينة الفسطاط ، ويصف ساويروس مشهد فرع الناس وهربهم قبل الحريق بقوله:

(وما إن أخذ عازف البوق يعلن أهالي الفسطاط بوجوب إخلاء المدينة ، حتى تملكهم الفرع . فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجيزة والجزيرة . وكانوا يتزاحموا على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعوا بغير وعى ،

١- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق.

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٩١.

ففرق العدد العبد منهم ، كذلك تناس الناس في رعبهم المرضى والمقعدين المكوفين فتركوهم لمصيرهم . وحين تفقد مروان القسطنطين بعد الأيام الثلاثة التي حدها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليه بل أمر بإشعال النار في المدينة وهم فيها . فراحوا جميعاً ضحية اللهيب المتقد ، ونظرنا النار صاعدة في القسطنطين وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتين ومخازن الشعير^١؛ تلك المحاصيل التي جمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف ، يشعل فيها ابن محمد النيران الآن حتى لا تقع في أيدي أعدائه من الممونة - يقصد العباسيين ذو الرداء الأسود - القادمين لحكم مصر تحت مظلة الدولة العباسية .

وأكلت النار مدينة القسطنطين التي بناها العرب عام ٨٢٠ ، وأحرقها العرب أيضاً عام ٨٣٢ هـ .

وكان أسلوب الحرق والتدمير هو الأسلوب الشائع في تأديب الأقباط المصريين، ولنا أن نقيس على ما يذكره المؤرخون عن مدينة طحا في الصعيد ، التي كان يسكنها (في صدر الإسلام خمس عشرة ألف نفس وكلهم من المسيحيين، وبها ست وثلاثون كنيسة أغلبها تهدم في العهد الأموي ، وخاصة في خلافة مروان ، لرفض أهلها دفع الخراج فطردهم عامله ولم يعد منها إلا كنيسة مارمينا)^٢.

وإذا كان نصيب مدينة واحدة : تدمير خمسة وثلاثين كنيسة ، وتشتيت أهلها ؛ بخلاف تدمير البيوت وأراضي الممتنعين عن دفع الخراج ، فكيف كان نصيب المدن الأخرى المتمسكة بראية المقاومة زمناً طويلاً.

١- ساويرس بن المقفع : المصدر السابق ، ص ١٩١.

٢- د. زبيدة عطا : إقليم المنيا في العصر البيزنطي ، نقلاً عن أبو صالح الأرمني - أديرة وكنائس مصر .

الوقائع المشتركة بين مؤرخي القبط والمؤرخين العرب

إزاء وقائع النقيوسي و ساويروس بن المقفع الصارخة ، وتفاصيلهما الحادة عن الفتح العربي لمصر ، يتجاهلها الكثير من الباحثين وينحيانها جانباً بدعوى أنهما قبطيان متحاملان على العرب ، وبالتالي لا يصح الأخذ بشهادتهما.... فضلاً لقرون طويلة يسكنان وادي الصمت المطبق — مع كل الأصوات المنفية — جزاء لهما على مخالفتها للنشيد العام... حتى جاء بعض الباحثين المحدثين — واستدعوهما — واستشهدوا بهما ولكن بعد تقطيعهما وتقديمهما على طبق الموضوعية المُعد بإحكام وقوة بما يوافق ذات السياق الثابت لصيغة التسامح المطلق غير القابل للشك.

وأمام هذا الإصرار العام على تجاهل ، أو تقطيع الصوت القبطي ، والتعامل معه كما لو كان مجرد كورس موقعه في الخلفية فقط ، حيث وضعه الفتح العربي — سنخضع — نحن أيضاً — لذات قوانين السيادة وننحي الصوت القبطي جانباً ، ونعود إلى التعامل مع البطل (التاريخ العربي) مرة أخرى... سنتركه يسترسل في نكر بطولاته عن قهر الجيران والاستيلاء على ممالكهم... ولكن ما بال تلك المقاطع الصغيرة القلقة تقطع السياق العام ، وتشير إلى نفس وقائع النقيوسي وسويروس...؟!

ما بال الطبري والبلاذري والسيوطي والمقريزي يذكرون — أحياناً — ما يتفق مع الصوتين القبطيين...؟

صحيح إنها إشارات عارضة... ولكن اختلاف المواقع هو الذي يؤدي إلى تحديد الرئيسي منها والثانوي — لدى كل من الطرفين...، ونحن لا نستطيع

الحديث عن التسامح العربي بضمير هادئ والطبري يُذكرنا بأن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعداداً كبيرة من المصريين ، أو أن صفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة ، فينقل عن رجل من أهل مصر — أو بمعنى أصح من عربي سكن أرض مصر ، وكان في جند عمرو بن العاص أثناء الفتح ، أنه قال لما افتتحنا « باب اليون » تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية ، حتى انتهينا إلى بلهيب — وهي منية الزناطرة بالبحيرة ، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية — قرية من قرى مصر — يقال لها قرية الريش وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن)^١.

وتنقل لنا هذه الرواية صورة الصفوف الطويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قرأهم وبعث بهم في ثلة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربية بعد فقدان حريتهم.

والبلاذري أيضاً في كتاب فتوح البلدان يذكر ذات الواقعة بقوله :
(وكانت قرى من مصر قاتلت فسبى منها والقرى بلهيت والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم بالمدينة)^٢.

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العرب : نهبوا كثيراً من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم ، ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن الحكم إلى السبي المصري الموفد إلى المدينة في ظل القهر العربي...؟

وإشارة البلاذري وابن عبد الحكم إلى أن عمر بن الخطاب ردَّ هؤلاء المصريين حينما (صيرهم وجماعة القبط أهل نمة) ، أو أنه طلب إيقاف وفود

١- الطبري : تاريخ الطبري ، الجزء الرابع. ص ١٠٥.

٢- البلاذري : فتوح البلدان : القسم الأول ، ص ٢٥٣.

السبي الجديد ؛ بينما تغاضى عن تفرق في أيدي العرب لأنه لا يستطيع لهم رداً، هل كانت هذه الإشارات تعني تسامح ابن الخطاب مع القبط ودفاعه عن حريتهم...؟ أم كانت تعني أنه كان ينظر بعين الحاكم العملي الذي يريد ترسيخ نوع آخر من العبودية الجماعية ؛ هي عبودية العمل وآداء الجزية ومختلف أنواع الضرائب التي تعود على بيت المال بفائدة أكبر ، وهو نفسه القائل : (لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فيء يقسم ثم كأنه لم يكن)^١.

إشارة أخرى نجدها لدى ابن عبد الحكم تتفق وإشارات النقيوسي إلى طبيعة الحرب في موقعة « نقيوس » التي اجتاحتها عمرو بن العاص ؛ وإن كان يختلف معه في توقيت المعركة حيث يذكرها ابن عبد الحكم مع الفتح الثاني لمدينة الإسكندرية ، ويرجع ابن عبد الحكم أسباب الاجتياح القاسي للمدينة : (أن عمراً لما توجه إلى نقيوس لقتال الروم عدل (وردان) - أحد موالي عمرو - لقضاء حاجته عند الصبح فاخطفه أهل الخربة فغيبوه ففقد عمرو وسأل عنه وفقاً أثره فوجده في بعض دورهم فأمر بإخراجه وإخراجهم منها)^٢.

ويستطرد ابن عبد الحكم في الرواية واصفاً أهل الخربة : كانوا رهباناً كلهم... ومع ذلك فقد قتلهم عمرو جميعاً وخرب المدينة خراباً لم تشهد مثله من قبل حتى سميت بعد ذلك بالخربة.

والخلاف الناشب بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص حول وضع الأقباط ؛ خصوصاً حينما سمح ابن العاص لهم بالبقاء في وظائف جباية الخراج وحساب الضرائب إلى غيرها من الأوضاع التي لم توافق سياسة الخليفة فكتب إلى وإليه يلومه قائلاً : (كيف تعزهم وقد أذلهم الله؟).

١- الطبري : المصدر السابق ، ص ١٠٥.

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها.

وكان عمر يريد استمرار عمل القبط في مصر في الزراعة والحرف ، و « يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون » مما يعود بالخير العميم على بيت مال المسلمين ، دون أن يتقنوا أية وظائف إدارية.

والطبري يشير إلى معاناة المصريين أثناء حفر قناة أمير المؤمنين في عمل من أكبر أعمال السخرة الجماعية ، وخوف عمرو بن العاص نفسه من هذا الوضع لأن تسخير آلاف المصريين في أعمال الحفر يسبب (انكسار خراج مصر وخرابها) ، ولكن حسم ابن الخطاب دفع إلى استمرار العمل في ظل تلك الظروف القاسية حيث كتب إليه يقول : (اعمل فيه وعجل ، أخرج الله مصر في عمران المدينة وصلحها)^١.

ويؤكد « السيوطي » في كتاب « حسن المحاضرة » واقعة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات وإقامة الجسور ، بالإشارة إلى أن عمرو (ألف قوة من المصريين عددها مائة وعشرين ألف عاملٍ مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر)^٢.

وانتزع مائة وعشرين ألف قبضي من الأرض لتسخيرهم في تلك الأعمال القاسية تحت وقع سنايك خيول الفرسان العرب ورماحهم ، هو ذات ما أشار إليه النقيوسي بقوله : (كان — عمرو — يُسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم ، واركتب أثاماً كثيرة لا تحصى)^٣.

وقوله : (يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان ، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات ، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافاً إلى

١- الطبري ، الجزء الرابع ، ص ١٠٠.

٢- السيوطي : حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ٦٣.

٣- النقيوسي.

الطعام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفاً دون توقف ، ونهر أندريانس الذي انطمر منذ زمن طويل — هو نفسه قناة أمير المؤمنين — جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابلون بمصر حتى البحر الأحمر وحملوا المصريين نيراً أثقل من نير فرعون^١.

وموقع النقيوسي كقبطي يتحدث عما أصاب شعبه ينفعه إلى إصدار أحكام أخلاقية ، وإظهار سخطه على العرب وقائدهم ، كما في قوله : « ارتكب آثاماً كثيرة لا تحصى » ، أو حملوا المصريين قيلاً أثقل من قيد فرعون.

ومن شدة وطأة الضرائب على الفلاحين الأقباط كانوا يهجرون القرى ويلتحق بعضهم بالأديرة المعفاة من الضرائب في سني الفتح الأولى... حتى لاحظ الولاة النهمين إلى جمع المزيد من المال ذلك ، فلجأوا إلى فرض الجزية على الرهبان ورجال الكنيسة والاشتداد في ذلك ، فانفجرت ثورة القبط الكبرى عام سبع ومائة ؛ أثناء ولاية « الحرّ بن يوسف » ، تلك الفترة التي يكتب عنها ساويروس بن المقفع بالتفصيل ، ويذكر أن الوالي أوقع بثوار الحوف الشرقي وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب وديره وتاريخه ، وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصاري وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنائير. ويفيض ساويروس في ذكر تلك المسلخة العامة ؛ من قطع الأطراف وضرب الأعناق ، وهزم الكنائس وكسر الصلبان.

ويرصد المقرئ في كتابه « المواعظ والاعتبار بوصف الخطط والآثار » سلسلة ثورات القبط منذ عام ١٠٧ هـ . والمقرئ هو أكثر المؤرخين العرب اهتماماً بوصف بعض القبط وطريقة حياتهم وتاريخهم وكنائسهم ، وذكر ثوراتهم.

١- النقيوسي : مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي ، ص ١٩٩.

ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى اطلاع المقريري على مخطوطة ساويروس بن المقفع وتأثره ببعض ما جاء فيها.

وقد أفرد المقريري في كتابه باباً لكنائس مصر ودورها ، وباباً آخر تحت عنوان (ذكر انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك). فيذكر أمر زيادة الضرائب على القبط بما لا يستطيعون احتماله ، وثوراتهم ضد بعض الولاة ، وإسراع الولاة والخلفاء في قمع هذه الثورات بكل وسائل العنف الممكنة.. فيذكر أنه لما (قدم حنظلة بن صفوان أميراً على مصر في ولايته الثانية ، فتشدد على النصارى وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصرانيّ وسمّاً صورة أسد وتتبعهم فمن وجدته بغير وسم قطع يده... ثم في سنة إحدى وعشرين ومائة انتفض القبط بالصعيد وحاربوا العمال فحاربوا وقتل كثير منهم ثم خرج يحنس بسمنود وحارب وقتل في الحرب وقتل معه قبط كثير)^١.

ولقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدولة الأموية ، وكلما تقدم الزمن كانت تفاصيل الاضطهاد والتعذيب تتضح — أكثر فأكثر — لدى المقريري الذي فطن إلى أن الحكام العرب كانوا يتمادون في فرض الضرائب ، ليس على الشعب القبطي فقط ، كما كان يفعل بعض الأوائل من دهاة السياسيين ؛ بل كانوا يفرضون على الكنيسة ورجالها ورهبانها إتاوات متزايدة ؛ بل يقبضون عليهم ويعذبونهم ، كما حدث زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حينما قبض على بطريرك الإسكندرية ووضع رجليه في الحديد (وننف شعر لحيته) مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة السابقة.

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين ، ولم يعد التقسيم الأول بين كونهم أهل نمة يدفعون الجزية

١- المقريري : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٢.

والخراج ، ويعيشون في أماكنهم بعيداً عن العرب حامياً لهم؛ بل تعرضوا لضيق حلقة العزلة من حولهم رويداً... رويداً ، وأخذ ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر... ودفع هذا الحصار الكنائس والرهبان إلى المزيد من الجمود والانغلاق والدخول في ظلامية القرون الوسطى.... ويروى أنه بمجرد إعلان « حفص بن الوليد » (١٢٧ - ١٢٨هـ) إعفاء كل من يسلم من الجزية ، بادر حوالي أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط واعتنقوا الإسلام تخلصاً من قيود الجزية وشتى أنواع الضرائب والاضطهادات الأخرى.

الفصل الثالث

معارك في كل مكان

بجوار القاعدة للشعب القاطن أرض مصر لحظة الفتح العربي ، كانت هناك جماعات من الروم والحيش واليهود والفرس ، بخلاف العرب القادمين على صهوات الجياد ليقيموا فيها إلى الأبد .

وكان لكل جماعة مكان محدّد تعيش فيه ، و لا يحق لها النزوح منه إلى مكان الآخر إلا بتصريح رسمي ، كما كان لكل منهم لغته وزيه وسحنته العامة الدالة على مكانته الاجتماعية من النظرة الأولى ... ولذلك يمكن الحديث عن جزر منعزلة وسط المحيط القبطي الواسع في تلك الحين ... وقد فرق المقريري في (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) بين أنواع الناس القاطنين أرض مصر بقوله :

(اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم ، أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانهم بأجمعهم ديانة المَلَكِيَّة ، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومي ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال القبط ، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره ، وكلهم يَعاقِبَة فمنهم : كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسس ونحوهم ، ومنهم أهل الزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة . وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكتهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جداً فإنهم في الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها) .

والمقريري يمدُّ خطأً فاصلاً أفقياً بين الرومان كحاكمين وبين بقية الأجناس المختلطة الذين ينضمون جميعاً تحت راية القبط ، فالقبطية في هذا السياق تعنى

الجنسية المصرية ، أو الشعب الواقع تحت الحكم الروماني في أرض مصر ، وقد حاول الرومان إقامة خطوط فاصلة بينهم وبين هذه القنات الكثيرة ؛ فأقاموا مدناً على الطراز الإغريقي بشوارعها العمودية المتسعة والحمامات الكابيتول والجامينزيوم والمعابد والقصور ذات الأعمدة الرخامية ، ونمط العمارة الإغريقي المميز ، وجعلوا سكانها من ذوى الدماء الإغريقي ، مع السماح لقلة من أغنياء المصريين بالسكن فيها كما في مدينة بطلمية ونقراطيس واكسيد نخوس - البهنسا - وأنطونيوبوليس - هيرموبوليس - وغيرهم من المدن الإغريقية ، وبمرور الزمن حدث الاختلاط بطيئاً بين العنصرين الروماني وأغنياء المصريين وخصوصاً بعد السماح للرومان بالزواج من المصريات ، وكانت اللغة اليونانية لسان أهل هذه المدن ووسيلة ممارستهم لطقوس الحياة الثقافية في المسرح والشعر والفلسفة ومختلف علوم العصر . كما كانت اللغة الرسمية للبلاد والدواوين ومختلف شئون الحكم . أما الكثرة الغالبة من القبط - أهل البلاد الأصليين - فكانوا يستقرون في القرى المنتشرة في أنحاء مصر ، وعددها - كما جاء في القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي - حوالي ٢٣٩٥ قرية منها ١٤٣٩ قرية في الوجه البحري و٩٥٦ في الوجه القبلي .

وسكان هذه القرى من القبط الزراعين للأرض وللعاملين بالحرف المختلفة والمتحدثين باللسان القبطي في نسق حضاري قبطي مختلف الملامح تماماً عن الحضارة الإغريقية التي يندرج تحتها سلالة الحكام البيزنطيين . وبعض الأقباط كانوا يسكنون المدن المختلفة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، وينضمون تحت الطوائف الحرفية في العمل : التجارة والمعادن والسفن ومعاصر الزيوت والنبذ والمطاحن والورق وغيرها من أنواع الحرف القبطية المتقدمة . وقد لجأ عدد كبير من القبط إلى الكنيسة تحت ظروف مختلفة ، فكان منهم الرهبان والقسس

والآباء وخصوصاً في فترة الشدة العظمى ، أو الاضطهاد الكبير الذي أوقعه الحكام البيزنطيون أصحاب العقيدة الدينية المختلفة عن عقيدة كنيسة الإسكندرية... ويحكى أنه خرج لعمر بن العاص من صحراء وادي هيبب - وادي النطرون - سبعين ألف راهب يلبس بعضهم السواد ويتسربل آخرون بثياب رثة ويطلقون اللحي ويتكأ كبارهم على العصي بعد أن أجهلتهم حياة الرهينة في الديور البعيدة ، وأنه تحدث معهم عبر الترجمة وأعطاهم الأمان وليس من المعقول أن يجتمع سبعون ألف راهب دفعة واحدة في الصحراء ، وربما خرجوا إليه على دفعات حسب أماكن تجمعاتهم التي تقابله ، والرقم عموماً يدل على ضخامة عدد الرهبان الذين لجأوا إلى الصحراء بأعداد متزايدة منذ القرن الثالث الميلادي فراراً من اضطهاد الحكام وقسوتهم ، فأسسوا بذلك نظام الرهينة ذوى السمة المصرية الخالصة في الديانة المسيحية والتي أخذها عنهم مسيحيو العالم فيما بعد ، وقد بث هؤلاء القبط الفارين الحياة في الصحراء البعيدة ، ومناطق الواحات المتطرفة ؛ فأصبحت مناطق جذب لمزيد من الأقباط دون أن يعودوا إلى حياتهم الأولى مرة أخرى .

وقد بلغت أعداد الرهبان في القرن الرابع الميلادي حوالي مليون راهب وراهبة، وزادت مع الاضطهاد الروماني في القرن السادس الميلادي ، ولم يكن نظام الرهينة خالصاً بالرجال فقط ؛ بل وجدت فيه النساء القبطيات خلاصاً لهن من ضيق الحياة المحيطة ، وفراراً من شتى أنواع الاضطهاد .

ويروي الأنباء شنوده الإخيمى في كتاب تاريخ الرهينة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم - أنه عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات في ممارسة الحياة النسكية ، أقام الأنباء شنودة ديراً للنساء ، وجعله تحت رئاسته ، ووصل عدد الراهبات فيه إلى ألف وثلاثمئة راهبة ، كما بلغ عدد الراهبات في

ديرين من الأديرة الباخومية ٤٠٠ راهبة كن يجتمعن كل مساء للتعليم بخلاف النسوة العلمانيات اللاتي كن يأتين - بعض الوقت - لتلقى علوم الدين ثم يعدن إلى حياتهن السابقة .

وفي العموم ، كانت أديرة الرهبان من الرجال أو النساء - مراكز للعلم والمعرفة ، وكان شرط معرفة القراءة والكتابة شرطاً أساسياً للقبول في الدير فأقبل الرهبان على العلم والتعليم تحت رعاية الكنيسة صاحبة امتياز الإعفاء من شتى أنواع الضرائب ومالكة الضياع الواسعة والأراضي الزراعية التي كان يقوم بعض صغار الرهبان بزرعها ؛ بالإضافة إلى عملهم في حرف النجارة والحدادة والخزف والنسيج وصناعة الورق ، حتى أنتجت الكنيسة المصرية في ذلك الوقت سبعة أصناف من ورق البردي ، كما ازدهرت تحت رعايتها فنون الخزرفة والنحت والرسم والموسيقى وعلوم الطب والكيمياء والحساب وعمارة الأديرة التي كانت تبني كقلاع كبيرة تحيط بها الأسوار العالية . وفي فترات غارات الجنود على الأديرة كان الرهبان يهربون إلى مناطق أبعد في الصحراء ويسكنون « القلالي » المنفردة « فخارج دَيْرَ نهيا وبجواره توجد قلالي كثيرة تابعة للآباء الرهبان الذين جاءوا من دَيْرَ أنبا مقار زمن بطريركية أنبا بنيامين ».

ويصف أحد الرهبان الزائرين من أورشليم دَيْرَ أنبا مقار بقوله: (كان الدَيْرَ عبارة عن قلعة يحيط بها ألف قلاية) .

وبخلاف معازل الأديرة التي يفرُّ إليها القبط ، أو يذهبون إليها بمحض اختيارهم ، فينقطعون فيها عن الحياة العادية ويدخلون في سلك الرهبنة ، كانت القرى والمدن تشبه المعازل هي الأخرى ؛ حيث يربط الفرد بموطنه الطبيعي سجل ضرائب يجب عليه الوفاء بكل التزاماته ؛ وإلا تعرض لعقوبات السجن والتعذيب والغرامة المالية ، وإذا ما أراد الانتقال من قرية إلى أخرى فلا يُسمح له

بحرية الحركة والتنقل إلا بإذن أو تصريح من مندوبي الحكم ، على أن يتعهد بشهادة الضامنين أن يقوم بالوفاء بجميع الالتزامات الضريبية . وبين فترة وأخرى كان المسؤولون يعلنون أن من يرغب في نقل مسؤولياته الضريبية ، عليه أن يذهب إلى حامي المكان المطلوب الانتقال إليه ، ويطلب منه نقل مسؤولياته الضريبية والحصول على تصريح بذلك . وكان مسؤولو المرور ، أو المشرفون على المرور في المقاطعات يخطرون المسؤولين عن هؤلاء المتسللين إلى مدنهم دون تصريح رسمي ، وغالباً ما كانت سلطات الأقاليم تسارع بإعادتهم أو عمل تصريح جديد لهم إذا أثبتوا خلوهم من الضرائب .

ونجد في خطاب (من موظف كبير إلى المسؤول عن إقامة الأجانب أو المرور في الباجاركيه بسبب وجود أفراد من الفيوم وأشمون وقوص مقيمين في كوم شقوه) أوامر واضحة بشأن هؤلاء المتسللين : (فإذا تسلمت رسالتي فأرسل إلى الأجانب بعناية ... أرسلهم مع أسماء آبائهم وقُراهم والأراضي التي أخذوها من الباجاركيه وأرسل بأبنائهم وزوجاتهم معهم والأموال التي أخذوها) .

والفرد في ظل هذا النظام المتشدد كانت حريته شكلية ، لأن أغلال الضرائب كانت تكبل قنميه بأشد من القيود الأخرى . وعملية الفرار كانت شبه مستحيلة في ظل تقسيم البلاد إلى (مراكز Pagi تقابل مراكز النظام القديم Topa ويتولى كل قسم موظف يسمى Phaepasitas ويخضع لموظف آخر يسمى Exator اختصاصاته مالية وأصبح اللقب يطلق فيما بعد على الجابي ، وفي عهد ليو (٤٥٧/٤٧٤) ظهرت الباجاركيات Pagrckia وهي تطابق الإقليم القديم وتشمل كل ما يحيط بالمدينة من القرى وما يتبعها من الأرض . فالمدينة وما يحيط بها

تعتبر وحدة إدارية تخضع للبارك الذي يخضع للوالي Praeses الذي يخضع للدوق حاكم الإقليم^١.

والبارك الذي يشرف على القرى المحيطة لديه جيش وجنود عسكريين ، وجيش آخر من الموظفين منهم (الجباة والمراقبين والكتّاب والمساعدين والبحارة الذين ينقلون الخراج)^٢.

ويعمل كل هذا الجيش على مراقبة الفلاح والأرض والإنتاج ، ويستقطع هؤلاء الجباة لأنفسهم الأموال والمحاصيل العينية كلما سنحت الفرصة على طول سلم الوظائف التصاعدي حتى تصل الضرائب المطلوبة إلى الخزنة الرئيسية محملة بماء الفلاحين ، والإمبراطور جستنيان نفسه يعترف في مرسومة رقم ١٣ بأن أموال مصر تستنزف عند الجباية. وفي العموم كان نظام تحصيل الضرائب من مصر معقداً ومحكماً ، حيث كان لكل قرية « نقابة من الملاك تعد مسؤولة قانوناً عن الضرائب وإيجار الأرض » ولكل قرية (خزنة تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات والموظف المسؤول عن تدوين الحساب يعرف باسم Logagraphe. ويجري إعداد قوائم بالضرائب التي أداها كل فرد مع ذكر اسمه ومقدارها ويرسلها مسؤول الخزنة بعد ذلك إلى مكتب الوالي)^٣.

ولم يكن أمام الفلاح القبطي سوى المثل لهذا النظام الضرائبي الصارم الذي يربطه رباطاً لا فكاك منه بالأرض والقرية ، وحينما لجأ بعضهم إلى بعض الحكام العسكريين ليستجبروا بهم ، أصدر الإمبراطور قسطنطينيوس مرسوماً سنة ٣٩٥م شديد اللهجة يقول فيه :

١- زبيدة عطا : المصدر السابق ، ص ٣٧.

٢- زبيدة عطا : المصدر السابق .

٣- زبيدة عطا : المصدر السابق ، ص ٤٦.

(كل من بلغت به الجراءة لضم هؤلاء الأشخاص إليه بوعده الحماية ومنعهم من أداء ما عليهم من الأعباء العامة سيضطر لدفع الأعباء التي على الفلاح من مجموع الفلاحين الذين هجروا قراهم وسيطلب إليه الدفع من دخله الشخصي ، وكل من دخل تحت حمايتهم وجب رفع هذه الحماية عنه)¹.

فلم يكن أمام الفلاح القبطي في ظل هذا الوضع إلا الامتنال لمعزل القرية ، أو الانتقال لقرية أخرى (معزل آخر) وفي رقبته سجل ضرائبه لا يسقط عنه سوى بالموت ، أو بالفرار إلى الرهينة.

أما المدن فكانت لها قيودها الأخرى ، وينظم الحياة فيها نظام الطوائف والحرف ومسؤولي الأسواق والقائمين على منح تصاريح مزاولة التجارة ومسؤولي البريد ومحطات الدواب والمشرفين عليها ، وكانت كل طائفة مغلقة على نفسها ، وتخضع لتراتيبات إشرافية وضرائبية محددة ، وليس من المسموح لأحد بمزاوله المهنة إلا إذا كان عضواً في الطائفة ، أما الجدد فيخضعون لتدريب (يستمر من سنة إلى خمس سنوات على يد أسطوات المهنة).

وبعد الفتح العربي وسيطرة العرب على مقاليد الحكم في مصر ، تمسك عمرو بن العاص بنظام تقسيم البلاد والعباد ، الموروث عن الرومان ، كما هو ؛ فجمع مقدمي القبط وأقرهم على جباية الروم ، ويقول في رسالة له إلى الخليفة إنه فتح مدينة — يقصد الإسكندرية — بها أربعين ألف يهودي عليهم الجزية — وبالطبع لم يكن هذا عدد كل اليهود القاطنين أرض مصر ، وربما تركزت هذه النسبة العالية من اليهود في الإسكندرية نظراً لاشتغالهم بالتجارة والصيرفة وغيرها من

١- زبيدة عطا : المصدر السابق ، ص ٣٣.

الأعمال، بالإضافة إلى أنه كان بمصر من اليهود عدد كبير لا يعمل بتجارة الأموال، وإنما وجدوا في طوائف حرفية أخرى، بنسب أقل، وكانوا يعيشون في تجمعات تخصهم. وأبقى العرب على نظام العمل في الدواوين كما هو مع إحلال بعض القبط محل الروم الراحلين، واحتفظوا بالتقسيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا على أسماء القرى المصرية كما هي، أو حرفوها قليلاً ليفهمها العربي المختلف اللسان. وذلك على العكس من الرومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصرية أسماء يونانية، وظل استخدامها قاصراً عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظل متمسكاً بالأسماء المصرية القديمة — لمزيد من التفاصيل، انظر محمد رمزي — القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

كما حافظ العرب على طرق جباية الضرائب؛ بل وعلى أنواعها من الضرائب العينية التي تجمع في الأهراء أو المخازن الحكومية لمؤونة الجند. وكان المكان الذي يباشر فيه صاحب المكس مهام منصبه يسمى أم ننين — مكان حديقة الأربكية الآن — وكان هناك مركز تجاري للغلال يعرف باسم ميدان القمح أو ميدان الغلة، وكانت حمولة القمح الآتية من كل قرى مصر تفرغ في الميناء النيلي الذي كان يشغل كل ساحل المكس حتى القنطرة.

وبالإضافة إلى الضرائب العينية، كانت هناك أخرى نقدية عن المحاصيل الأخرى، وخراج الأراضي، وقانون الضيافة ثلاثة أيام للعرب الحاليين بالقرى، وقوانين ضيافة السلطان مع إضافة بند تكاليف كسوة الجند والجزية المدفوعة على الرؤوس، وغيرها. وقد حافظ عمرو على الخطوط الفاصلة بين جماعات الناس، فبنى مدينة الفسطاط لتكون مدينة عربية الطابع، وقسمها إلى خطط، وأسكن كل قبيلة خطة، وأسكن بقية الروم المتعاونين معه خطة الحمراوات، وأسكن الفرس الآتين معه من الشام خطة أخرى.

وحتى في نظام المرباع الذي أقره عمرو نلاحظ التقسيم الواضح بتخصيص مكان لكل قبيلة يخرج إليه الجنود مع خيولهم دون اصطحاب زوجاتهم وأولادهم ، مع نهاية فصل الشتاء وبداية الربيع ، ويستمرون في مرباعهم حتى قدوم الصيف. وفي خطبة عمرو إلى جنوده يحثهم على الذهاب إلى المرباع ثم العودة إلى الفسطاط ، يقول لهم : (فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ؛ فإذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض البن وصوح البقل واقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطك على بركة الله ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفه لعياله على ما أطاق سعته أو عسرتة)^١.

وفي تلك الخطبة يحث عمرو وجنوده على التمتع بخيرات الريف ثم هجره بعد إجدابه :

(فكلوا من خيريه ولبنه وخرافه وصيده وارتعوا خيلكم وسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وحمل أتقالكم)^٢.

وتمسكت الأرستقراطية العربية في البداية بعزلتها عن بقية الملل والطوائف كنوع من أنواع الترفع والتعالي على الشعب المصري الزارع للأرض والقائم بأمر الحرف المختلفة ، واحتفظوا لأنفسهم بمهام الحرب والحكم والسياسة لأن العرب كما يقول ابن حبيب : تعيش من سيوفها ورماحها ، وقد كان (عمر بن الخطاب ينهي العرب عن الزرع كي لا يزلوا ويشغلوا به عن الجهاد) . حتى أنه عاقب رجلاً عربياً أراد أن يزرع ، وطلب من عمرو أن يرسله إلى المدينة بسرعة ليقيم عليه العقاب المناسب .

١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ص ٧٤.

٢- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المصدر السابق.

ولزمن طويل ظلت العزلة بين العرب والقبط قائمة فيما يشبه الانفصال الاجتماعي ، ويمكن أن يسمى التماس بينهما في الفترة الأولى تماس السطح والقاع ، أو تماس الحاكم والمحكوم وما ينطوي عليه من عسف جانب وخضوع الآخر ، دون أن يمتص أحدهما الآخر أو يحويه تحت جناحه لأكثر من ثلاثة قرون .

وقد بالغ بعض الولاة في التمسك بالتقسيم الإداري للبلاد ، ووضع القيود على نظام الجباية ، حتى أننا نجد في بردية عربية أوامر صارمة موجهة من أحد الجباة إلى آخر مسؤول عن ضرائب مدينة « أنصنا » ، فيقول بلهجة شديدة :
(استحضر لنا من مدينة أنصنا بَقَطْرُ الطحان ، ومُر العمال بإحضاره — وكان بَقَطْرُ هذا قد تأخر في دفع ضرائبه — واستحضر إلينا أسرته أجمعين واستحضر أباه وابنه واستعجل إحضاره — إن شاء الله)^١ .

وقد بالغ بعض الولاة في فرض المزيد من الضرائب ؛ ومن ثم القيود التي تربط الفلاحين بالقبط بالأرض والقرية أكثر فأكثر ، ونصوص التصاريح في أوراق البردي العربية تدل على القاعدة العامة ، وهي عدم السماح بحرية الانتقال من مكان إلى آخر ، وقد لاحظ أدولف جروهمان ذلك ، وعلق عليه قائلاً :
(المواطنون الذين رحلوا إلى مكان آخر ليقموا فيه ربحاً من الزمن لم يكونوا على ما يظهر ملزمين — فقط — بأن يحصلوا على تصريح خاص من المدن التي كانوا يقيمون فيها ؛ بل كانوا ملزمين أيضاً بإفادة الموظفين المحليين بمقر إقامتهم الجديد... ويرجح أن الإيصالات تحول من مكان إلى مكان أو إلى الكورة أو البلدة

١- زبيدة عطا : الفلاح المصري ، ص ١٢٨ .

التي كان الشخص تابعاً لها للدلالة على أنه قد قام بأداء الضريبة المفروضة عليه لتدوينها في السجل الخاص في محل إقامته ^١ .

وفي زمن قرة بن شريك زادت وطأة الضرائب على الفلاحين إلى حد غير مسبق ، وكان (الناس يهربون ونساؤهم من مكان إلى مكان) ولكنهم لا يجدون مجتمعاً آخر يمكن أن يقبلهم (فلا يأويهم موضع) ، وبدأت إجراءات قرة ورجاله لمنع الهروب تصبح أشد قسوة من إجراءات انتزاع الضرائب ، وأخذ والى سخا ؛ على سبيل المثال (يجمع الذين يهربون من موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم إلى موضعه) ، وأصدر قرة أوامره بأن (لا يأوي أحد غربياً في البيع ولا الفنادق ولا في السواحل) ، وطلب من الرهبان أن يعيدوا أى شخص يريد الدخول في سلك الرهبنة ، ووصل به الأمر إلى وضع علامات تمييز قاسية على جسد الرهبان ، بأن (أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليُعرف ، ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام) ^٢ .

(وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قنموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج ولم يكن يحصى عدد من شوّه به على هذه القضية وحلق لحي كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة وكان متولي الخراج هذا أسامة بن زيد التتوخي - يتشدد في إعطاء تصريحات الخروج للناس ، ويقرر ضريبة على إصدار التصاريح مقدارها عشرة دنانير ، ويشدد على الشرطة والجيش والحراس بأن من لا يجدوا سجله معه يؤخذ كل ما معه وينهب وطبقوا

١- أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية.

٢- ساويرس بن المقفع.

ذلك حتى على مراكب التجار والبحارة الذين فيها فمنهم من يقتله ومنهم من يصلبه ومنهم من يقطع يديه ورجليه حتى انقطع الطريق ولم يبق من يسافر ^١ .

وربما لا ننسى حادثة فساد محصول الكروم ، وخوف الجميع من نقله أو شرائه حتى بدرهم واحد ؛ بسبب عدم حصول التجار على تصاريح النقل وانتظارهم حوالي شهرين لإصدار التصريح ؛ ففسد المحصول ولم يحصلوا على سجل الإفراج

وبخلاف تحديد مواطن الإقامة ، وحظر الانتقال من مكان إلى آخر إلا بالتصاريح الرسمية ... تعددت مظاهر العزل الإجباري بين الناس ، ومنها عزلة الملابس والهيئة بفرض أنماط معينة من الثياب على أصحاب كل دين ، فاحتكر العرب زياً معيناً لا يلبسه غيرهم ولا يتشبه به سواهم ، وفُرض على الأقباط زيّ. وعلى اليهود زيّ آخر .

وداخل صفوف الأقباط اختلف زيّ الرهبان المصنوع من الخيش عن زيّ رجال الكنيسة عن زيّ الفلاحين عن زيّ ساكني المراكز والمدن .

وكان يمكن تمييز الدين والملة والوضع الاجتماعي بسهولة من النظرة الأولى لعابري الطريق ، أو للمتعاملين في الأسواق والحمامات العامة .

وفي العموم ، تخصصت مصانع معينة في صنع ملابس السادة بخلاف تلك التي تصنع ملابس العامة ، وقد (أطلق عليها طراز الخاصة وطراز العامة) ^٢ .

وقد ذكر « القلقشندي » في الشروط المفروضة على أهل النمة (أن يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد وأن ينزلوا المسلمين صدر

١- ساويرس بن المقفع.

٢- د. حسن باشا : فن التصوير في مصر الإسلامية.

الطريق والتمييز عن المسلمين في اللباس) ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج ، ولا يركبن على إكاف ، ولا تركبن امرأة من نسايم على رحالة وليكن ركوبها على إكاف ^١ .

كما أكد القرشي في كتاب (معالم القرية في أحكام الحسبة) ضرورة أن (تشد المرأة النار تحت الإزار كالرجل ويكون في عنقها خاتم معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض للتمييز على غيرها) ^٢ .

وقد ظلت هذه الذهنية العنصرية هي السمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي ؛ وإن تخللها فترات تمتع فيها أعيان الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المسلمين في الملبس والمظهر ... بينما ظلت قاعدة الفقراء من أهل الزمة مقيدة بشروط الملبس . وظل اللون الأبيض حكراً على العرب ، والأزرق قيداً على القبط .

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق في البداية بشدة ؛ بسبب وجود فوارق طبيعية في المظهر بين ملبوس العرب الآتين من الصحراء وملبوس أهل البلاد ، وأن هذه القيود فرضت بصرامة فيما بعد .

وقد كان عمر بن الخطاب شديد التعصب للسيادة العربية والإسلامية فأخرج أهل الزمة من المدينة ، وتمنى أن يخرجهم من الجزيرة العربية كلها بحجة أنه (لا يجتمع في المدينة دينار) ووضع أسس قوانين السيادة العربية ، إلا أن تطبيقها لم يكن على درجة واحدة من الشدة ... فلم يكن يتمسك عمرو بن العاص صاحب الأفق السياسي الأوسع بتطبيق تلك القواعد الشكلية بقدر ما كان يهتم بأمر ترسيخ السيطرة السياسية على البلاد ... أما من تلاه من الولاة فلم يتحلوا باتساع أفقه ؛

١- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

٢- القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة.

وبالغ الكثير منهم في فرض المزيد من الحدود العنصرية والتشدد في تطبيقها كلما تقدم الزمن .

وبخلاف معازل المكان والمظهر ، كانت معازل اللغة حائلاً دون التفاهم بين الأجناس الوافدة والأجناس المقيمة وخصوصاً في سنين المواجهة الأولى . فكانت هناك اليونانية ؛ لغة الرومان الحاكمين ، والقبطية بلهجاتها المختلفة ، لغة الشعب القبطي في القرى والمدن والكنيسة القبطية . إلى جانب لغات بعض الجماعات القاطنة بمصر : كالحبشة ، والعبرية ، والفارسية ، ثم اللغة العربية الآتية مع جيش الفتح .

وقد سحب عمرو بن العاص وجيشه في رحلته من فلسطين إلى مصر عدد كبير من الأدلاء والترجمة من الفرس والرومان والموالي الذين قاموا بأعمال الاتصال الأولى . ورغم كثرة هذه اللغات إلا أن المواجهة الأساسية في اللحظات الأولى للفتح العربي كانت بين اللغتين اليونانية (لغة الرومان الحاكمين) والعربية (لغة العرب الحاليين) ... وخلال سنوات القتال الثلاث دارت الكثير من المباحثات بين قادة الجيش العربي والجيش البيزنطي عبر الترجمة .

أما تلك الاحتكاكات والتماسات اللغوية التي كانت تحدث بين العرب والشعب القبطي في المدن والكنائس والأديرة ، فكان بعضهم يدور باليونانية ؛ خصوصاً وأن أعيان مصر ورهبانها كانوا يجيدون اليونانية باعتبارها لغة البلاد الرسمية ، وبعض المواجهات كانت تدور باللغة القبطية ... وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا رافع القبطي الذي كان يقوم بزراعة أرض العالية في يثرب ويخدم مارية القبطية ، قد عاش حتى شهد فتح مصر ، وأنه صاحب جيش عمرو بن العاص ، ولسانه القبطي كان أحد وسائل التفاهم مع أهل مصر . ورغم ذلك ظلت المشكلة الكبرى التي كانت تواجه العرب في القرى القبطية التي يجتاحونها بحروبهم على طول

الطريق إلى الإسكندرية ، وهى جهل كل طرف بلغة الآخر ... مما ساعد على زيادة الخوف والفرار من أمام هؤلاء الأعراب الغازين للبلاد .

وتفهرت اللغة اليونانية مع عتاد الفرسان الرومان الراحلين إلى القسطنطينية ، وظلت اللغة القبطية لغة الصراع الدائر بين العرب والشعب القبطي حتى صدر قرار تعريب الدواوين عام ٨٧ هـ .

وفي السنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلم اللغة العربية وخصوصاً العاملين بديوان المحاسبة حرصاً على وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين القيادة العربية وشتى القرى القبطية ، ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدواوين كان يخص المركز بالأساس ، أما (موازيات) القرى أو السلطة القروية فقد ظلت تتعامل بالقبطية حتى زمن متأخر جداً .

ويبدو أن غموض اللغة القبطية بالنسبة للعرب ، وعدم فهمهم لها في العموم ، وممارسة القبط لشتى طقوس حياتهم اليومية بها ، جعل العرب يقلقون من حالة الإبهام المسيطرة عليهم ، ولذا كانوا يلجأون إلى كل وسائل الترجمة المتاحة لنزع ستار الإبهام المستغلقي بينهم وبين الشعب الآخر .

ويذكر «ساويروس بن المقفع» أن الابن الأكبر للوالي «عبد العزيز بن مروان» ويدعى الإصبغ ؛ كان كثير الشك في نوايا القبط ودائم التوجس من ممارسة طقوسهم الدينية وسائر شعائر حياتهم باللغة القبطية ، ففهم شماساً يعرف اللغة العربية يدعى بنيامين (فسر له الإنجيل ، بالعربي ، وكتب الكيمياء وكان يبحث عن الكتب لتقرأ عليه وكذلك الأرطستيكيات كان يقرأها لينظر هل يشتمون فيها المسلمين أم لا)^١ .

١- ساويروس بن المقفع : تاريخ الآباء البطركه : المجلد الأول ، ص ١٣٩ ، وذلك في زمن عبد العزيز بن مروان (٨٦٥ ، ٨٨٥ هـ) .

مما يعني أن هذا الشماس قد أجاد اللغة العربية حتى استطاع ترجمة الإنجيل ، وكتب الكيمياء ومختلف الكتب الأخرى للأمير المتوجس شراً من الأقباط . وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة جاء قرار التعريب الفوقي للدواوين علي يد « عبد الله بن يربوع الغزاري » من أهل حمص .

وفي الوقت الذي كانت هذه الفئات العليا من القبط تقبل على تعلم لغة الفاتح لاستمرار المحافظة على مصالحها ، كانت قاعدة الشعب القبطي معفاة من هذه الحاجة امتثالاً للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهد .

أما أسرى القبط من الرجال والنساء الذين سباهم عمرو بن العاص ووزعهم كجوارٍ وعبيدٍ على قادة جيشه ورجاله المقربين ، فقد اضطرتهم ظروف العبودية إلى القيام بدور مزدوج حيث عَمَّوا الأقربين منهم الكثير من المفردات القبطية ، كما اضطروا إلى تعلُّم وإتقان اللغة العربية ؛ لغة السادة المالكين لأجسادهم ... مثل عبد الله بن عبد الرحمن ؛ وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب ، وقد أصبح عريف الموالى أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلم اللغة العربية . وكما حدث مع عدد من نساء (سلطيس) اللاتي اتخذهن العرب جوارٍ وإماء لهم ، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزع نساءها على قادة جيشه ، وبعث بالجزء المتبقي منهم إلى بلاده البعيدة في « مكة والمدينة و اليمن » .

وقد بقي ذكر بعض هاتيك النسوة اللاتي أنجبن ذكوراً لهؤلاء السادة الجند ، وقد أخذ هؤلاء الأبناء - فيما بعد - مواقع مهمة في بلاط الولاية العربية ... بينما أهال التاريخ تراب نسيانه على النساء اللاتي لم ينجبن أبناء ذكوراً للسادة العرب ولم يُعَدَ لهن أى ذكر .

ومن أبرز أبناء المصريات أو القبطيات الأسيرات عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دوراً كبيراً في

توطيد دعائم الدولة الأموية بمصر . وهناك شواهد تاريخية على معرفة ابنه عبد الرحمن للغة القبطية التي تعلمها من أمة القبطية - إحدى سبایا سلطیس - فيروي الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥هـ (القرن الثاني الهجري) أن ابن حديج - عبد الرحمن - وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلّم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية ، مما يدل على معرفة الاثنين - عبد الرحمن وسعيد ، وربما آخرين ، باللغة القبطية .

بالإضافة إلى أننا سنجد شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوار قبطيات ، وإنجابهم منهن أيضاً مثل : عبد الرحمن جعفر بن ربيعة ؛ الذي أنجب ابنه عمران من جاريته السلطيسية ، وعقبه ؛ الذي أنجب ابنه عياض وابنه عبيده من جارتين قبطيتين على ما يبدو ، وخارجه بن حذافة القرش ؛ الذي كان رئيس شرطة عمرو بن العاص ، وتلقي عنه طعنة الموت ، قد أنجب ابنه عون من جاريته القبطية السلطيسية... وغيرهم .

وقد اقتضت ظروف هاتيك النسوة القبطيات الداخلات بيوتاً رغم أنهن أن يتعلمن لغة السيد ؛ وهى اللغة العربية ، وأن يحافظن على اللغة القبطية في سرائرن ويعلمنها لأبنائهن الصغار .

ويندرج كل ذلك تحت باب العادي من الأمور ، حيث يجب على المحكوم أن يتعلم لغة حاكمه باعتباره الطرف الأدنى في العلاقة ، أما أن يحدث العكس فهذا هو النادر .. الشحيح . ولذلك فقد ظل المؤرخون يتعاملون مع تعلم بعض السادة نوي الأصول العربية الصرفة للغة القبطية من باب الغرائب والطرائف ، فيرى أن « خير بن نعيم » قاضي مصر في الفترة من عام (١٢٠-١٢٧هـ) واليمني الأصل ، والذي كان يعمل في تجارة الزيت قبل توليه القضاء : كان يعرف اللغة

القبطية ، وإنه (كان يدخل إليه الخصمان فيخاطبانه بالقبطية ويرد عليهما بها ويشهد عنده الشهود بالقبطية فيسمع منها ويحكم بها) ^١ .

ويقال إنه يقضى بين العرب في صحن المسجد ، وفي العصر يجلس على باب الجامع فيقضى بين القبط بلغتهم .

لكن تظل هذه النماذج فردية بالنسبة إلى أعداد القبط المقبلين على تعلم اللغة العربية والتحدث بها ؛ وخصوصاً حينما خُيل لبعضهم أن دخولهم الإسلام سيرفع عنهم عبء الضرائب وعبء الاضطهاد العنصري ، وسيتمكن من اتخاذ مكانة أفضل في مصر الإسلامية بعد أن انسأ أمامهم مخرج الفرار إلى الديور للتخلص من عبء الضرائب.. فبدأت أعداد قليلة تعلن إسلامها ، وتشير وثائق البردي إلى أن (عدد من أسلم في البداية كان قليلاً فنكرت في إحدى قوائم الخراج ١٣٠ اسماً مسيحياً واسماً واحداً إسلامياً) ^٢ .

ونلاحظ تغير رد فعل القبط إزاء العرب الحاكمين منذ عام ١٠٧ هـ ، وفيه بدأت ثورات القبط في التوالي والتتابع حتى عام ٢٢٦ هـ ؛ حينما قمع المأمون قبط مصر ونكل بهم وأعمل فيهم السيف فما أبقى ، والأسر فلم يرحم أحداً مما أدى إلى انكسار شوكة الثورات القبطية لأزمان طويلة قادمة ... ويبدو أن القبط قبل عام ١٠٧ هـ ؛ كانوا يلجأون إلى استخدام أساليب المقاومة السلبية ، ومن أبرزها الفرار إلى حياة الرهينة والأنيار المعفاة من عبء أداء الجزية وأنواع الضرائب الأخرى؛ حتى ألغى عبد العزيز بن مروان هذا الامتياز ، وأحصى جميع الرهبان وختهم وفرض عليهم أداء الجزية ، فانسد هذا الباب أمام القبط الفارين . وبدأت ، مع زيادة شدة الجباة والولاة وتعسفهم ، ثورات القبط عام ١٠٧ هـ . وفكر بعض

١- الكندي : الولاة والقضاة : ولاية خير بن نعيم ، ص ٣٥١ .

٢- أدولف جروهمان : وثائق البردي العربية بدار الكتب المصرية .

دهاء العرب في ضرب القبط الثائرين بإحلال بعض القبائل العربية في موطنهم ، وإتاحة بعض فرص الثراء أمامهم .. واستئذان عبد الله بن الحجاب « متولي خراج مصر » الخليفة في السماح للعرب القيسيّة بلنزول إلى الحوف الشرقي ؛ موضع ثورات القبط ، عام ١٠٧هـ ، بعد قمع الثورة وقتل زعمائها والقبض على عدد كبير من الرجال والنساء بالطبع . فنزل حوالي خمسمائة بيت - في البداية - من عرب الشام القيسيّين ، يزرعون ويسمنون الخيول للتجارة فيها ، ثم توالى أعداء العرب القادمين بعد ما لاحظ أقرباؤهم مدى الثراء العائد على العرب القيسيّة من ذلك .

وبوفود الأعداد الكبيرة ، بدأ نوع من الاحتكاك بين فلاحي القبط الراضحين تحت عبء زيادة الضرائب ومُزارعي العرب الحاصلين على امتياز احتكار المنطقة بأمر الخليفة .

وإحلال العرب ولغتهم في تلك المناطق خلق خليطاً من اللغات المستخدمة ، ليست بالعربية الفصحى التي يستخدمها العرب الأفحاح ، وإنما هجين لغوي جديد خاص بمصر ، ولكن من سوء حظها أنها لم تتركز بعالم لغوي مثل الجاحظ يهتم بتسجيل لغة العامة من مختلف الطبقات مما يترك ثروة من التشكيلات اللغوية الناتجة عن اختلاط وتهجين اللغتين العربية والقبطية .

وقد حاول بعض اللغويين ردّ الكلمات المصرية - الشائعة الاستخدام - إلى أصول عربية ، كما في (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب) لأبي السرور الصديق الشافعي (١٠٨٧هـ) و (رفع الإصر عن كلام أهل

مصر) الذي يعرض فيه صاحبه لما دخل اللغة العربية من لغة أهل مصر ، ويحاول أن يردّ بعض الكلمات إلى أصول عربية^١ .

وقد صمدت الكثير من المفردات المصرية حتى العصر الحديث ، بعد مرور حوالي أربعة عشر قرناً ويزيد ، يرصدها مراد كامل في كتاب « حضارة مصر القبطية » لتشمل أسماء أشياء وأفعال وتعبيرات كاملة .

وهذه الكلمات التي لا زالت تعيش وتتألق حياةً على لسان المصريين حتى العصر الحديث ؛ هي مجرد مثال لغيرها من آلاف الكلمات التي صارت الموت عبر قرون طويلة فاندثرت بعضها ، وظل البعض الآخر .

وقد ظلت اللغة القبطية صامدة ؛ خصوصاً في الريف خلال القرون الأربعة الأولى للفتح العربي . ويذكر المقرئ أن بعض النساء القبط في الصعيد كن لا يتحدثن إلا بالقبطية الصعيدية حتى الزمن الذي عاش فيه المقرئ نفسه (القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري) .

١- الكلمات القبطية التي دخلت العربية من أسماء المسميات : برسيم ، أرنب ، يم ، أم قويق ، حلق ، تكيس ، بقوطي ، كحك ، قلة ، كحة ، لقمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح ، نبوت ، مقطف ، ننوس ، نونو ، بصارة ، قاق ، مشنة ، مسلة ، سمان ، طورية ، ذهنية ، تندة ، سنط ، شرش ، شونة ، شوطه ، شوربة ، خن ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح..

وفي لغة الأطفال كلمات قبطية مثل : نتّا ؛ ومعناها يمشي ، أمبو ؛ أي ماء ، واوا معناها ورم ، بيبه أي برغوث ، ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوس ، لكلك ، نكت ، نط ، فتفت ، دمس (دفن) شلشل ، شن ، بشبش ، هوس بمعنى تسبيح.

كذلك تعبيرات مثل : الورور للفعل الصغير ولقلاق ، وجَب بمعنى الساعة أو الوقت والكامس بمعنى الالم ، وتوت للحاوي بمعنى اجتمع ، وليلى بمعنى إفرح ، ويح ، وكائي ومائي.. لمزيد من التفصيل، انظر ؛ مراد كامل : حضارة مصر القبطية.

ويؤكد ماسبرو (أن بعض سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن ١٦ ، في أوائل حكم الأتراك). أما أبو صالح الأرمني فيذكر في الكتاب المنسوب إليه « الكنائس والأديرة في مصر » أن نصارى « إسنا » حين كانوا يحضرون الحفلات وأفراح المسلمين كانوا يطوفون في الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية^١.

ويستنتج سليمان نسيم من كل ذلك أن نهاية القرن السابع عشر شهدت اختفاء اللغة القبطية كلغة للحديث ، وذلك في الصعيد الأعلى - أقوى مراكز اللغة القبطية - ويقارن بعد ذلك بين شواهد زوالها وشواهد ازدهارها الأول فيقول :

إنه لما قاربت اللغة القبطية على الزوال كتبها الأقباط بحروف عربية ؛ بل لقد كثر استخدام هذه الطريقة بدليل وجود نسخ كثيرة منها بالمتحف القبطي كالأبصلمودية الكيهكية - مخطوط رقم ٤١١ - وكان هذا علي العكس تماماً من موقف القبط ؛ حين بدأوا يتكلمون العربية في أوائل القرن الثامن ؛ أي قبل ذلك بعشرة قرون ، بحروف قبطية .

ومنذ القرن الميلادي حتى القرن الثاني عشر ، ظلت عوامل الضعف تدب على استخدام اللغة القبطية بفعل انتشار اللغة العربية بين المصريين رويداً ؛ رويداً حتى رأى البابا غبريال بن تريك (١٣١-١١٤٦م) أن القبط يتكلمون العربية وخاصة في المدن ومراكز المديرية ، فأصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها - باللغة العربية في الكنائس ، وذلك بعد تلاوتها أصلاً باللغة القبطية ، وشعر خلفاؤه بخطورة هذا المبدأ لكنهم التزموا به^٢ .

١- جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م / دكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، كراسات التاريخ المصري ، ١٩٥١م ، ١٧.

٢- سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ، ص ٩٧.

ثم اختفت القبطية من المدن ، وظلت في قري الصعيد البعيدة حتى القرن (الخامس عشر / السادس عشر) كما رأينا من قبل ، أما المدن والقرى القريبة ؛ وخصوصاً قرى الوجه البحري ، فقد شهدت تغيرات أوسع بعد سلسلة القمع الدموي للأقباط الثائرين منذ عام ١٠٧هـ وحتى ٢٢٦هـ ، بالإضافة إلى انكسار خط العزلة العربي الذي كان العرب يُطَوِّقون به أنفسهم فبدأوا يتخذون أماكن المرتبات أماكن دائمة للإقامة ، وينتشرون في القرى خلال القرن الثاني الهجري ، وهجرة قيس الكبرى عام ١٠٩هـ ، واتخاذها قرى للشرقية موطناً دائماً مع التمتع بالامتيازات العالية التي خصهم بها ابن الحباب فكان ألف من القيسية يتناولون عطاء الخاصة ... لكنهم فقدوا هذا الامتياز — فيما بعد — فتغلب هوى القيسية من الولاء لبنى أمية إلى الولاء للعباسين وحالفوا القبائل الليمنية الموجودة بالحواف الشرقي ضد مظالم الولاة ونهملهم إلى جمع الخراج دون تفريق بين الأقباط الزراعين للأراضي والعرب الزراعين لها أيضاً. ثم دخلت قبيلة تميم مصر مع العباسيين عام ١٣٢ هـ ، وكان كل وإلى جديد يأتي من الشرق يحضر معه أهله وقبيلته وحلفاءه ومواليه ؛ أما قبيلة ربيعة فجاءت في خلافة المتوكل ، بعد منبحة المأمون لأقباط عام ١٢٦ هـ ؛ بالإضافة إلى القبائل الأخرى التي فضلت (اتخاذ مرتباتها منازل فيها بصفة مستمرة بعد أن تركت الفسطاط نهائياً مثل مدنج ومن حالفهم من حمير وذبجان الذين استقروا في خريتا ومن حشيين وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكناف صان وأبليل وطرايبه من الحواف الشرقي .

واختلط تاريخهم منذ ذلك الوقت ، وأصبح لهم اسم واحد يجمعهم هو أهل الحواف — بتحالفهم ذلك — قوة هائلة قاومت الدولة مقاومة عنيفة في عدد كبير من المعارك المريرة التي نشبت لأسباب تعود في معظمها إلى سوء معاملة الولاة وجشعهم في أخذ الخراج ، وخيانة الموظفين ، وهذا يبدو واضحاً عند النظر في

ثورات أهل الحوف في الأعوام ١٦٨/١٧٢-١٧٣/١٧٨/١٧٩-
١٨٠/١٨٦/١٩٠/١٩٤/١٩٨/٢٠٩/٢١٤/٢١٥-٢١٦/٢١٧-٢٥٣ هـ . ولا عجب
في هذا ؛ فقد كانوا باعتمادهم على الزراعة واهتمامهم بها يمثلون مصلحة طبقة
المزارعين في مصر ؛ بل لقد انتهى بهم الأمر إلى أن اشتركوا مع القبط في ثورة
أسفل الأرض (٢١٦-٢١٧) التي كانت ثورة المصريين بعامه ؛ بل الفلاحين
بالذات والتي قام بقمعها جيش الخليفة المأمون^١.

فهل كانت نتيجة ذلك التجاور المكاني بين العرب اليمينية والقيسية ، وبين قبط
الحوف الشرقي ، ظهور حالة التداخل والانتصار ... أم ظلت الفوارق الشاسعة
قائمة بين الطرفين ... ؟ يمكننا الحديث عن بداية تداخل - وإن علي استحياء حيث
ظلت العنجهية القبلية تطل برأسها وتحول دون الانتصار الكامل بين العرب
والقبط حتى ذلك التاريخ (١٢٦ هـ) .

لقد أخذ العرب في الزواج من نساء القبط دون أن يسمحوا بزواج العربيات من
القبط ، وشاع بين العرب المثل القائل (يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح) ؛ بمعنى
أن العربي يفضل أن تهلك ابنته أو أخته أو قريبته وتموت على أن تتزوج من
قبطي سواء أكان فلاحاً أم غيره ، ولذلك نلاحظ أن حركة التزوج والتناسل بين
الطرفين - في العموم - ذات اتجاه أحادي يبتلع النساء المصريات في المجرى
العربي الذي كان الرجال فيه يتزوجون من عدة زوجات ويستمتعون بأي عدد
شاعوا من الجواني والإماء .

والأقباط الذين تدفعهم كثرة الضرائب ، وشدة الجباة والولاة ، وحرمانهم من
الامتيازات التي كان يتمتع بها العرب ؛ بالإضافة إلى القيود المفروضة علي
ممارسة طقوسهم الدينية بحرية (فلا يرتفع ناقوس أو تعلق ترانيم) ، وأصبحت

١- عبد الله خورشيد : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى ، ص ٥٨.

الكنيسة في كثير من الأحوال عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، فضلاً عن الدفاع عن رعاياها من الشعب القبطي أمام تقلبات مزاج الولاة وعسف جنودهم ^١.

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي ؛ كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين ، ولم يعد التقسيم الأول بين كونهم أهل ذمة يدفعون الجزية والخراج ، ويعيشون في معازلهم بعيداً عن العرب ، حامياً لهم ؛ بل كانوا يتعرضون لضيق حلقة العزلة من حولهم رويداً . رويداً . وكان ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر ؛ بل كان هذا الحصار يدفع الكنائس والرهبان إلى المزيد من الانغلاق والجمود ، والدخول في ظلامية القرون الوسطى ، ويمكن أن نلاحظ خط الحضارة القبطية المنحدر منذ القرن الثامن الميلادي .

ومن جانب آخر ، كان إسلام القبط يعفيهم من بعض المظالم ، ولكنه لا يفتح لهم باب الاندماج الكامل في حياة العرب ، ولا يسمح لهم بحالة التساوي الكامل معهم ، وظل الأصل القبطي مداناً ؛ وكأنه وصمة تطارد صاحبه حتى بعد إعلان إسلامه ، ودخوله الحياة الجديدة في وضع أدنى مرتبة من السادة ذوي الأصل العربية والعنجهية القبلية .

وقد أثّرت تلك العنصرية السلالية فيما يسمى بقضية أهل الحرس التي شغلت الرأي العام المصري زمناً طويلاً (١٨٥ - ١٩٤هـ) .

١- سنجد بعد ذلك أمثلة قاسية مثلما حدث حينما أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بمنع الحديث باللغة القبطية في البيوت والطرق ومعاينة كل من يتحدث بها بقطع لسانه ، فاضطر القبط إلى وضع الستائر على أجنحة الهيكل وقت صلاة القدام وإجراء للخدمة الإلهية سرّاً خوفاً من الحكام الذين كانوا إذا سمعوا الصلاة بهذه اللغة هجموا على الكنائس ، وقتلوا بمن بها بلا رحمة. لمزيد من التفاصيل ، انظر المقريري : المواعظ والاعتبار ، الجزء الأول ، ص ٨٠.

وأهل الحرس هم جماعة من القبط المصريين الذين أسلموا ، ورغبوا في أن يتساووا مع العرب في جميع الأوضاع الاجتماعية ، فكتبوا لأنفسهم نسباً يعود إلى (حوتك) إحدى القبائل العربية. فثارت عنصرية عرب مصر (ورفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم... وتحرش العرب بهؤلاء القوم وأنوهم فجمع أهل الحرس من بينهم نقوداً دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسباً عربياً). وأتوا ببعض أعراب الحوف الشرقي ليشهدوا معهم أن نسبتهم إلى بني (حوتكة) من (قضاة) ، وقبل القاضي العمري شهادة عرب الشام (وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر وقام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحرس) ، فيقول أحدهم ويدعى يحيى الخولاني :

وَمَنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ عَصَابَةً مِنْ الْقَبْطِ فِينَا أَصْبَحُوا قَدْ تَعَرَّبُوا
وَقَالُوا أَبُونَا حُوتَكُ ، وَأَبُوهُمْ مِنْ الْقَبْطِ عَلَجٌ حَبْلُهُ يَتَذَنَّبُ

وفي البيت الثاني (حبله يتذبذب) إشارة إلى التمييز في الملابس الذي كان يفرض على قبط مصر أن يربط الرجال والنساء زناراً في وسطهم ، بالإضافة إلى التمييزات الأخرى في اللون ونوع الملابس .
ويقول آخر (معلي بن المعلي الطائي) موجهاً حديثه للقاضي العمري الذي أثبت لهم هذا النسب العربي :

إِنْ كُنْتُ قَدْ أَلْحَقْتَهُمْ عَرَبِيًّا فَزَوْجَهُمْ بَنَاتُكَ^١

وفي ذلك إشارة إلى استحالة زواج القبطي من المرأة العربية ، وحتى إذا أسلم القبطي وسقط حاجز اختلاف الدين ؛ فإن هذه الصعوبة أو الاستحالة ، مللت قائمة لزمان طويل لتكشف عن العنصرية القبلية وليست العنصرية الدينية فقط .

ويمكننا أن نلمس بعض الاختلاف بين موقف العرب الشماليين والعرب نوى الأصول الجنوبية بالنسبة لأهل الحرس ، فيذكر الكندي أن العرب اليمانية ومن ينتمي منهم إلى قبيلة قضاة بالذات هم الذين وقفوا إلى جانب أهل الحرس واعترفوا لهم بنسب عربي ؛ أو بمعنى آخر ، لم يكن عندهم غضاضة في قبول فكرة مساواة القبط معهم في شتى مناحي الحياة ، وفي إمكانية الاختلاط والانصهار والتزواج واختلاط الأنساب والتساوي في المجالس وارتداد أندية العرب ومواضع الشورى لديهم .. خصوصاً وأن بداية للتداخل والجوار الحسن قد بدأت بين هؤلاء العرب اليمانية الذين كانوا يحتلون أسفل قاعدة ديوان العطاء ، ويحصلون على أقل حصص الأموال المستزفة من مصر لأنهم كانوا من الجند نوي المرتبات الأقل ؛ بل والتي أخذت في الانخفاض والتلاشي أكثر فأكثر بفعل تحيزات الولاة وسوء سياستهم ، حتى انتهى الأمر بهؤلاء العرب نوى الأصول الجنوبية إلى تفضل الإقامة في المربع ، والاشتغال بزراعة الأرض ومجاورة القبط..

ولم يكن لدي هؤلاء العرب نوى الأصول الجنوبية والمضارين من عنصرية عرب الشمال غضاضة في التساوي مع أهل الحرس.

وظل الأمر مثاراً للخلاف والشجار حتى تولى للقاضي البكري أمر القضاء (١٩٤ - ١٩٦هـ) ، ومال إلى رأي عرب الشمال في عدم صحة نسب أهل الحرس، ودعاهم إلى دار القضاء ، ويروي الكندي أنهم حينما ذهبوا إليه (أخرج البكري مقرضاً من تحت مُصْلاه فقطع قضية العمري ، وقال لهم : العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاضي. إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد)^١.

١- الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٤١٤.

والغى البكري حكم القاضي الذي سبقه ، ومزق الشهادة التي تثبت هذا النسب ،
ففرح العرب المتعصبون ، وأخذ شعراؤهم ينشدون أشعاراً تهجوا القبط جميعاً
وتحط من شأنهم ، فيقول معلى الطائي الذي سبق وسبهم :

يا بني البظراءِ موتوا كمداً	واسخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم	من بني العباس طراً لفعل
لكن الرحمن قد صيركم	قبط مصرَ ومن القبط سفلاً
كيف يا قبط تكونوا عرباً	ومرّيساً أصلكم شرّ الجيل

وقال يحيى الخولاني :

أشكروا الله على إحسانه	قلّ الحمدُ كثيراً والرُعبُ
رجّع القبطُ إلى أصلهم	بعد خزي طوقوه وتعب
ودنانيرَ رشوها قاضياً	جائراً قد كان فينا يغتصب

وقال طاهر القيسي يمدح القاضي البكري :

ولقد قمعت بني الخبائث عندما	راموا العلى وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطاً إلى آبائهم	ونسبب أصلهم الذي قد غيبوا

وتركهم مثلاً لكل ملصق نسباً إذا التقت المحافل يضرب^١

وبعد انتهاء قضية أهل الحرس بنفي أصولهم العربية ، لم تهدأ تائرة العرب ضد أقباط مصر الداخلين في الإسلام ؛ بل احتدت النبرة أكثر من زمن المأمون بعد القضاء على ثورات الحوف الشرقي ، وقمع قبضها وعربها نوي الأصول الجنوبية.

ففي أثناء ولاية لهيعة بن عيسى على القضاء قرّب منه عدداً من مسلمي القبط، واتخذ من بعضهم مساعدين له (فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد - وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبوا إليه الفقهاء - كما اتخذ شهوداً جعلهم بطانته منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلاً).

مما أثار العرب ضدّ هذا القاضي ، وضدّ مسلمي القبط الداخلين مجال العمل الفقهي والشرعي أو قنس الأقداس العربي الإسلامي ، ونظم الشعراء القصائد المعبرة عن هذا الموقف الجمعي الرفض ، وتصاعد مخطهم حتى شمل القبط جميعاً ، واخذ الشعراء يحطّون من شأن القبط مرة أخرى ، كما حدث في قضية الحرس السابقة :

فيقول الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم :

قَبَحَ اللهُ زَمَانَنَا	رَأْسَ فِيهِ ابْنُ تَلِيدٍ
بَعْدَ مَقْرَاضٍ وَخِيطٍ	وَأَيْتَرَاتٍ حَدِيدٍ
وَأَبُو الزُّنْبَاغِ خَنَاقٌ	غَرَامِيلُ الْعَبِيدِ

١- الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٤١٤.

بعد سيفٍ خشبي	وسهام من حديد
وابن تدراق الأفا	نين البليدين التليد
وابن بكار كراكير	وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسي	بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير	نطفة القم الطريد
وابن سهم حارس	الجيزة حلوان البريد
عصبة من طينة النيل	ميامين الخدود
لبسوا بعد التباين	نقيسات البرود
لازموا المسجد ضلاً	لا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها	بفنا كل عمود
وتسوموا وتكنوا	بعد جُرج وشنود

فالقضية - إذن - ليست قضية الإسلام.. وليست قضية اختلاف الأديان ، فقد دخل أهل الحرس الإسلام ، ودخل الثلاثون رجلاً المحيطين بالقاضي لهيعة بن عيسى الإسلام ، وأتقنوا اللغة العربية كأبنائها ، ونبغوا في علوم الفقه والتفسير وغيرها من العلوم العربية.. وتبنوا الثقافة العربية قلباً وقالباً.. وصاروا نموذج

المصري الحامل للعقل العربي الوافد. ولم يشفع لهم كل هذا ؛ بل أصرت الروح القبلية المتعصبة على أن تضعهم في مرتبة أدنى.

رغم أن العرب كانوا يسكنون أرض القبط ، وينعمون بثروات القبط ، ويأكلون مما يزرع القبط.. إلا أن شعراءهم يعبرون عن ترفع العرب على سائر القبط ومهنتهم ، وكأنه من المسلمات الطبيعية أن يعمل القبط للعرب ؛ ويكونون في مرتبة الخدم... فكيف يخرق القبط هذه النواميس ويزاحمون العرب في مكانتهم الشرفية...!!!

ويمكن أن نتعرف من خلال تلك القصيدة على أنواع الحرف التي يقوم بها قبط مصر ما بين الحياكة والحدادة ، والشاعر يخصص الحداد الذي يصنع نوعاً من القيود تستخدم في ربط العبيد وجرهم ، وهو هنا يعيرهم بحقارة عمل الحدادة ، لكنه من ناحية أخرى لا يدين إليه تحويل الأحرار إلى عبيد ولا يدين التجارة فيهم؛ وهي التجارة التي نشط فيها الكثير من العرب ، فقط يدين صناعة الطوق بصرف النظر عن يقوم باستخدامه وفي أي الأغراض يفعل ذلك.

ومن الحرف الأخرى التي يعير الشاعر العربي القبط لقيامهم بها : النجارة وصناعة الطعام ودباغة الجلود والعمل بالبريد — كما يذكر أسماء رجال من القبط هم على ما يبدو أسطوات الحرف المشهورين في كل مهنة مثل : (أبو الزنباغ — بن تدراق — ابن بكار — أبو الروس المريسي — ابن لقيط — وابن سهم).

وشهرة حرفي القبط لم تكن محصورة بربوع مصر فقط ؛ بل كانت تنتشر في أفاق هذا الزمان من قبل الفتح العربي.. ومنتجات القبط كانت إحدى عجائب ذلك الزمان ، فشككت بملاحها الخاصة سمات الحضارة القبطية لقرون طويلة.. وبنيت على أساسها دعائم الحضارة الإسلامية في مصر ، فأخذت كل سماتها وطوتها بين أجنحتها... ولا زالت حتى الآن شواهد الحضارة القبطية حاضرة في المتحف

الإسلامي في فن النسيج الذي عرف باسم القباطي ، ويرى بعض الباحثين أنه قد وجدت مصانع نسيج تخصصت في صناعة ملابس الأغنياء أو الخاصة ، ومصانع أخرى لإنتاج ملابس العامة (أطلق عليها اسم طراز الخاصة). ولا زالت توقعات نساجي القبط على العمائم الإسلامية في المتحف ، وتشهد وحدتها الزخرفية بسمات الحضارة القبطية المحبة لرسوم الطيور والحمام والأعقاب وغيرها من السمات المصرية الخالصة.

ويصف د. « حسن الباشا » في كتاب فن التصوير الإسلامي : (عمامة من الكتان الأبيض يزخرفها شريط أفقي منسوج بالصوف الملون به رسوم طير ، يعطوه شريط من الكتابة العربية بالخط الكوفي ينسب العمامة إلى صاحبها سويل بن موسى ، ويؤرخ صناعتها بسنة ٥٨٨هـ. وتتألف زخارف الشريط الحمراء من مناطق ، وفي كل منها رسمٌ حمامة محورة عن الطبيعة يفصل كل منطقة عن الأخرى رسم هندسي)^١.

وسنجد بصمات الحضارة القبطية في عمارة المساجد نفسها ، في المحراب المجوف المأخوذ عن محراب الكنيسة ، وفي المئذنة القبطية ، ويذكر «البلاذري» في كتاب (فتوح البلدان) أن الوليد قد استعان بالقبط في إعادة بناء مسجد المدينة. وفي بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ؛ بالإضافة إلى قصر أمير المؤمنين ، (ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة)^٢.

١- د. حسن الباشا : فن التصوير في مصر الإسلامية ، دار النهضة ١٩٦٦م ، ص ٢٤.

٢- د. حسن الباشا : فن التصوير في مصر الإسلامية.

وقد تعود الأكاديميون أن ينكروا في تلك المواضع أن الحضارة القبطية تركت بصماتها على الحضارة الإسلامية.. ولكن : هل سألنا أنفسنا عن ماهية الحضارة الإسلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة.. وفيما تجلت...؟

في هذا الوقت يمكننا الحديث عن استمرار وجود الحضارة القبطية في مصر ، وتجليها في شتى مناحي الحياة.. واستمرار ازدهار مراكز صناعية متنوعة مثل : مراكز صناعة نسيج الكتان الأبيض الشهير المشغول بخيوط الصوف الدقيقة والبيدعة الألوان وبخاصة اللون الأرجواني في مدن نشا ودلاص وأنصنا واشمون، أما صناعة المنسوجات الصوفية فكانت تنتشر في مدن مصر العليا مثل أحميم وقرية الشيخ عبادة وأسيوط واهناص والبهنسا والفيوم.. وقد ذكر المقرئ مدينة تيس كأحد مراكز صناعة القباطي... ونجد في المتحف القبطي ثروة من الوبريات ذات الزخارف الهندسية والرسوم الحيوانية .. كما نجد نماذج للأغطية والوسائد والمفارش تعود إلى القرن السابع والثامن الميلادي / الأول والثاني الهجري ، وغيرها من لوازم الحياة المستقرة الآمنة داخل البيوت ، مما يضفي عليها مسحة من ترف الحضارة .. حتى ولو كانت ببساطة لواحد من عامة الشعب .

وما بقي لنا حتى الآن من الآثار هي مجرد علامات لحضارة غطت تفاصيلها شتى مناحي الحياة وتجلت في علوم الطب والصنعة والكيمياء والحساب ، كما تجلت في فنون العمارة والبناء والزخرفة والخشب المطعم بالصدف ؛ والذي أخذه العرب فيما بعد ، واشتهر باسم الأرابسك ، بالإضافة إلى صياغة المعادن وصناعة أدوات النجارة وأدوات الزراعة التي لازالت تستخدم حتى الآن ، كما هي في أعماق الريف المصري مثل الساقية والشادوف والمنجل وغيرها من الأدوات .

ويري سليمان نسيم أنه مما ساعد علي ازدهار الصناعات في العصر القبطي ؛ انتقالها من المنازل والمصانع إلى الأديرة أيضاً ، حيث (انتقلت إلى الراهب المصري براءة الصانع المصري وفنه الدقيق ، فنهض بصناعات النسيج والخشب والتجليد والخزف والمسارج والأواني المعدنية والشمعدانات والمباخر والتحف المعدنية والزجاج)^١ .

وقد أجاد الأقباط صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة مما يدل علي مدي ازدهار العلوم الكتابية التي اهتمت بها الكنيسة علي وجه الخصوص .

وكان مجيء العرب في القرن السادس الميلادي وقت ازدهار الحضارة القبطية بشتى فروعها المدنية والحياتية .. وإن كان صفوة العرب المشتغلين بالتجارة قد عرفوا مظاهر الحضارات المختلفة ، ولكنهم تعاملوا معها جمعياً تعامل التاجر والمستهلك لا تعامل الصانع والمبدع .. ينقلون قباطي مصر كما ينقلون حرير الشام وعطور الشرق وتوابله إلى بلادهم ، فيستهلك السادة تلك المنتجات ويزدادون ثراءً بالتجارة فيها ، مما جعل استهلاك تلك المنتجات الحضارية قاصراً علي دوائر ضيقة في المجتمعات العربية في مكة بالذات وخصوصاً قريش ، وبعض زعماء القبائل الكبيرة ، أما قلوب العرب وأعدادهم الغفيرة فلم تكن تستمتع بتلك المظاهر الحضارية لا منتجة ولا مستهلكة ، ومن هنا كانت الدهشة الكبرى التي لفت الجيش العربي بغلاتها أثناء دخول الإسكندرية ورؤية القصور الشاهقة والشوارع اللامعة ومظاهر الترف الواضحة في أحياء الرومان ... وعلي طول الطريق قبل الوصول إلى الإسكندرية كان الأفق الأخضر الوافر بالمحصولات المختلفة يملأ العيون ، والمياه العذبة تجري بلا عوائق ، والفلاحون من الرجال والنساء ينطلقون في الحقول .

١- سليمان نسيم ، تاريخ التريبة القبطية.

كانت تجليات الجنة ونعيمها كما حلم بها العربي ابن الصحراء تقابله في كل مكان وتأخذه بسحرها . وإن كان يفصله عنها بحر من الدم خاض فيه حتى قضى علي أعدائه ، وامتلكها ... وأصبح كل ما في الجنة مُسَخَّراً لخدمته : الفواكه والأعشاب .. الأشجار والطيور .. الأنهار الجارية .. اللبن والعسل .. الرجال والنساء .. الذهب والفضة — مثل معادن جبال العلاقي التي نزحت إليها قرش وسيطرت عليها — حتى الخمر التي وعد الله بها المؤمنين في الجنة كانت متوافرة . وكثير من الحكايات التاريخية تشير إلى إقبال المسلمين للفتاحين علي العَبّ من كل الشهوات ؛ بما فيها الخمر ، وحادثة شرب ابن الخليفة عمر بن الخطاب للخمر لم تكن استثناءً وحيداً ؛ كما يروي عن القاضي البكري الذي حكم ضد قبط مصر في قضية أهل الحرس . إنه كان لا يجلس للقضاء إلا بعد الغذاء وبعد أن يشرب عدة أقذاح من الخمر ، ونجد في أخبار دعل بن علي الذي حكم أسوان بعض الوقت أنه كان يشرب النبيذ^١ .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن القبط كانوا يدفعون مقرر ضرائب الخمر مساوياً لمقرر ضرائب المنتجات الأخرى كالخل والعسل . والحالات التي قرر فيها بعض الولاة تكسير دنان الخمر تؤكد أن صناعة الخمر واستهلاكه ظلت قائمة طوال فترات الحكم العربي لمصر ، إلا في استثناءات حادة قليلة لبعض الحكام الذين كانوا يأمرّون بالتضييق عليها .

وظلت صورة الجنة كما تخيلها العربي تغلف رؤيته لمصر ، ويروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : (لما خلق اله آدم ، مثل له الدنيا : شرقها

١- انظر الأغاني للأصفهاني : الجزء العشرون ، ص ١٥٩ .

وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر رآها أرضاً سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة تتحدّر فيه البركة ، ورأى جبلاً من جبالها مكسوّاً نوراً لا يخلو من نظر الرب عز وجل ، فأومئ إليه بالرحمة . في سفحه أشجار مثمرة ، فروعها في الجنة تُسقي بماء الرحمة ، فدعا آدم في النيل بالبركة ، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك علي نيلها وجبلها سبع مرات . قال :

يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة وتربتك مسكة تدفن فيها عرائس الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة ، لا خلّتك يا مصر بركة ولا زال بك حفظة ولا زال منك ملك وعز ، يا أرض مصر ، فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة . سال نهرك عسلاً ، كثر الله رزقك ، وتر ضرعك ، وزكا نباتك ، وعظمت بركتك وخصبت ، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني ، فإذا فعلت ذلك عداك شر ثم يغور خيرك^١ .

وكثيراً ما كانوا يقولون : إن (نيلها يخرج من الجنة علي حسب ما ورد به خبر الشريعة)^٢ . فهي صورة الجنة علي الأرض ، وجمالها مشروط بمدي الخضوع للسيد العربي ، فإذا تمرنت عليه انقلب الجمال إلى شر مطلق .. خصوصاً وأن ملامح هذا الجمال ومفرادته هي الخبايا والكنوز والبر والثروة ، كما أن أهم شروط الإحساس بهذا الجمال ؛ هو استمرار سيلان الثروة في أيدي السيد العربي كما يستمر حلب اللبن من ضرع بقرة حلوب خصبة ، وسنجد تشبيه البقرة الحلوب كثير التكرار في حديث بن عمر « درّ ضرعك » ؛ بمعنى الدعاء لها بزيادة الثروة ، ومرة يأتي علي شكل حثّ مجنون لنهب الثروة ؛ كما جاء في وصية

١- ابن ظهيرة : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

٢- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ٣٤٦.

الخليفة سليمان بن عبد الملك لأسامة بن زيد التتوخي ؛ متولي خراج مصر ، فقال له :

(احلب حتى ينفيك الدم. فإذا أنفأك الدم حتى ينفيك القبح ! لا تبقيها لأحد بعدى)¹ .

وجنون الاستنزاف الذي سيطر علي الخليفة ، جعله لا يقنع بمجرد حلب اللبن ، فطالب متولي الخراج بحلب الدم ، ثم لا يكتفي بحلب الدم فيطالبه بحلب صديد الجروح العميقة ، حتى يترك البقرة جثة هامدة ليس فيها شئ لأحد بعده .. وهو جنون لا يوازيه إلا نهم الخليفة إلى الطعام الذي كان يسيطر عليه ليل نهار حتى صار مضرب الأمثال في الشره . ويحكي الهميري في (كتاب حياة الحيوان الكبرى) أن سليمان بن عبد الملك (كان نهماً في الأكل وقد نقل عنه فيه أشياء غريبة فمنها أنه اصطحب في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية وأربعين بيضة ، وأربع وثمانين كلوة بشممها ، وثمانين جريقة ، ثم أكل مع الناس علي السماط العام).

ومنها أنه دخل ذات يوم بُستاناً له ، وكان قد أمر قِيَمَةً أن يجني ثماره ، ويستطيب له ، وكان معه أصحابه فأكل القوم حتى اكتفوا ، واستمر هو يأكل فأكل أكلاً ذريعاً ، ثم استدعي بشاة مشوية فأكلها ، ثم أقبل علي الفاكهة فأكل أكلاً ذريعاً ، ثم أتى بقعب يقصد فيه الرجل مملوء سمناً وسويقاً وسكراً فأكله أجمع ، ثم سار إلى دار الخلافة وأتى بالسماط)² .

وقد تمسك « أسامة بن زيد التتوخي » متولي خراج مصر ، بنصيحة الخليفة الشره إلى الطعام والثروات ، وعمل علي جمع كل ما يستطيع من الأموال ،

١- المقرئزي : المقفى الكبير ، ص ٣٩ .

٢- كمال الدين الهميري : كتاب حياة الحيوان الكبرى ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

وبعثها إليه . ويعلق المقرئ علي أفعال أسامة بن زيد بأنه أتى بأفعال تفوق ما عمله فرعون واشتد علي نصاري مصر وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحديدة تدل علي اسمه واسم ديريه وتاريخه ، فكان من وجد بغير وسم ضُربَ عُنقه .. وكتب إلى الأعمال بأن من وُجد من النصاري ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير^١ .

وقد كان وصف مصر بالبقرة الحلوب شائعاً بين العرب ، نجده لدي الخليفة عمر بن الخطاب في حديثه إلى عمرو بن العاص ، وفي حديث الخليفة عثمان بن عفان لعمرو بن العاص (لقد درت اللقحة بعنك يا بن العاص) .

وبخلاف وصف البقرة أو اللقحة ؛ نجد آخرين يصفونها بسلة الخبز ، لأنها كانت تبعث بالقمح إلى مكة والمدينة وتمير — أي تُعَيِّش — للخلافة وتعطيها ما تحتاج له من الطعام .

أما أبو بصرة الغفاري فيشبهها بخزائن الأرض كلها ، وابن العاص كان يؤكد أن خلافة مصر تعدل الخلافة كلها !

وسواء كانت بقرة أو سلة أو خزانة فجميعها تشبيهات تفصح عن معاني الاستنزاف التي تعرضت لها مصر علي يد الفاتح العربي لأنها (معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات)^٢ .

فاستحلب العرب — كما يقتضي الغزو لدي كل الجيوش — ذهبها وجواهرها وأموالها وغلاتها ، ونظروا إلى أهلها نظرة التنالي المطلق .

فكان القبط يزرعون للعرب ، وبينون للعرب ، ويصنعون للعرب .. ثم يحتقرهم العرب وينظرون إليهم من عل .

١- المقرئ : المقرئ الكبير .

٢- المسعودي : مروج الذهب .

في ذات الوقت الذي كان يبالغ فيه العرب في مدح ثروات مصر ، كانوا يبالغون أيضاً في ذم شعبها وتحقير شأن الرجال والنساء حتى وسموهم بكل علامات الشر المطلق ، فيقول من يصفها بأنها معدن الذهب أن في (أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة)^١ .

ويقول ابن عباس : إن المكر عشرة أجزاء ؛ تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس .

أما الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي يقسم (أهل مصر ثلاثة أصناف فتلت ناس وتلت يشبه الناس وتلت لا ناس ، فأما التلت الذين هم الناس فالعرب والتلت الذين يشبهون الناس فالموالي والتلت الذين لا ناس المسالمة يعني القبط)^٢ .

ويبدو أن التعبير عن نظرة العرب الدونية لقبط مصر كان ضرورياً لاستمرار منطق العنجهية العرقية البالغ فيها ، واستمرار منطق الاستنزاف والسيادة لصالح الفارس العربي الذي يجب أن يحتل المكانة العليا في المجتمع بمقتضى حدّ السيف ، فيحتكر معها كل الصفات النبيلة الرفيعة بحدّ السيف أيضاً .

أما الشعب المحكوم والخاضع كلياً لمنطق الغزو ؛ فإن السادة العرب يرونه من زاوية عدم استحقاقه للخيرات المحيطة به : من زرع وماء وثروة وفي بعض الأحيان يرونه من زاوية عدم الاستحقاق للحياة نفسها .

والنتيجة الطبيعية في نظر الناس ، أو الأشراف من العرب أن القبط أو اللا ناس ينتجون الثروة ، والعرب أو « الناس » يستهلكونها ويغرقون في الاستمتاع بها . والصواب الوحيد في عين العربي الحاكم هو ضمان استمرار خضوع القبط للعرب لضمان استمرار استحواذ العربي علي الثروة ، ولذلك فإن الحكام العرب

١- المسعودي : مروج الذهب.

٢- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ص ٥٦.

نظروا إلى الثورات القبطية علي أنها خروج « اللاناس » علي ناموس الطبيعة .. وربما من هذه الراوية تجاهل معظم المؤرخين العرب أحداث ثورات القبط ، وتعاملوا مع مصر أثناء ذكر أخبار الفتح وكأنها أرض بلا شعب . واستمروا علي هذا النهج إزاء أحداث عام ١٠٧هـ وتصاعداتها حتى بلغت ذروتها عام ١٣٢هـ مع نهاية الدولة الأموية .

ومن المدهش أن نجد ثنائية الإشادة بمصر - الأرض والثورة والخيرات من ناحية ، وذنم الشعب ووصفه بشئى الصفات السلبية من ناحية أخرى - لدى مؤرخ مرهف الشعور الاجتماعي مثل « المقرئزي » الذى فطن إلى تفاصيل الحياة الاجتماعية والسلوكية والعقائدية لدى الشعب ، كما فطن إلى التمردات القبطية الكبرى ، وخصص لها فصلاً فى « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، بعكس الآخرين الذين كتبوا عن مصر وكأنها أرض بلا شعب .. فتحها العرب بعد سلسلة معارك ضد الرومان فانتصروا عليهم وتمكنوا من تثبيت أقدامهم فيها وفرض الجزية علي سكان يسمون فى العموم بالأقباط .

أما المقرئزي ، فقد سجل صورة تمتلئ بالتفاصيل الحيوية عن حياة الشعب المصري فى ظل الحكم العربي ، ورغم هذا الحس الاجتماعي المرهف إلا أننا نجد نفس الثنائية المتعالية علي الشعب .. ولم لا..؟ وهو المؤرخ المصري ؛ المولد والإقامة ، العربي الثقافة والتكوين ، رياه جده لأمه ، ويدعي ابن الصائغ ، علي المذهب الحنفي ، ثم انقلب شافعيأ بعد وفاته . وقد تولي عدداً من الوظائف فى ديوان الحكومة حتى أصبح محتسبأ؛ وهو منصب له مكانته العالية فى شؤون الحكم .

ونجد فى كتابات المقرئزي - شأنه شأن مؤرخي مدرسة التاريخ المصرية التى أسست علي يد ابن عبد الحكم - فكرة العرب عن أنفسهم ؛ وهم الحكام والغالبين ،

ونظرتهم للشعب المصري ؛ وهم المحكومين المغلوبين ، ونتعرف من خلاله على كل الأساطير السائدة وخرافات العرب عن المصريين .

ومن الغريب أن يفيض المقرئ في وصف المصريين بالجبن والاستحذاء مؤكداً - غير مرة - أنها صفات طبيعية منحتها لهم الطبيعة فالتصقت بهم جميعاً ، وفي المقابل يصف العرب بالشجاعة والإحساس بالكرامة كصفات أصلية ، فيقول أن أهل مصر يغلب عليهم :

(الدعة والجبن والقفوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وزم الناس بالجملة فيغلب عليهم الشر والدينية التي تكون من دناءة النفس . وليست هذه الشرور عامة فيهم ، ولكنها موجودة في أكثرهم ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبراه من الشرور ، ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدينية في النفس لم تسكنها الأسد ، وإذا دخلت نلت ولم تتناسل ، وكلاهما أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الآخر ما خلا ما كان منها في طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار والأرنب)^١ .

وهكذا يلصق المقرئ - نموذج العقل العربي المتعالي على المصريين - كل الصفات السلبية بالشعب المصري ، ويختتمها بطابع الأزلية والثبوت ، حينما يدعي أنها صفات طبيعية تتبع من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء ، ولا أحد يعلم كيف تولد الأرض الجبن والشرور الدينية في النفس ، وكيف تولد أرض أخرى الشجاعة والخير والفضيلة...؟!

وكيف تولد الخضرة والمياه الجارية وتوافر المحصولات الشر والديناء ، بينما تولد الصحراء وحياة الندرة الشجاعة المطلقة...؟!

١- المقرئ : المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ص ٤٣ .

إنها فكرة العربي الذي ينشأ على الإغارة والحرب والغزو ، فيعتقد أنه السلوك الأرقى طالما يمكنه من الحصول على احتياجاته وزيادته ، ويضعه على رقاب الناس في مكان السيادة.. فيسمى القتال فروسية ، والغزو جهاد في سبيل الله .. والقتل شجاعة ...!!

وتأخذ عصبية العقل العربي حداً لا يكفي فيه بوسم المصريين فقط بتلك الصفات السلبية ؛ بل أنه يذهب إلى وصف حيوانات المكان بنفس الصفات في تشبيه واضح يؤكد طابع الأثرية الكونية ، فيؤكد أن مصر لا تصلح لسكنى الأسود، وإذا دخلت فأنها تذل ولا تتنازل ، وحتى كلاب مصر تكون أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ونباحها أضعف ، وأكثر الكائنات انسجاماً مع طبيعة تلك البيئة هي الحمار والأرنب .!

وينسى المقريري - ومن خلفه العقل العربي بأجمعه - أن الجزيرة العربية موطن السادة الأشراف والفرسان المغاوير تخلو أيضاً من الأسود رغم اختلاف بيئتها عن بيئة مصر . ورغم إفاضة العقل العربي في مقارنة النفس بالأسود في الشجاعة والقوة في أشعارهم ومواطن فخرهم .

كما ينسى المقريري أن مصر لم تزل تماماً من الأسود التي استخدمها الحكام العرب في عقاب الأقباط الخارجيين عن طاعة الحكام مثلما حدث في نهاية الدولة الأموية ؛ حينما قبض الخليفة مروان بن محمد على رجال الكنيسة وسجنهم وسلم (أغناطيوس القديس الشهيد إلى عشرة من الأسود)^١.

وتذكرنا تلك الحادثة بتاريخ القبط الدامي مع الأسود منذ العصور الرومانية ، حيث كان يتسلى الأباطرة والحكام بمشاهدة الأسود تهاجم المعارضين في حلبة

المصارعة ، وتفتك بهم وسط صيحات الفرح والتشجيع .. وقد أعاد بعض الحكام العرب نفس التقليد ضد مخالفيهم من القبط .

وقد ترك هذا التاريخ الدامي أثراً قاتماً في استخدام القبط لتشبيه الأسود، على عكس العرب الذين يتخذونه مضرباً في الشجاعة ومثالاً لها .

وفي كثير من النصوص القبطية القديمة ؛ نجد أن استخدام تشبيه الأسد يدل على الشراسة وحب سفك الدماء كما في وصف ساويروس بن المقفع لأحد الحكام العرب بأنه (كان بغضاً للنصارى سفاك الدماء رجل سوء كالسبع الضاري) ^١ .

ويقول في موضع آخر عن (ملك اسمه مروان ثار مثل الأسد إذا خرج من الغابة جائعاً يأكل ويدوس الباقي برجليه) ^٢ بعكس العرب الذين يقرون صفة الأسد بالشجاعة ويتباهون بأنفسهم حينما يقرنون أنفسهم به .

وعلى عكس فكرة المقريري السابقة عن خلو مصر من الحيوانات الضارية لعدم صلاحية أرضها المولدة للجبن والأخلاق الدنية ، نجد في مصر الكثير من الحيوانات الضارية التي لا تسكن الجزيرة العربية مثل أنواع التمساح والنمس وثناب البراري والأفاعي وغيرها ، والحضارة القبطية أبدعت في إدخال تلك الضواري ضمن أنساقها الفنية ، كما أن العقل المصري حفظ الكثير من الحكايات عن حب المصريين للحيوانات ومعاملتها برأفة وشفقة وهي عادة موروثة عن الفراعنة الذين كانوا يكتبون على مقابرهم أنهم لم يؤذوا حيواناً في حياتهم تقريباً إلى الإله خالق الطبيعة.

وهناك منظر جميل لملاح محفور في الخشب ، وللملاح يداعب تمساحاً بيده؛ والتمساح من الحيوانات الضارية التي تألف خيال الفنان القبطي وصورها بأسلوب

١- ساويروس بن المقفع : ص ١٣٩ : ص ١٢٢ .

٢- ساويروس بن المقفع : المصدر السابق .

مُحِبِّ بجوار الحيوانات الإليفة مثل : الطيور والأسماك والأرانب والغزلان ، وهو يرى فيها جميعاً (الإليف والضاري) وداعة ورقة مفرطة .

إلى جانب صفات الشرِّ والذنية السابقة ؛ نجد العقل العربي يلصق صفات المكر والكيد والخبث والدهاء بقبط مصر ، مع التأكيد مرة أخرى على أنها صفات طبيعية لا شك فيها ... وكثيراً ما تأتي علي لسان صحابة لهم شأن في الفكر العربي مثل ابن عباس الذي ينسب إليه قوله : (المكر عشرة أجزاء تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس)^٢.

وقول عبد الله بن عمرو بن العاص : (لما هبط إبليس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر)^٣ . والأحاديث السابقة تضع صفات الكيد والمكر علي كاهل المصريين وكأنها قدرهم الأزلي الذي تقتضيه نوااميس الطبيعة ، فكما تشرق الشمس كل صباح يولد المصري مكرراً أو شبيهاً بالشيطان في أخلاقه وصفاته . وهذه الصفات إن وجدت فهي بالضرورة تنتج عن أوضاع اجتماعية معينة تضطر الإنسان إلى حماية نفسه بوسائل الضعفاء ... فنحن ، إذن ، أمام أمراض العلاقة بين العرب الحاكمين والقبط المحكومين ، ولسنا أمام صفات وراثية ، فهي علاقة لا يمكن أن يكتنفها السلام ، ولا أن يكون الحب والرضي أساساً فيها .. وما حدث بين العرب والقبط في حاجة إلى دراسة من أكثر من زاوية ، حيث إن هناك جانباً مسلحاً ومتفرغاً لشؤون الحرب والقتال وجمع الأموال ، والآخر أعزل ويدور في ساقية عمل قاسية.

١- مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ، ص ١٤٢.

٢- المقرئزي : الخطط.

٣- المقرئزي : المواعظ والاعتبار.

طرف يُشَرِّع القوانين المستنزفة ويفرضها بقوة السلاح ، والآخر ظهره للحائط ويضطر إلى الدفع دائماً ، وفي تلك الثانية لا يمكن أن يحب الأعزل قاتله .
وفي الأوقات التي لم تصل الأمور فيها إلى لحظة التمردات الكبرى ، اضطر القبط إلى تجريب كل الوسائل السلبية لحماية النفس ؛ فترددوا بين الصمت والتلطف والاسترضاء ، وحتى محاولات الفرار الجماعي من العمل في الأرض وتركها إلى الأديرة البعيدة حتى فطن الحاكم إلى ذلك ، وسدوا تلك الثغرة بتشديد القوانين حول الرهبان والكنيسة .

وقد حدثت الثورات في أوقات كثيرة طغي فيها الجانب العربي ، وظن أن القبط خائعين دائماً وخاضعين حتى الموت ، فأنت نتائج الأحداث علي عكس ما يتوقعون .

ويعود المقريري إلى التأكيد عدة مرات علي أن كل الصفات الرذيلة هي صفات طبيعية ، وإن تطفوا فيها وحاولوا إخفائها تحت غلالة النفاق والبشاشة ، ويستشهد في ذلك بأبيات أبي نواس الذي يوجه حديثه إلى أهل مصر قائلاً :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب
فإن بك باقي إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

ثم يربط المقريري بين نوع الطعام الذي يتناوله أهل مصر وبين أخلاقهم تبعاً للقاعدة التي تقول : إن كل قوم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بعينها وألفتها ونشأت عليها) فيكون طبعها وأخلاقها موافقاً لنوع الطعام الذي تأكل .

ولكن كيف تكون مصر بلداً كثير الخيرات ، وفير المحاصيل ، ولا يأكل الشعب إلا الأغذية الرديئة (مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الأمراض) ، كما يقول المقريري...؟!!

إن سوء غذاء الناس وسوء حالهم وغلظة طباعهم يدل على عدم انتفاع أهل مصر بخيرتها ، واقتصارهم على ما تبقي من الفتات الخشنة ، فهي بلد ذات وجهين أو ذات نوعين من المعيشة ... وجه يرى ويحس أنها (معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات) ، أو كما وصفها عمرو بن العاص للخليفة بن الخطاب :

(فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء)^١.
ويصفها آخر بأن (نيلها عجب، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ، وملكها لمن سلب ، ومالها رغب ، وفي أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلامهم شغب ، وحروبهم حرب ، وهي لمن غلب)^٢.

وهناك مفارقة واضحة بين شدة الإعجاب بالأرض وشدة التحقير لسكان الأرض ؛ فمصر التي يراها عمرو بن العاص شجرة خضراء ، أو لؤلؤة بيضاء ، أو عنبرة ، أو زمردة ، وجميعها تشبيهات مستمدة من الجواهر النفيسة الخلابة للعيون والساحرة للنفوس ، يكون أهلها من وجهة نظره : (أهل ملة محقورة ونمة مخفورة يحرثون بطون الأرض ويبنزون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم)^٣.

وأهلها المحتقرون في هذا الوصف يحرثون الأرض ويمارسون شتى أعمال الفلاحة والزراعة من أجل «غيرهم» ، وليس لهم رأى في شؤون السياسة ، وهم

١- أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكي : النجوم الزاهرة ، الجزء الأول : ص ٣٢.

٢- الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، تحقيق يوسف أسعد داغر ، ص ٣٧٤.

٣- أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكي : النجوم الزاهرة والقاهرة ، الجزء الأول ، ص ٣٢.

في وضع الخسيس ، وفي نفس الرسالة يقرر عمرو بن العاص سياسة السيطرة على البلاد :

(ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أولها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال)^١.

ونجد ذات هذه الفكرة في الوصف الثاني الذي يمدح أيضاً أرضها الذهب ، ويذم أهلها الذين تكون طاعتهم رهب ؛ أى خوفاً وجبناً ، في ثنائية تبرر فعل السيادة نفسها لقوم يلهثون خلف الثروة ، ويجبرون أهل البلاد علي إنتاجها باستخدام شتي دروب العنف .

إنها الأرض التي يخرج نيلها من الجنة في نظر العربي ، وتسير المرأة فيها « والمكتل فوق رأسها فيمتلئ ثماراً » ؛ دون أن تبذل جهداً في جمعه . وهي التي تمتد ضياعها أينما وقعت العين على طول الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية ، ومن الفسطاط إلى رشيد ، بطول الدلتا والنيل ... فكانت الغلات والكروم في كل القرى . حتى أن ابن زهير يصف كورة أسويط بقوله : (لما صورت الدنيا كلها للرشيد لم يستحسن منها إلا كورة أسويط لأن مساحتها ثلاثون ألف فدان في استواء الأرض . لو وقعت فيها قطرة ماء واحدة انتشرت في جميعها لا يظلم منها زرع فيها يزرع الكتان والقمح (والقرطم) وسائر أنواع الغلات .

١- ابن تغرى بردى الأتابكي : المصدر السابق.

ومنها بلد الأشمونيين : وما يعمل فيها من الأرز والكتان ، ومنها مناسج الأرمني والديقي ، والمثلث ، وبها الخس والسرسل والليمون .
ومنها أحميم : بلد عظيم وفيه من العجائب والآثار والبرابي والطلسمات ما لا يعرف ، وبه الإهليلج الكبلي والأصفر (صنوبر) ، وبها يعمل الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمطرز والمقلم الأبيض والملون .
وقوص : فيها سائر أصناف التمر والخل والحطب الكاري الذي لا رماد له والفحم الجافي وسائر أنواع الأرباط والكروم ومعادن الذهب والجواهر .
أما دمياط وتيس فهما (حاضرتا البحر وبها من صيد البر والبحر من الحيتان والطير ما ليس في بلد في هذا الزمان . ويزرع بها من قصب السكر والموز شيء كثير .

ولقد أخبرني من أتق به من أهلها أن القدان منها من القصب يخرج منه السكر أربعون قنطاراً بالقوي وهو مئة قنطار بالمصري .
ومنها الفرما وبها البشر الفرماوي والرطب والتمر إذا فرغت أرباط الدنيا وبسرها وجد هو .

وما بين عين شمس والفرما تربة واسعة يزرع فيها الأرز والأترنج الأحمر الجافي وبها الحصر الساماني والعيداني ومنابته والكتان .
وبوصير وسمند وفيها من الكتان الذي يحمل إلى بلاد الإسلام والكفر وأقاصي ما لا يُحصَر وبها الأترج الجافي والإوز الذي لا يرى في خلقته ولا وزنه مثيل له وربما كان وزن الطير الواحد أربعين رطلاً^١ .

١- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، ص ٥٣ . فصل في ذكر كور مصر المشهورة .

حتى العريش والجفار ، وصف المسعودي ما فيه من الطير والجوارح (والمأكول والصيد والنمورة) ، كل هذه الخيرات تركزت في بلد واحد قال عنه العرب أنه يميز غيره ، أي يعطي البلاد الأخرى الطعام بينما أهل البلد لا يأكلون إلا الرديء والسيء من الطعام ، فنجد (أهل الصعيد يفتنون كثيراً بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها إلى القسطنطين وغيرها فتباع هناك وتؤكل ، وكثير من أهل مصر يكثر من أكل السمك طرياً ومالحاً ويكثر من أكل الألبان وما يعمل منها وعند فلاحهم نوع من الخبز يدعى كعكاً يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها ، وبالجمله فكل قوم منهم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة)^١.

أما أهل البشمور الذين كانوا كالشوكة في ظهر العرب ؛ الكثيري الثورات ، والمشهورين بالشدة والقوة : فإن (طبائعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جداً ويشربون من الماء الرديء)^٢.

أما إسكندرية وتتيس وأمثال هذه المدن فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طبائعهم ويرفع همهم ولا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ للطبع والجمادية وإحاطة البحر بمدينة تتيس توجب غلبة الرطوبة عليها مما يسر أخلاق أهلها)^٣.

والمقارنة بين أخلاق البشموريين وأخلاق المدينتين المطلتين على البحر — إسكندرية وتتيس — تأتي لصالح المدينتين ؛ دون البشمور... فيم استحق أهل

١- المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ص ٤٤.

٢- المقرئزي : المصدر السابق.

٣- المقرئزي : المصدر السابق.

البشمور صفات البله والغلظة وهم ثوار القبط الأشداء ، واستحق أهل الإسكندرية وتيس صفات رقة الطبع ورفع الهمة وليس في تاريخهم تحت الحكم العربي ثورات تعادل ثورات البشمويين.^١

وسبب ثورات البشمويين التي جلبت عليهم صفات الغلظة والبله من وجهة نظر الحكام ، هي أسباب اجتماعية ومعيشية قاسية دفعتهم إلى الثورة ؛ ولا شأن هنا لما يهب عليهم من رياح البحر أو غيرها.

سجد الفقر المدقع في بلد يسكنها مزارعون وصيادون وطحّانون. يعانون البلايا الشديدة من متوليا الخراج : أحمد بن الأسبط وإبراهيم بن تميم ؛ فكانوا (يعذبونهم بعذاب شديد مثل بني إسرائيل إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب ، لأنهم كانوا يربطونهم في الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب وكان الذي يعذبهم رجل اسمه غيث وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت)^١ ؛ فسبب ثورة البشمويين — لدى ساويروس — هو عسف جباة الخراج، وإهانته لسكان البلاد ، وتحميلهم ما لا يطيقون ، وبالتالي لم يكن أمامهم بدّ من المقاومة.

أما المقريري ومن خلفه العقل العربي : فيرى أن سر ثورات هؤلاء القوم يرجع إلى غلظتهم الناتجة عن خشونة الطعام وخشونة المياه والبيئة الجافة ؛ وكلها عوامل طبيعية انطبقت على أماكن أخرى ولم تؤد إلى تفجير الثورة.

وعلى أية حال ، إذا كانت خشونة أهل البشمور لا تعجب العرب ؛ فإن سهولة أهل تيس لا تعجبهم أيضاً ، ولكن لأسباب أخرى عكسية ؛ فالمقريري يصف أهلها بالميوعة وانتقاء الرجولة والتخنث ؛ حينما يقول :

١- ساويروس بن المقفع : ص ٢٦٨ (في زمن الأتيا يوساب).

(أخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة قال أبو السري الطبيب أنه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث)^١.

وإن شئنا الدقة سنجد أن ميوعة الخلق لا يقصرها المقريري على أهل تنيس فقط ؛ بل إنه يصف أهل مصر جميعاً بقلّة الغيرة على نساءهم في محاولة لتصوير المصري بارد الدم والأعصاب ، لا يحرك ساكناً للدفاع عن بيته ونسائه ضد الغرباء ، في مقابل دماء العرب الحارة وغيرتهم الشديدة على النساء التي تصل إلى حد منعهم من الخروج والاختلاط بالرجال وتحجيبهم عن جميع الأنظار . مما يعكس وجهة نظر السادة العرب – النافية للرجولة عن المصريين في مقابل تأكيد رجولة وفحولة العربي الذي يضع نساءه في مرتبة واحدة مع ممتلكاته السرية ؛ حيث تتعايش جميع الأمراض السلوكية والنفسية خلف الأستار ، وأي إخلال بهذا السد المنيع يقتضي الغضب وسوء الظن بالنساء .

ويحكي المقريري حكاية أسطورية عن هلاك جميع الرجال المصريين زمن قدماء المصريين مع فرعون أثناء عبوره البحر ، حتى لم يعد إلا العبيد ، ولم تستطع النساء الصبر على الحياة دونما علاقات مع الرجال (فطفت المرأة تعنق عبدها وتتزوج وتتزوج الأخرى أجبرها وشرطن علي الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن فأجابوهن في ذلك فكان أمر النساء علي الرجال)^٢.

من يومها ونساء مصر يسيطرن علي الرجال ، أو كما يقول يزيد بن حبيب ؛ أحد رواة الحديث : إن نساء القبط علي شرطهن للقديم حتى زمن كتابة تلك الحكاية في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فهن علي سنة

١- المقريري : ص ١٧٧.

٢- المقريري : ص ٣٩.

أسلافهم يقهرن الرجال ويخضعهم حتى أن الرجل لا يبيع ولا يشتري إلا بأمر زوجته .

وبذلك نجد العقل العربي يقبل الأوضاع ويصور الأمر وكأن شخصية المرأة المصرية تطغي على الرجل فيكون هو الأضعف .. الأعجز عن التصرف في شيء إلا بالرجوع إليها ، في مقابل صورة العربي الفحل قاهر النساء كثير الزواج .. كثير الجواري والحريم ، الذي يتفاخر بقدرته على كثرة الجماع ، وتمتلى كتب التاريخ العربي بمثل هذه الحكايات التي تنافس حكايات الأدب المكشوف ، وتفوقها، كما تحفل السير الشخصية للكثيرين منهم بكم هائل من وقائع التزوج والتسري والتعامل مع النساء باعتبارهن مجرد أدوات للذة الحسية .

وهكذا كتب المؤرخون العرب تاريخ مصر من وجهة نظرهم ، ونعتوا فيه المصريين بأشد الصفات سوءاً حينما تحدثوا عن أخلاق وعادات وصفات المصريين ؛ ففسروا سمرة المصريين (بأنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الفرق واستولدوهن)^١ .

وتموا أخلاقهم بدعوى أنه : (يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وطمع الناس، وبالجمله فيغلب عليهم الشر والذنية التي تكون من ذناء النفس)^٢ .

بينما يري العرب أنفسهم أنهم : (أتم الناس عقولاً وأحلاماً وأطلقهم السنة وأوقرهم أفهاماً . واستتبع ذلك لهم كل قضية وأورثهم كل منقبة جليلة)^٣ .

١- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ص ٤٩ .

٢- المقرئزي : المواعظ والاعتبار .

٣- الألويسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، الجزء الاول ، ص ١٤٤ .

أما نساؤهم فيقدمون صورهن علي أنهن : (أعنف النساء ولباسهم أفضل اللباس)^١.

وفي المسافة بين الصورتين — صورة السادة الأشراف العرب الحاكمين وصورة الشعب المصري المحكوم — تراوحت اللغة العنصرية وصارت سجيئة مشنقات " أفعل التفضيل " وبموجبها احتكر العرب صفات أحسن وأشرف وأتم وأعقل وأبلغ وأحلم ، وغيرها من الصفات التي كانت يوميات الحرب والحكم تترجم وجهها العكسي .

وانحصر المصريون في الوضع الدوني ، والتصقت بهم صفات الشر والدنية ودناءة النفس .

وبناءً علي هذا المنطق القائم علي دعائم التفوق والصلاحية الطبيعية : رستخ العرب سلطتهم وهيمنتهم علي الشعب القبطي الأعزل .

وظل المصريون يعانون من هذا الوضع ، أو كما يقول ابن ظهيرة :
(لم تزل ملوك مصر من بعد عمرو بن العاص / وإلى وقتنا هذا يجمع كل واحد منهم أموالاً عظيمة لا تدخل تحت الحصر . وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون علي اختلاف طبقاتهم كل منهم يأخذ أموالاً لا تحصى في حياته.)

هوامش الفتح العربي لمصر

الفصل الخاص بأحداث الفتح العربي لمصر

بوثيقة يوحنا التقيوسي والواردة

برسالة الدكتور عمر صابر ص ١٧٢

سار المسلمون إلى الصحراء ، وأخذوا كثيراً من الخراف والظباء من الجبل ، ولم يعرف أهل مصر هذا ، وعندما ساروا إلى مدينة البهنسا جاء كل الجنود الذين كانوا عند شاطئ البحر مع يوحنا ، ولم يستطيعوا أن يأتوا في هذا الوقت إلى مدينة فيوم .

وسمع تاودسيوس الحاكم بمجئ الإسماعيليين وكان يسير من مكان إلى مكان ليري ما سيكون من هؤلاء الأعداء . وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة .

وفي الحال فتحوا المدينة وكل من جاء إليهم قتلوه ولم يرفقوا بأحد لا شيخ ولا طفل ولا امرأة . وأتوا إلى يوحنا الحاكم ، فأخذ الأفراس واختبئوا في الحظائر والمزارع حتى لا يعرفهم مبغضوهم ونهضوا ليلاً وساروا إلى النهر العظيم في مصر عند أبويط حتى ينجوا . إن هذا كان من الرب .

وأخبر رئيس العصابة الذي كان مع أرمياس قادة الإسلام بأمر جماعة الروم الذين اختبئوا ، فقبض هؤلاء عليهم وقتلهم . وتناهي هذا الخبر إلى تاودسيوس القائد وأنسطاسيوس وكانا بعيدين عن مدينة نقيوس بمقدار اثني عشر ميلاً فتوجهوا في الحال إلى حصن بابليون وبقياً هناك ، وأرسل لوندسيوس الحاكم إلى مدينة أبويط وكان هو بدين الجسم ليست به قوة ، لا يعرف شأن الحرب وعندما وصل وجد جنود مصر وتيودور يقاتلون الإسلام ، وكل يوم يأتي من مدينة الفيوم ليستولي على المدينة وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابليون ليخبر السادة . وصار نصف الجنود مع تيودور . وبحث تيودور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر . وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعه في نعش وأرسله إلى السادة ، فأرسله السادة إلى هرقل .

ومن بقي بمصر كان يهتم بأن يتحصن بحصن بابلون . وكذلك كانوا ينتظرون تيودور الحاكم ليتلاقوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعوا الحرب ، ثلثا يتلف زرعهم فيموتون جوعاً مع صغارهم وحيواناتهم .

الباب السابع والأربعون

وذلك في أمر وصية الملك .

وكان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة ، وجاء تيودور والسادة وجاء تيودوسيوس وأنسطاسيوس كلاهما إلى مدينة أون ممتطين فرسين مع كثير من المشاة ليحاربوا عمرو بن العاص والإسلام (والمسلمون) لم يكونوا يعرفون مدينة مصر من قبل وتركوا المدينة الحصينة وجاءوا إلى مكان يدعي طنذونياس وساروا بالسفن في النهر ، وكان عمرو ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر وكان حزين القلب لانفصاله عن جنود الإسلام . وكانوا منقسمين قسمين شرقي النهر ، وساروا إلى مدينة تدعي عين شمس وهي أون التي كانت أعلي الجبل .

وأرسل عمرو بن العاص رسالة خطية إلى عمر بن الخطاب في مدينة فلسطين قائلاً إذا لم ترسل عوناً من المسلمين فلن يستطيع الاستيلاء على مصر ، فأرسل هذا إليه أربعة آلاف محارب مسلم ، وقائدهم اسمه (والواريا) من سلالة البربر ، وقسم المحاربين الذين معه إلى ثلاثة أقسام ، قسماً منه جعله عند طنذونياس ، وقسماً آخر جعله عند شمال بابلون مصر واستعد هو مع القسم

الثالث عند مدينة أون وأمرهم هكذا وقال لهم : انظروا : إذا جاء جيش الروم لقتالنا فقوموا أنتم من خلفهم ، ونحن كذلك نكون أمامهم وندخلهم بيننا ونقتلهم . وعندما خرج جنود الروم من الحصن دون أن يعرفوا ليحاربوا الإسلام حينئذ برز هؤلاء المسلمون من خلفهم كما دبوا ، وكان بينهم قتال عظيم . وعندما تكاثر المسلمون عليهم فر جنود الروم وساروا بالسفن ، واستولي محاربوا الإسلام علي مدينة طندونياس لأن الجنود التي بها فنوا ، ولم يبق منهم سوى ٣٠٠ جندي ، وهؤلاء فروا ودخلوا الحصن وأغلقوا الباب عليهم ، وعندما رأوا هذا القتل العظيم الذي حدث خافوا وفروا بالسفن إلى نقيوس في حزن شديد وأسف . وعندما سمع لمنديوس بمدينة فيوم هذا ، نهض ليلاً دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام ، وسار بالسفينة إلى نقيوس . وعندما عرف المسلمون أن دمنيانوس هرب ساروا في ابتهاج واستولوا علي مدينة فيوم وبويط ، وأراقوا بها دماً غزيراً .

الباب الثامن والأربعون

وعندما استولي المسلمون علي فيوم وكل ضواحيها أرسل عمرو إلى أبا كيري في مدينة دلاس ليأتوا بسفن الريف لتتقل الإسماعيليين الذين كانوا غربي النهر إلى الشرق وجمع إليه كل الجنود ليشتنوا كثيراً من الحروب وأرسل إلى جيورجيس الوالي ليشيد له قنطرة عند النهر بمدينة فيلوب ليستولي علي كل مدن مصر ومدينة أتريب كذلك وكورديس وأخذوا يعينون الإسلام ، فاستولي علي مدينة أتريب ومنوف وجميع ضواحيها . وكذلك شيد جسراً علي النهر عند بابلون بمصر حتى لا تمضي السفن إلى نقيوس وإسكندرية وأعلي مصر ، وحتى تعبر

الأفراس دون مشقة من غرب النهر إلى الشرق وحاز كل مدينة مصر ولم يكف عمراً ما صنع بل قبض علي حكام الروم وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالاً كثيرة بعنف ، وضاعف فرض الضرائب علي العمال وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم ، وارتكب أثاماً كثيرة لا تحصى .

وهرب من كانوا بمدينة نقيوس من السادة ، وساروا إلى مدينة إسكندرية وتركوا دمنودوس مع قليل من الجنود ليحموا المدينة ، وأرسلوا كذلك إلى دارس رئيس حكام مدينة سمنود ليحمي النهرين .

وبعد هذا حدث خوف عظيم في كل مدن مصر ، وكان أهل المدينة يهربون ويلجئون إلى مدينة إسكندرية ، وهجروا كل أموالهم وخزائنتهم وحيواناتهم .

الباب التاسع والأربعون

وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحيين وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس ، احتاز الإسلام كل أموال المسيحيين الذين فروا ، وكانوا يدعون عبيد المسيح أعداء الله . وترك عمراً كثيراً من آله في حصن بابلون بمصر وسار هو شرقاً إلى تيودور الحاكم ناحية كلا النهرين الذي بقيري وسنفرى ليستوليا علي مدينة سمنود ، وليقاتلا الإسلام (المسلمين) وعندما بلغا مجمع الأقوام أبي جميع الأحزاب حرب الإسلام ، فجمع هذان أناساً وقتلوا كثيراً من المسلمين الذين كانوا معهم ، ولم يستطع المسلمون أن يلحقوا ضرراً بالمدن التي تقع علي كلا النهرين لأن المياه كانت حاجزاً ، ولم تستطع الأفراس أن تدخل إليها لكثرة المياه التي تحيطهم ، فتركوها وساروا إلى مدينة ريف ، وجاءوا إلى مدينة بوصير ، فحصنوا المدينة والطرق التي استولوا عليها من قبل .

ومن هذه الأيام قُتِمَ تيودور الحاكم إلى كلاجي ودعاه قاتلاً : عد إلينا وعد إلى الروم . ووهب كلاجي تيودور كثيراً من المال خوفاً منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئتين في إسكندرية . وطيب تيودور الحاكم قلب كلاجي فنهض هذا ليلاً والمسلمون نائمون ، بينما يسير علي قدميه مع آله ، وجاء إلى تيودور الحاكم، ومن ثم ذهب إلى مدينة نقيوس وانضم إلى منديانوس لحرب الإسلام . وبعد هذا فكر سبنديس فكرة حسنة فهرب من أيدي المسلمين ليلاً وسار إلى مدينة دمياط حيث يوحنا الوالي ، لإرساله هذا إلى مدينة إسكندرية مع رسالة خطية معترفاً بخطئه لدي السادة مع عزيز من النوع قاتلاً : هكذا هذا العمل الذي عملته بسبب الغرور والخسران الذي أصابني من يوحنا دون خجل بعد الشخوخة، ولهذا انضمت إلى المسلمين . وقبل هذا بذلت جهدي مع الروم .

الباب الخمسون

ومكث عمرو رئيس المسلمين اثني عشر شهراً يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح منهم . وفي الشهر الخامس عشر القمري وعندما جاء الصيف سار إلى مدينة سكا ونوخود ومصاي مغضباً لقتالهم المصريين قبل أن يفيض ماء النهر ولم يستطع أن يلحق بهم ضرراً ، وفي مدينة دمياط كذلك لم ترض عنه ، وأراد أن يحرق زروعهم بالنار ، وبدأ يسير نحو جنوده الذين كانوا في حصن بابلليون بمصر ، وأعطاهم كل الغنائم التي أخذها من مدينة إسكندرية وهدم بيوت السكندريين الذين هربوا وأخذ أخشابهم وحديدتها وأمر أن يمهّدوا طريقاً من حصن بابلليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار ، وعندما سمع أهل المدينة (هذا) أخذوا أموالهم وفروا تاركين مدينتهم خاوية ، وأحرق المسلمون هذه المدينة ، خرجوا ليلاً وأطفئوا النار .

وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها ، وسلبوا أموال المصريين والحقوا بهم ضرراً.

ولم يستطع تيودور الحاكم ولومنديوس أن يلحقا أذى بأهل المدينة لأن الإسلام كان بينهم.

وغادر عمرو المدينة بحري مصر وسار إلى ريف ليحاربها وأرسل قليلاً من المسلمين إلى مدينة أنصنا ، وعندما رأى المسلمون متاعب الروم وكراهيتهم لملك هرقل ، للنفي الذي أحدثه في كل مدينة مصر ، للعقيدة الحقبة بفضل كيرس البابا الخلقيدوني تقووا وتشددوا في الحرب.

وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين ، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده ، وجمع كل مال الضرائب من المدينة وسار إلى مدينة الإسكندرية لأنه عرف أنه لا يستطيع مقاومة المسلمين ، وحتى لا يحدث له ما حدث لأهل فيوم ، فإن كل أهل المدينة خضعوا للإسلام وقدموا له الضرائب ، وكل من وجدهم من جنود الروم كانوا يقتلونهم.

وكان جنود الروم في أحد الحصون فحاصروهم المسلمون ، وأخذوا منجنقاتهم ودمروا مساكنهم وأخرجوهم من بين الحصون ، وحصنوا حصن بابلليون واستولوا على مدينة نقيوس وحصنوا داخلها.

الباب الحادي والخمسون

وكان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم ، ويوحنا الحاكم للذين قتلها المسلمون ، وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك — مرض هرقل بمرض الحمى ومات في العام الحادي والثلاثين من حكمه في شهر يكاينيت عند المصريين وفي

شهر فبراير عند الروم في الرابع عشر من دورة القمر ، وفي عام ٣٥٧ من تاريخ دقلديانوس.

وكان الناس يقولون : إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك، إحداهما صورته والآخران صورتا ابنيه ، واحد من الجهة اليمنى والآخر من اليسرى ولم يجدوا مكاناً يكتبون فيه اسم مملكة الروم ، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاثة.

الباب الثاني والخمسون

وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابلين ، وحاصر الجنود الذين كانوا به وتسلموا رسالة من لدنه ، ألا يقتلهم وان يتركوا لهم كل عدة الحرب وهي كثيرة. ثم أمرهم أن يخرجوا من الحصن فأخذ هؤلاء قليلاً من الذهب وساروا. وبهذا المنوال تسلم حصن بابلين بمصر في اليوم الثاني من (عيد) القيامة وجزاهم الرب لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة لمن يؤمنون به ، ولهذا جمعهم الرب بعدهم. وفي يوم عيد القيامة المقدسة هذا أطلقوا المسجونين الأرثوذكسيين ولم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى ، بل أساعوا إليهم وقطعوا أيديهم وكان هؤلاء ييكون ودمعهم يسيل على وجناتهم ، واحتقروهم في هذا اليوم كما هو مكتوب في شأن هؤلاء النجسين...

الباب الثالث والخمسون

وعندما استولى المسلمون على حصن بابلين وعلى نقيوس كذلك. كان لدى الروم حزن عظيم. وعندما أنهى عمرو أمر الحرب دخل حصن بابلين ، وجمع كثيراً من السفن العظيمة والصغيرة وربطها عند الحصن الذي صار به. وأما ميناس الذي كان رئيس العمال ، وقسما بن صمويل مبعوث الألوانطس فقد حاصروا مدينة مصر وضايقا الرومان أيام المسلمين ، وصعد المحاربون بالسفن ناحية غرب النهر في عظمة وفخامة ، وكانوا يتحركون ليلاً. وكان عمرو ومحاربوا المسلمين ممتطين أفراساً ، يسرون برأ حتى وصلوا إلى مدينة كبرياس في أباديا ولهذا السبب حارب نمندوس الحاكم. وعندما عرف أن محاربي المسلمين اقتربوا منه صعد إلى سفينة ، وهرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم وكان يريد أن يعبر إلى نهر صغير حفره هرقل في أيامه . وعندما وجده مغلقاً ذهب ودخل مدينة إسكندرية . ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر ، تركوا عدة حربيهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر ، ولم ينجو منهم سوى رجل واحد فقط اسمه ذكريا ، وهو قوي محارب وعندما رأى ملاحو السفن فرار الجنود هربوا هم ودخلوا مدينتهم . ثم دخل المسلمون نقيوس واحتلوها ، ولم يجدوا أحداً من المحاربين . وكانوا يقتلون كل من وجده في الطريق وفي الكنائس ، رجلاً ونساء وأطفالاً ولم يشفقوا علي أحد . وبعد الاستيلاء علي المدينة ساروا إلى أماكن أخرى ونهبوها وقتلوا كل من وجدوا ووصلوا إلى مدينة قصا فوجدوا اسقوطاوس ومن معه موجودين في ساحة الخمر فقبض عليهم المسلمون وقتلوه ، وكانوا من أقارب تيودور ولنصمت الآن فإنه لا يستطيع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا علي

جزيرة نقيوس في يوم الأحد الثامن عشر من شهر جنבות في الخامس عشر من الدورة .

وبتعب كثير ومشقة أسقطوا سور المدينة واستولي عليها في الحال وقتلوا آلافاً من أهل المدينة والجنود ، ونهبوا كثيراً من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال ، وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه فقيرة .
وبعد قليل سار المسلمون إلى مدينة قبروس وقتلوا إسطفانوس ومن معه .

الباب الرابع والخمسون

وكانت مصر كذلك مستبعدة للشيطان . وكان بين أهل (الوجه) البحري خصومة شديدة وانقسموا قسمين : قسماً انضم إلى تيودور وقسماً آخر أراد أن ينضم إلى المسلمين ، وفي الحال نهض قسم علي آخر ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم بالنار ، وكان المسلمين يخشونهم فأرسل عمرو مسلمين كثيرين إلى إسكندرية ، واستولي علي كريون وهي خارج المدينة ، وهرب تيودور مع جنوده ، وكان في هذا المكان ، وجاء إلى مدينة إسكندرية ، وأخذ المسلمون يحاربونهم ، ولم يستطيعوا الاقتراب من حصن المدينة بينما كانوا يقذفونهم بالأحجار من أعلي الحصن ، وأبعدوهم حتى خارج المدينة .

وكان أهل مصر يحاربون أهل (الوجه) البحري ويختلفون (معهم) كثيراً وكان قليل عقدوا سلاماً . وعندما انتهى بغضهم أنشأ الشيطان بغضاً آخر بمدينة إسكندرية فإن دومنديانوس الحاكم وميناس القائد تباغضا فيما بينهما من أجل الرياسة وأسباب أخرى .

وكان تيودور القائد يلتقي بميناس ويكره دومنديانوس لفراره من نقيوس وتخليه عن الجنود .

ثم نهض كيرس البابا وسار إلى بابلون حيث المسلمون ، راجياً أن يعمل سلاماً وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر . فرحب عمرو بمجيئه وقال له : حسناً فعلت بخروجك إلينا فأجاب كيرس وقال له : ومنحكم الرب هذا البلد ، من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومه وحدثوا عبء الضرائب التي تؤدي ، ولم يقل هؤلاء الإسماعيليون شيئاً ما . ومكثوا منفردين أحد عشر شهراً . ورحل الروم الذين كانوا بإسكندرية . أخذوا أموالهم وخزائنها وساروا بحراً ولم يعد أحد ثانية من جنود الروم . ومن كانوا يريدون المسير براً كانوا يؤدون الضرائب كل شهر . وأسر المسلمون لديهم ١٥٠ من الجنود و ٥٠ من أهل المدينة رهينة وعقدوا سلاماً وكف الروم عن حرب المسلمين ، والمسلمون عن الاستيلاء على الكنائس ولم يقربوا شيئاً ما من عمل المسيحيين وتركوا العبرانيين يقيمون بمدينة إسكندرية .

ولما انتهى البابا سار إلى بلدة إسكندرية ، وقال لتيودور ولقسطنطين القائد أن يقولوا هذا للملك هرقل ، ويؤيدوه عنده . ثم اجتمع لديه كل الجنود والسكندريين و تيودور القائد . وسجدوا لكيرس البابا ، وقال لهم كلهم : إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل . وحين صار (الأمر) هكذا جاء المسلمون لأخذ الضرائب وأهل إسكندرية لا يعلمون . وعندما رآهم السكندريون استعدوا للحرب غير أن الجنود والقادة جلسوا للتشاور ، وقالوا نحن لا نستطيع حرب المسلمين ، بل يكون كما قال كيرس البابا ، وأراد شعب المدينة أن يثوروا على البابا وأرادوا أن ينفذوه بالأحجار ، وهو يقول لهم :

إنما صنعت هذا لإنقاذكم مع أبنائكم ، واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن ، فاستحي منه السكندريون وأعطوه ذهباً كثيراً ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددها عليهم . وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين . وسألوا الباب وقالوا له : تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلدنا ونخضع لهم .

فعمل لهم كما قالوا ، واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوباً وشمالاً وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال .

وكان رجا اسمه ميناس قد عين من قبل هرقل الملك علي (الوجه) البحري ، كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب ، يكره المصريين جداً. وبعد أن أخذ المسلمون كل البلد أبقوه في وظيفته وعينوا رجلاً اسمه سينودا في بلاد الريف ، وآخر اسمه فيليكسانوس عينوه في مدينة أرجاديا التي هي فيوم ، وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين ويكرهون المسيحيين ويضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان ، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات وبأعمال أخرى كثيرة . وهذا كله كان مضافاً إلى الطعام هؤلاء كانوا يفعلون هذا خوفاً دون توقف .

ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويل جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابلون بمصر حتى البحر الأحمر . وحملوا المصريين نيراً أثقل من نير فرعون الذي فرضه على إسرائيل الذي حكم عليه الرب حكم الحق وأغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان .

ولما كان حكم الله علي هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون أولاً بل بسبب خطيئتنا صيرهم ليصنعوا بنا مثل هذا ، وبالروح الطويلة لإلهنا

ومخلصنا يسوع المسيح يرانا ويحفظنا ، ونؤمن أيضاً بأنه يهلك أعداء الصليب ، كما يقول الكتاب .

وألحق عمرو الخسران ببلاد مصر ، وأرسل أهلها ليحاربوا أهل المدن الخمس ، وبعد الانتصار عليهم لم يتركهم يقيمون هناك ، وأخذ هو منها كثيراً من الغنائم والأسرى وسار أبو ليانوس وإلى المدن الخمسة والجنود الذين معه وأغنياء المدينة إلى مدينة دوشرا لأن جدارها منيع ، وأغلقوا الأبواب عليهم ، وسار المسلمون آخذين الغنيمة والأسرى إلى بلدهم .

وكان الباب كيرس أسيف القلب كثيراً للبؤس الذي كان ببلد مصر ولم يشفق عمرو علي المصريين ، ولم يعمل بما تعاهدوا معه لأنه كان من نسل البربر . ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات في اليوم الخامس للفرح ، في الخامس والعشرين من شهر مجابيت ولم يشهد عيد القيامة المقدسة لسيدنا يسوع المسيح .

وبعد هذا قام تيودور الحاكم وقسطنطين رئيس الجيوش والجنود الباقيون وكذلك الجنود الذين كانوا رهينة في يد المسلمين ، وصعدوا في سفينة جاءت إلى مدينة إسكندرية . وبعد عيد الصليب عينوا الدياقون بطرس بطريكاً في العشرين من حملي من عيد القديس تيودور الشهيد وأجلسوه علي كرسي البطريركية وفي العشرين من شهر مكرم قام تيودور مع كل الجنود والرؤساء وسار إلى جزيرة قبرس وترك مدينة إسكندرية ومن ثم دخل عمرو رئيس المسلمين دون تعب مدينة إسكندرية واستقبله أهل المدينة بتعظيم لأنهم صاروا في فقر وبلاء شديد .

الباب السادس والخمسون

ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم في العام ١٣٠٥ إلى كنائسه وزارها كلها . وكان كل الناس يقولون هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس وهلك الروم لهذا السبب ، وساد المسلمون مصر .

وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله ، ويأخذ الضرائب التي حددها ، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً ، وحافظ عليها طوال الأيام . ولما استولى علي مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابساً كما تعلم من تيودور العاصي وزاد الضرائب قدر اثنين وعشرين عصاً من الذهب ، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون .

وفي العام الثاني من دورة القمر جاء يوحنا الدمياطي الذي عيّن من لدن تيودور الحاكم وعاون المسلمين حتى لا يدمر المدينة ، ونصب في مدينة إسكندرية وقت دخول عمرو إليها . وأشفق يوحنا هذا علي الفقراء وأعطاهم مالاً كثيراً من ماله . وحين رأى بؤسهم أشفق عليهم ، وكان يبكي ألماً لما أصابهم وأقصي عمرو ميناكس وعين يوحنا بدله ، وميناكس هذا زاد علي المدينة الضرائب التي حددها عمرو ٢٢،٠٠٠ (اثنين وعشرين ألفاً) دينار ذهب وما فرضه العاصي كان ٣٢٠٥٧ (اثنين وثلاثين ألفاً وسبعة وخمسين) دينار ذهب وجعلها للإسماعيين ولم يستطع أحد التحدث عن البكاء والنواح الذي كان في هذه المدينة حتى قدموا أبناءهم بدلاً من الآلاف التي كانوا يقيمونها كل شهر ، وانعدم من يساعدهم

وقطع الرب رجاءهم (ورد المسيحيين إلى يد أعدائهم) لكن رحمة الرب القادرة
تلتحق بالخسران بالذين يحزنوننا*.

.....

.....

.....

هوامش الفتح العربي لصر

رحلة الانصهار

مقدمة بعد الرحيل

حكايات الدخول ، كان الجزء الأول من هوامش الفتح العربي لمصر والآن ، فإن رحلة الانصهار هي الجزء الثاني من هوامش الفتح. والمادة التي جُمعت ، والمراجع التي رجعت إليها المؤلفة ، تدل على أنه كان مشروعاً طموحاً ، ولكن كان للقدر كلمة أخرى ، هو الآن مشروع لم يكتمل ، ولكنه برغم ذلك — وبحالته هذه التي ينشر بها في هذا الكتاب — بحث مهم جداً للمؤلفة ، تعتقد أن الحقيقة وحدها ثورية بطبيعتها وأنها الأولى بالإتباع لكل باحث نزيه

وقصة هذا الكتاب تبدأ بحافظة جلدية لونها نبيتي ، كانت سناء تصطحبها معها في جولاتها في مكتبات مدينة القاهرة ، وتجمع فيها «كروت» بحثها ، في هذه الحقيقة وجدنا مادة غزيرة مُسجلة على «كروت» البحث ، أول ما فعلناه ، هو أننا سجلنا المراجع المهمة والعديدة التي رجعت إليها الباحثة ، ثم بدأنا في قراءة «كروت» البحث حتى نكون في الصورة — كما يقولون — وكان من عادة سناء أن تكتب المسودة الأولى في أثناء جمع المادة ، لذلك وجدنا كراساً من كرايس تلامذة المدارس منقطاً بزهور صغيرة بنية اللون ، وفي الوسط رسم لقلب باللون الأحمر مكتوب عليه بالفرنسية Coeur de Provence في هذا الكراس كتبت سناء سبعين صفحة تمثل بعض فصول كتابها ، ورقمتها من أول صفحة مباشرة من ١ إلى ٦٩ ، وعلى باطن غلاف الكراس كتبت مقدمة قصيرة ولكنها شافية. واضح أن كل هذا كان مسودة أولى لبعض الفصول وعلى أحد «كروت» البحث ، تصحح سناء خطأ تاريخياً وقعت فيه الكاتبة سلوي بكر في رواية البشموري ، وعلى أربع صفحات فولسكاب وضعتها سناء وسط الكراس ، كان هناك بحث عن المكان الأصلي للبشموريين . ناقشت فيه ما اختلف عليه الباحثون

الجُند والمؤرخون القدامى حول الموضوع الجغرافي للبشامرة ، ووصلت لنتيجة تحدد فيها موقعهم بدقة .

في هذا الكتاب ، ننشر المخطوطة الأصلية كما هي دون أي تدخل من جانبنا ، ونلحقها بملحق (١) وفيه تصحيحها لسلي بكر ، وملحق (٢) وفيه بحثها عن موقع البشموريين ، كما ننشر الخرائط التي جمعتها سناء ، وكذلك الجداول التي جمعتها والتي وضعتها ، وفي آخر الكتاب ننشر أسماء المراجع التي رجعت إليها ، أي أننا لم نفعل سوى نشر ما كتبته سناء ، حتى الملاحظات في الهوامش هي لها ، فيما عدا عدد قليل من الملاحظات ، رأينا أن نضيفها من جانبنا ، ووقعنا بجانبها بالحرفين (و،أ).

وبرغم أن هذا المشروع لم يكتمل ، فنحن نعتقد أنه عمل رائع ، ينبض بنبض كاتبه جسور ، لم تهتم أبداً بشيء في هذه الحياة سوى بالحقيقة ، وكانت منسجمة مع نفسها حتى النهاية ، وكل من يقرأ كتابتها ، يلمس هذه الروح السارية في سطورها ، حيث يصبح التاريخ ، ليس مادة ميتة مملة ، بل حياة تتخلق أمام أعيننا ، تنبض وتنشع حماسةً ، وتتألق وعياً .

وفي النهاية ، البحث أمام القارئ ليحكم عليه ولا ننسى هنا أن نوجه شكرنا وامتناننا إلى الآنسة مها العوضي ، التي بإخلاصها المعهود وجديتها ، بذلت معنا مجهوداً كبيراً في نسخ المخطوطة الأصلية بخط واضح حتى يُمكن طباعتها ، وكذلك أسهمت في تكملة البيانات الناقصة لبعض المراجع.

وفاء المصري

إبراهيم الباز

مقدمة رحلة الإنصهار

مرة أخرى، ليس هدفي من مواصلة البحث في تاريخ فتح مصر وما تلاه من الحكم العربي لمصر إبراز مساوئ الفتح والحكم كما قد يتصور البعض، ولا الانتصار للشعب القبطي كما يتصور البعض الآخر.

ولكنني قصدت البحث عن إجابة لسؤال شغلني كثيراً، كيف حدث الانصهار بين العرب الوافدين من الشرق، والمصريين المقيمين في الأرض؟ فتغيرت اللغة والدين والمعتقدات وأصبحت شعباً واحداً ممتزجاً لا تستطيع أن تميز أحد عنصريه عن الآخر إذا ما سنحت لك الفرصة ورأيت مجتمعا في مكان عام.

وبالتأكيد فإن رحلة الانصهار لم تكن سهلة يسيرة، وإنما مرت بأطوار العنف حيناً، والمهادنة حيناً آخر، القمع والسياسة، الضغط والبحث عن طريق للتفاهم، الصراع والملاينة، الرفض والقبول، ثنائيات كثيرة وطويلة استغرق الصراع بينها عدة قرون لا يجب الاستهانة بها في تاريخ أمة، ولذلك فإن الكتابة عن أحدها دون الآخر هو الظلم بعينه، الكتابة عن غنائيات التسامح الإسلامي القادم على صهوات الجياد دون النظر إلى حالة الشعب المقيم، خلل في التفكير يؤدي غالباً إلى نتائج ظالمة، والتأثر فقط ببيكائيات الشعب المهزوم خلل آخر يعوق فهم الحالة ويتركنا أسرى حالة عاطفية مشوهة ومنقوصة.

مائة سنة مقاومة

ربما أكثر من مائة عام ، دخل قبط مصر خلالها في ثورات متتالية ضد حكامهم من العرب، ولأنها كانت ثورات كبيرة لم يستطع المؤرخون العرب إغفالها وإن حاولوا التقليل من شأنها بذكرها عرضاً في جملة أو جملتين تبدأ عادة بكلمة « انتقض » القبط التي هي من نقض العهد، وكأنه كان هناك إجماع على عهد ما متفق عليه بين القبط المحكومين من جهة والعرب الحاكمين من جهة أخرى، ويمكننا تتبع هذه الثورات من خلال كتابات ثلاثة مؤرخين كبار، اثنان منهما عريبيان والثالث قبطي وهم على التوالي :

الكندي وابن المقفع^١ والمقرئزي، فالكندي هو أول المؤرخين العرب الذين وصلت إلينا كتاباته عن هذه الثورات، بعد أن تجاهلها ابن عبد الحكم في كتابه « فتوح مصر وأخبارها » كما تجاهلها غيره.

وقد ولد أبو عمر محمد بن يوسف الكندي عام ٢٨٣هـ في الفسطاط لأسرة عربية تنتمي إلى عشيرة تجيب من قبيلة كندة، وأسرته لم تقطن الريف كما فعل كثير من الأسر في القرن الثالث الهجري، بل ظلت تتخذ من الفسطاط مقاماً لها، فنشأ الكندي في كنف الأرستقراطية العربية وتلقى علوم القرآن والحديث والفقه والسير وغيرها من علوم العرب كشأن جميع أترابه في ذلك الحين، وقد تتلمذ على يد ابن قديد المؤرخ الذي كان قد تولى الرواية مباشرة عن ابن عبد الحكم^٢ وتوفي عام ٣١٢هـ.

١- نقصد ساويرس بن المقفع (و، أ).

٢- وربما كان لابن الحكم تأثير غير مباشر في حفظ تاريخ ثورات مصر ورواياتها شفاهة دون تدوينها.

ومصادر الكندي جميعاً في كتابه «الولاية والقضاء» من العرب مثل الليث وابن لهيعة ويحيى بن عثمان وابن عفير وغيرهم، وقد بدأ الكندي الإشارة إلى ثورات القبط منذ عام ١٠٧ هـ في معرض حديثه عن ولاية الحر بن يوسف وما وقع فيها من أحداث، أما ساويرس بن المقفع صاحب كتاب «سير الآباء البطارقة» فهو كما رأينا في الكتاب السابق صوت رسمي للكنيسة المصرية، وحياته بدأت بين سنتي ٩٠٥ - ٩١٠ م وتربى تربية دينية ثم التحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية حتى أصبح كاتباً ماهراً في ديوان الخليفة، ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة، ثم أصبح أسقفًا على مدينة الأشمونيين وغير اسمه فُعرف بأنبا ساويرس وله كتب كثيرة وقد جمع ساويرس سير بطارقة الكنيسة من الأديرة المختلفة وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد لأنه كما يقول : [إنه لواجب علينا الاستقصاء والبحث عن جميع سير البيعة كما كان آباؤنا المتقدمون يفعلون] .

وقد نقل ساويرس عن مقاره الراهب ونقلًا عن يوحنا ابن أبي موسى أسقف وسيم ويوحنا ابن الرعد وغيرهم . وسنري عند مقارنة تواريخ الكندي بتواريخ ساويرس بن المقفع اتفاقهما العجيب فيما يخص أحداث الثورات القبطية ، علي الرغم من اختلاف مصادر كل منهما عن الآخر ، وعلي الرغم من أن أحدهما عربي المنشأ والأصول والتربية والانحياز وقد كان يعيش في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي وتوفي ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م .

والآخر قبطي المنشأ والأصول والتربية والتفكير والانحياز وقد عاش في القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري .

أما ثالث المؤرخين الذين سنعتمد عليهم فهو تقي الدين أحمد بن علي المقرئ المولود بالقرن الرابع عشر الميلادي - الثامن الهجري في حارة برجوان في القاهرة ، والمتوفي بها سنة ١٤٤٢ م (٨٤٥ هـ) وهو في سن الثمانين .

وعلى الرغم من أن أسرة المقرئ وفدت حديثاً في حياة أبيه من موطنها في بعلبك إلى القاهرة ، إلا أنه أكثر المؤرخين انتماءً إلى مصر حيث تلقى علومه بالقاهرة وتلمذ فيها عدة سنوات علي يد ابن خلدون ، ثم التحق بديوان الإنشاء بالقلعة كاتباً . وعمل بالقضاء ، ثم إماماً لجامع الحاكم الفاطمي ومدرساً للحديث ، ثم محتسباً للقاهرة والوجه البحري [واستقى المقرئ مادته تبعاً من سلسلة متصلة المصادر تبدأ بابن عبد الحكم المتوفي سنة ٢٥٧ هـ ، وتنتهي بابن المتوج المتوفي سنة ٧٣٠ هـ مسنداً كل اقتباس إلى مؤلفه : الكندي ، القضاعي ، ابن بركات النحوي ، الجاوي ، ابن عبد الظاهر ، ابن زولاق ، المسبحي ، ابن المأمون]^١ .

وقد أفرد المقرئ في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) فصلاً بعنوان [ذكر انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك] ينقل فيه عن الكندي في كتابه ولاية مصر .

وقد نقل عن المقرئ من أتى بعده من المؤرخين مثل ابن تغري بردي الأتابكي وابن إياس والسيوطي وغيرهم ، حتى إنه يعتبر عمدة المؤرخين العرب المهتمين بشئون قبط مصر متمثلاً فيما كتبه عن ثورتهم وطرق حياتهم وكنائسهم وأبائهم وكل ما يخصهم . ويبدو أن المقرئ لم يكتف بالاطلاع على كتابات من سبقوه من المؤرخين العرب ، بل تيسر له الاطلاع على كتاب ساويرس بن المقفع وربما كتابات قبطية أخرى ونقطة البدء لدي المؤرخين العربيين الكندي

والمقريزي هي عام ١٠٧ هـ زمن الانفجار الأول للثورة القبطية الكبرى . أما ساويرس فينفرد بذكر أسبابها ومقدماتها المتمثلة في ظلم وقسوة الولاة ومسئولي الخراج وشدهم في جمع المال بما لم يُسمع بمثله من قبل - وتقتضي الحال هنا أن نعود إلى النظر في أحداث الدولة الأموية وما وقع فيها على اقباط مصر - ومن خلال تتبعه لسيرة البابا الإسكندروس الثاني - البابا رقم ٤٣ - والذي انتخب بعد أن ظل كرسي البابوية خالياً بلا بطرك يرعى شئون الشعب القبطي والكنيسة الأرثوذكسية حوالي ثلاثة اعوام وحينما أُتيحت الفرصة اختار الكهنة والقسس الإسكندروس وكان راهباً في دير الزجاج : [وقد صودر مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافاً للعهد ؛ قال أصحاب التواريخ : واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرّة بن شريك أيضاً في ولايته على مصر فقتلوا وأحرقوا وخرّبوا وأراقوا الدماء بحوراً وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلتها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحناً، ورزايا ومحناً]^١.

وفصل ساويرس تلك المحن بقوله : إن قرّة بن شريك والي مصر : [أحضر البطريرك وهمّ بقتله بسبب يمينه أن ليس معه ذهب ولما أخذ منهم الأربع كيزان هرب جميع أصحاب البطريرك مثل الحواريين ذلك الزمان فلما أحضروا البطريرك إليه صرّ بأسنانه عليه وأراد قتله فمنعه الرب عنه فكتبه بالحديد وطرحه في السجن فأقام سبعة أيام ثم بعد هذا ألزمه أن يقوم بالثلاثة آلاف دينار ولحقه تعب عظيم وضيق إلى أن تخلصت له ألف دينار]^٢.

١- « الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث » لمؤلفه ميخائيل شاوريم بك رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة.

٢- ساويرس ص ١٤٥.

ولم تنته محنة البطرك بدفعه الالف دينار حيث وشى به بعض الناس وقالوا
 إن: [عنده قوماً يضربون الدنانير وإن عنده سكة] فاستشاط قرة غضباً وأمر جنده
 بالقبض على البطرك [فيما هو جالس في تاسع ساعة من النهار في بعض الايام
 يفطر ليس عنده علم إلا وقد أحاطوا بالاسقوبية وأن أهل مدينة الإسكندرية والكاتب
 بأمر قرة قد قبضوا عليه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض وضربوا أصحابه
 وعوقبوا حتى سالت دماؤهم إلى الأرض ، وكادوا يموتون من العقوبة ، ووجدوا
 ما سعوا به عليه باطلاً ^١ .

ثم جاء عيد الفصح وطلب الكهنة والشعب القبطي من البابا [أن يقوم لهم
 برسوم وديارات في ثالث عيد الفصح ، ولم يكن له شيء يدفعه لهم وكان يقول لهم
 يا إخوة قد نظرتم نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الدم الذكي
 جعلنا عوضاً من الذهب والفضة كاسات زجاج والسقاب خشباً من اجل نهب قرة
 لهم] .

وظلت محنة البطرك قائمة حتى تقدم إنسان أرخن ، والأرخن هو كبير القوم
 وسيدهم ويقصد به الغني ذا الشأن والنفوذ بين القبط ، وغالبًا ما كان أغنياء القبط
 يحتلون وظائف مهمة في ديوان الكتابة والخراج ويعملون لدى الولاة المسلمين
 لمعرفتهم بشئون البلاد وأسرارها ، فكانوا بذلك مفتاح سيطرة الحكام العرب على
 الشعب القبطي في القرى القريبة والبعيدة .

كما كانوا في نفس الوقت واسطة العلاقة بين الحكام ورجال الكنيسة . ولذلك فقد
 تقدم هذا الأرخن (السيد) واسمه يؤنس وقد [رزقه الله قبولاً عند الولاة] ويجب
 ألا ننسى أنهم نفس الولاة الذين يشتدون على الشعب القبطي وعلى رجال كنيسته
 ويسومونهم سوء العذاب ، ويؤنس الذي ارتقى بماله وارتفع فوق عذابات شعبه ،

وكان له ذلك القبول والنفوذ عند الوالي [مضى إلى قرة وقال له يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين في سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج وها هنا أمر سهل منهم من هو أكثر ومنهم من لا يقدر على قوته ونحن نعرف حال سائر النصارى فإن رأيت أن توليني أمرهم استخرجت الخراجات فولاه على الأساقفة والرهبان^١ . ومضى هذا السيد القبطي يجمع الأموال من الأديرة المختلفة مستنداً إلى قوة الحكم وجبروته، ويبدو أنه كانت تنتشر بين رهبان ذلك الحين آراء مذهبية مختلفة منها مقالات الغايانيين والشمطيركيين فقضى عليها يونس مستنداً إلى قوة الوالي ويده الباطشة.

وبرغم ما جمعه هذا الأرخن (السيد) للوالي من الأديرة والرهبان إلا أن نهم قرة إلى المال لم يُشبع ودارت دائرته على أصدقائه المتعاونين معه من الآراخنة [وكان كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله ، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتباً من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر واخذ مالههم حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع وزاد على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف وكانوا الناس يهربون ونسائهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولا يأويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم أنه ولي إنسان اسمه عبد العزيز من مدينة سخا وكان يجمع الذين يهربون من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كلمتهم إلى موضعه وكان على الناس بلايا عظيمة^٢ *

١- ساويرس

٢- ساويرس ص ١٤٥ .

* عن أوراق البردي - [من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال والذي قد حضر من عطا الجند

ولم يلبث قرّة بن شريك أن ذاق بعض ما سببه لأهل مصر ومات في الوباء الذي حل بالبلاد وأباد أعداداً ضخمة من البشر ويقول ساويرس بن المقفع إنه [من بعد موت قرّة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر واليًا اسمه أسامة فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يُسمع بمثله من الجيل الأول ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرفت جميع الأغنياء والفقراء على الموت].

وهنا نجد اختلافاً بين ساويرس والكندي الذي يكتب أنه بعد وفاة قرّة بن شريك عين الخليفة على ولاية مصر — جندها وخراجها — عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي ويبدو أن سبب الخلاف يعود إلى اهتمام ساويرس بتتبع سلسلة المشتدين على القبط في جمع الخراج، والكندي يهتم في الكتاب بتتبع سلسلة الأشخاص الذين تولوا منصب الولاية وبذلك يكون التالي بعد قرّة هو عبد الملك بن رفاعة، والوالي يعين بعد ذلك شخصاً ينفذ سياسته في جمع الخراج. وبذلك يكون هو المسئول أمام الخليفة في العاصمة عن السياسة المالية للبلاد وآخر مسئول أمامه عن التنفيذ بالداخل.

ويقدم لنا المقرئ في كتابه « المقفي الكبير » معلومات أكثر عن أسامة بن زيد التتوخي الذي ينكره ساويرس ويتجاهله الكندي فيقول : [كان على ديوان الجند بدمشق في زمان الوليد بن عبد الملك. ثم ولي خراج مصر في زمن الوليد، فقدمها يوم السبت لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ثم

وعيالهم وغزو الناس فإذا جاك كتبي هذا فخذ في جمع المال فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر ثم عجل إلي بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول ولا أعرفك ما حسبنا بما قبلك فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرّة وصلحت أفراطهم].

نزع في شهر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين، وأمر على الخراج عوضه حيان بن شريح من قبل عمر بن عبد العزيز [، فظل مستولاً عن خراج مصر حوالي ثلاثة أعوام وعُزل في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز،] ثم أعيد أسامة إلى ولاية الخراج في سنة اثنتين ومائة ، وصُرف حيان ، فأقام على الخراج إلى سنة أربع ومائة^١.

وعاصر أسامة بن زيد أواخر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بالإضافة إلى زمن سليمان بن عبد الملك الذي أوصاه بقوله : [احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح. لا تبعها لأحد بعدي].

وقد عمل أسامة بوصية الخليفة وبدأ [عملاً ما عمله فرعون، واشتد على نصارى مصر، وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه واسم ديريه وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده، ثم كبس عليهم الديارات، فوجد جماعة منهم بغير وسم فضرب أعناق بعضهم، وضرب بعضهم حتى مات تحت الضرب، وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى، ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير، ففعل ذلك^٢.

ويقدم ساويرس بن المقفع تفصيلاً أكبر للعذاب الذي نزل على قبط مصر على يدي أسامة بن زيد بقوله: [وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان، وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قتموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحي كثير بالسياط وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكتبهم ويقول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون

١- المقرئزي / المقرئ الكبير / الجزء الثاني ص ٣٨.

٢- المصدر السابق ص ٤٠.

عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهايم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحداً وأي موضع نزلتموه فانهبوه وكانوا يخربون المواضع ويقلعون العمود والأخشاب ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير حتى صارت الفضة خمسة وثلاثين درهماً بدينار كان من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لئلا يعاقب ومن الضيق والظنك هم الناس ببيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد فيما هو فيه ^١.

ولم تنته تلك الشدة العظمى إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولي الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر بأن توضع [طوبة حديد في رجلي أسامة البائس وخشبة في يديه وجعله في الحبس] ^٢.

وحل الإطمئنان مدة قصيرة [وكانوا النصراني في أمن وهناء والبيع ثم من بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتاباً إلى مصر مملوء غماً] فماذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه أيوب بن شرحبيل حتى يسبب هذا الغم ليقبض مصر؟ لقد أمره بأن ترفع الجزية عن من يدخل في دين الإسلام على أن يحمل مقدار الجزية الذي كان يدفع من قبل ، ويلزم به من بقى على دين المسيحية، ويقال إنه أمر بأن تحمل جزية موتى القبط على أحيائهم وأعلن أن [من أراد أن يقيم في حاله وبلاده فليكن على دين محمد مثلي ومن لا يريد فليخرج من أعمالي] ^٣.

١- ساويرس / المجلد الأول ص ١٤٧.

٢- المصدر السابق ص ١٤٨.

* أما عن مقدار المكوس التي فرضت في مصر في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز فقد تناول أبو يوسف الكلام على ذلك في كتاب الخراج - [وقد فرض على المسلمين دينار واحد عن كل ٤٠ ديناراً واتبعت هذه النسبة في كل مبلغ].

٣- الكندي.

ويضيف الكندي بأنه قد [نزعَت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم ومنع النساء الحمامات]^١.

وأمام تلك الضغوط المادية المتمثلة في زيادة الضرائب، والضغوط المعنوية المتمثلة في فكرة إخراج غير المتحولين إلى الإسلام من بلادهم، أشهر بعض الناس إسلامهم حفاظاً على أموالهم وممتلكاتهم وأراضي أجدادهم التي يقطنونها من قديم الأزل.

لكن القدر لم يمهل عمر بن عبد العزيز لينفذ تلك الأحكام ومات بعد فترة قصيرة ويقال إن الأمويين قد سمّوه — لأسباب أخرى لا تمت إلى سياسته مع القبط بصلة، ولكن لتضييقه على أفراد البيت الأموي وشدته عليهم — وتولى من بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك فإذا به يعود إلى سياسة الاضطهاد المكشوف للقبط ويلغي القوانين العمرية ويفرض على الكنائس والاديرة والأوقاف (الأولاس) والرهبان الجزية والخراج مرة أخرى، ثم أمر [بكسر الصليبان في كل مكان وكشط الصور التي في البيع لما تمثله تلك الصور والامائيل من علاقة بالأفكار الوثنية.

ويذكر الكندي واقعة محو الصور بقوله : [وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة اربع ومائة يأمر بكسر الأصنام فكسرت كلها، ومحيت التماثيل، وكُسِر منها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذي يُقال له حمام أبي مرة، وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني :

فليأت أبيض في حمام زبان
على ترائبه في الصدر ثديان

من كان في نفسه للبيض منزلة
عبل لطيف هضم الكشح معتدل

وانقضت أيام حنظلة التي كانت مرةً على قبط مصر كاسم واليها بانقضاء حياة الخليفة يزيد بن عبد الملك واستبشر القبط خيراً بصعود هشام بن عبد الملك إلى سدة الخلافة لأنه كتب : [يأمر بان تدفع لكل من يزن الخراج براءة باسمه حتى لا يظلم أحد ولا يكون في مملكته ظلم فأعطاه الله مملكة جيدة فأقام اثنين وعشرين سنة ملكاً ولم تقم عليه حرب]^١.

ويذكر ساويرس أن هشام بن عبد الملك وثق علاقته بالبطريكين المسيحيين (القبطي والملكاني) وقربهما إليه خصوصاً بطرك الكنيسة الأرثوذكسية بدمشق لأن مقرها كان قريباً من قصر الخليفة وهو يسعد بسماع ترانيمها ليلاً.

وبرغم تلك الصداقة الفوقية عين الخليفة مسئولاً عن الخراج في مصر يدعى عبيد الله بن الحبحاب في ظل ولاية الحر بن يوسف، [فلما وصل إلى مصر أمر بأن تحصي الناس والبهائم وأن تقاس الأراضي والكروم بحبال القياس ففعل ذلك، وأن يجعل طابع رصاص في حلق كل الناس من ابن عشرين سنة إلى من عمره مائة سنة، وأحصاهم وكتبهم جميعهم ودوابهم من الصغير إلى الكبير والأراضي الوكس التي هي صعبة التي تنبت حلفاً وشوكاً وبنى أميالاً في وسط الغيطان على الحدود والطرق في جميع أرض مصر وأضعف الخراج]^٢.

وكان [لا يبيع أحد ولا يشتري إلا من كان على يده علامة الأسد]^٣.

ولكن لماذا اختار العرب تلك العلامة بالذات ليسموا بها القبط ؟

١- ساويرس.

٢- المصدر السابق.

٣- ساويرس.

الأسد هو الملك الذي لا يفوقه آخر في القوة والشجاعة إنه رمز الحاكم المسلم الذي يرى في نفسه تلك الصفات ويدمج محكوميه بصورته المنتقاة إشارة إلى وقوعهم تحت أسر الدائم وسطوته المطلقة.

ومع ذكر أعمال عبيد الله بن الحبحاب يصل ساويرس إلى ذكر ثورة عام ١٠٧هـ التي يتفق المؤرخون العرب على أنها أول ثورات القبط.

ولم تكن كل تلك المظالم السابقة التي تعرض لها القبط على أيدي الولاة وجبأة الخراج إلا مقدمات للانفجار الكبير الذي حدث عام ١٠٧هـ بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى جميع أنحاء مصر، [بأن تحشد له جماعة من الناس يشغلهم فيما يريد]، وكان كل إجراءات جمع الخراج والجزية ليست بكافية حتى يضيف إليها مظالم السخرة والعمل الإجباري في عملية إعادة بناء مدينة القسطنطين، [حتى إن الناس هلكوا من التعب من كثرة ما أشغلهم فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذي أضعفه عليهم ثارت حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بأرض مصر أولها في مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمند وما يجاورهن ومواقع كثيرة في أسفل الأرض وكذلك كان في الطرق والجبال والبحار]^١ وكان اضطراب في كل كورة مصر كما يقول ساويرس.

أما الكندي فيذكر أحداث هذه الثورة بقوله : [وفي إمرة الحر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً فانتقضت كورة نثو، وتمي، وقريبط، وطرايبة، وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير]^٢.

١- ساويرس.

٢- الكندي ص ٩٥.

ولم يكتف الوالي وأهل ديوانه والمقصود بهم الجيش العربي الذي يتلقى عطاءه من بيت المال بمحاربة الثوار وقمعهم في مواطنهم الطبيعية، بل إنه عمم العقاب لأن ساويرس يشير إلى أن [الوالي دخل الإسكندرية ليسم الناس، فقبض على البطرك ليسمه فامتنع فلم يدعه الوالي] ^١.

وهنا ينقطع حديث ساويرس عن أحداث الثورة ومتابعة تفاصيلها وينشغل بأمر البطريك وما كان بينه وبين الوالي : [والتمس البطرك المضي إلى الملك فلم يجبه إلى ذلك ثم بعد مدة أنفذ البطرك إلى مصر مع جند يوصلونه إلى عبيد الله فلما حضر بين يديه عرفه سبب حضوره فلم يتركه بغير وسم] ^٢.

وطلب البطرك من عبيد الله أن يمهلته ثلاثة أيام فأجابه وأمهله فاستغل هذه الفرصة وحاول الهرب ليلاً مع أسقف وسيم، [فلما انحذروا هاربين وصلوا إلى ترنوط عند الصباح]، لكن القدر لم يمهلته فسحة أطول من الوقت حيث أدركت الوفاة البطرك هناك في ترنوط. فأنقذ من عقاب الوسم [الذي هو الختم بالرصاص أو بغيره في رقبتة أو يده]، بفضل الموت محرر البشر أجمعين بعد أن ظل أربعاً وعشرين سنة ونصفاً على كرسي البطريكية، وقد استهلك عبيد الله بن الحجاب زمن البطرك الجديد ويدعى قسما، وكان لا يتجاوز الخمسة أشهر، جزءاً كبيراً من زمن البطرك تاودورس وهو البابا رقم ٤٥ في تاريخ الكنيسة، في مواصلة سياسة العنف والشدة حيث، [كان عبيد الله الملك بمصر ينزل عذاباً وبلايا وخسارات على أهل مصر وأضاف على كل دينار من الخراج ثمن دينار وكان يحدث أموراً على الناس حتى أن الدينار قل وعز ولما تمادى على ذلك لم يصبر الله عليه لكن

١- ساويرس.

٢- ساويرس.

أثار عليه قوماً من مقدمي المسلمين مضوا إلى هشام وعرفوه الشرور التي يفعلها وما أحدثه من البلاء في مصر فامتأل عليه غيظاً وكتب للوقت بعزله [١].

ويجب ألا نتمادى في حسن الظن ونعتقد أن عزل عبيد الله عن خراج مصر جاء سهلاً هكذا بمجرد شكوى بعض مقدمي المسلمين أو رؤسائهم منه للخليفة فهو الذي جعل البقرة تحلب لهذا الخليفة كما لم تحلب من قبل، ولذلك كان من السهل عليه التضحية بالآخرين حتى لا يعكروا على جابي الخراج انطلاقه في عمليات الحلب التعسفي. فنحن نفهم من الكندي أن الخليفة هشام بن عبد الملك ضحى بالحر بن يوسف والي مصر حينما دب النزاع بينه وبين عبيد الله، [وفي سنة ثمانى ومائة تباعد ما بين الحر بن يوسف وعبيد الله بن الحبحاب صاحب الخراج وكتب عبيد الله إلى هشام يشتكي الحر. وكتب (الحر) يستعفي من ولايتها، فصرفه هشام في ذي القعدة سنة ثمانى ومائة]، وبهذا ذهب الوالي وبقي متولي الخراج.

ثم اعترض عبيد الله على الوالي الجديد حفص بن الوليد، فلم يمكث سوى جمعيتين على كرسي الولاية وعُزل هو الآخر، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج إلى الخليفة قائلاً [إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصاً].

واستجاب الخليفة لرغبة متولي الخراج للمرة الثانية وعزل حفصاً أيضاً، بل زاد الخليفة في إطلاق يد جابي الخراج وتدعيم سطوته على مصر بأن فوضه لاختيار والٍ جديد لمصر، فاختار عبد الملك بن رفاعة الذي انسحب من ميدان الصراع على السلطة بعد فترة قصيرة من الولاية لم تتعد الخمسة عشر يوماً حيث وافته المنية، فتولى بعده الوليد بن رفاعة أمور الولاية وظل عبيد الله بن الحبحاب على الخراج ليهلك بذلك أكثر من ثلاثة ولاة من المسلمين، وثلاثة بطارقة من القبط، وشعباً بأكمله من المصريين ظل يصرخ من كثرة المظالم وشدة القمع.

وظل عبيد الله يخطط وينفذ السياسة المالية، وتعدى نفوذه ذلك إلى رسم السياسات العامة لولاية مصر، وربما نلاحظ أن ساويرس يسميه عبيد الله الملك، وليس مجرد مسئول الخراج، أو صاحبه كما كان يسمى السابقون عليه.

وقد رأى عبيد الله بدهائه السياسي أن أفضل وسائل القضاء على الثورات القبطية في مهدا وقبل اندلاعها هو إحلال القبائل العربية الموالية للخليفة في مناطق الخطر لتسكن وتعمل وتستقر وتغير طبيعة المكان والسكان من مناطق ثورات قبطية إلى مناطق نفوذ عربي، فهو صاحب فكرة نقل قبيلة قيس إلى مصر وخصوصًا في منطقة الحوف الشرقي التي اندلعت فيها ثورة القبط بهدف كسر شوكة القبط في مواطنهم الأصلية، وكتب بذلك رسالة إلى هشام بن عبد الملك يشرح له فيها حال المنطقة من وجهة نظره فيقول :

[وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا وهي بلبيس].

والنقطتان الجديرتان بالانتباه هنا هما قوله بأن المنطقة ليس فيها أحد، إشارة إلى خلوها من العرب فقط وليس من البشر جميعًا والمصريين خصوصًا.

ثانيًا إن نزول قيس بها لن يضر بالخراج.

وهكذا، [وفد ابن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتًا. فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن ينزلهم القسطنطينية].

[وبعث عبيد الله إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرها

إليهم، فاشترؤا إيلاً فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم. وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة ننانير وأكثر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهراً حتى يُركب وليس عليهم مؤونة في إعلاف إيلهم ولا خيلهم لجودة مراعاتهم فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّل إليهم خمس مائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة. وأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت . فمات هشام وببليس ألف وخمس مائة أهل بيت من قيس ^١.

وسنذهب الآن مع ساويرس لنرى نوع التماس الذي حدث بين عرب القيسية النازحين إلى المكان وبين القبط المقيمين فيه من قبل، فيقول :

[وكانت قبيلة في الجبل الشرقي من مصر من بلبس إلى القلزم والبحر من المسلمين يسمون العرب، وكان فيهم أكثر من ثلثين ألف فارس منتشرين في تلك البراري والبلاد ومنهم أمراء مقدمون عليهم فولى عليهم زمّاماً يُسمى أبا جراح وكانت خيامه عند دير على اسم السيدة مريم قريب تنيس وفيه جماعة من الرهبان وكهنة مزنيين بأفعال حسنة ، وكان للزمّام أخوان فأخذهما وصعد إلى الدير ودخل البيعة وطرد الرهبان من البيعة ونهبوها وأخذوا كل ما في الدير من قماش وغلة وأثاث ^٢.]

لكن العربيين أعادا جميع ما أخذاه بعد ذلك بسبب نزول المرض بأحدهما فظنّا أن ذلك بسبب كرامات رهبان الدير وخافا خوفاً عظيماً.

ويذكر ساويرس أن واقعة نهب الدير هذه حدثت زمن تولي القاسم بن عبيد الله بن الحجاب مكان أبيه على خراج مصر، وأن القاسم كان أشد قسوة من أبيه وأنه قد [صار فيه الشر أكثر من أبيه]، وأنه كان صبيّاً محبّاً للشر ومحبّاً للنساء وقد

١- الكندي.

٢- ساويرس.

[جعل له سراري من كل جنس ليس لهن عدد وكان قلبه ملتهبًا بهن جدًا]، [وأنه لم يتخل عن طريقته السوء ومحبتة جمع الذهب]^١.

ثم يذكر قصة دخول هذا القاسم مع خليلته إلى الدير.

وفي الحقيقة إننا لا نجد ذكرًا لهذا القاسم بن عبيد الله بن الحجاب لدى الكندي أو المقرئ أو حتى لدى ابن تغري بردي الأتابكي صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» .

مما يدل على أنه لم يكن يتولى أمر جباية الخراج رسميًا بقرار من الخليفة أو من والي مصر، وإنما كان يعمل تحت مظلة نفوذ أبيه الممتدة في ربوع الأراضي المصرية.

تلك المظلة التي حدثت بساويرس وبالرهبان الذين استقى منهم تاريخه إلى الظن بأنه كان مسئولاً عن كل خراج مصر حيث يقول: [وكان القاسم سالكًا في طريق الجهل كل حين تضاعف الظلم في أيامه على الناس وولى ولاية في كور مصر أشر منه قومًا يجمعون أموال الغرباء من أسوان إلى الإسكندرية وألقى على الناس بلاءً عظيمًا في كل البلاد والكور الكبار والصغار وكان الكبير يأكل الصغير والقوي يأكل الضعيف مثل سمك البحر، وبعد ذلك عمل مراكب مثل قصور الملوك وزينها وكان يركب فيها نساءه وعبيده ويخرج في بلاد مصر ويمضي بهن إلى الإسكندرية معه وتبتس ودمياط فيأخذ أموال التجار والناس والمقدمين في تلك المواضع ويصعد إلى صعيد مصر وينتهي إلى أسوان يفعل ذلك وكان يسير صحبته من الجند والعسكر ويدخلون إلى ملعب أنصنا]^٢.

١- ساويرس

٢- ساويرس.

وربما كان هذا القاسم مسئولاً عن خراج منطقة الحوف الشرقي فقط وليس على عامة خراج مصر، وزاد نفوذه وبدأ في ممارسة أعمال الإغارات على المناطق الأخرى حتى [أنفذ إليه الخليفة من قبض عليه وحمله إليه تحت الحوطة والضيق ولما سار على بلبس مع الموكلين به السائرين به إلى الخليفة لحقوه الأساقفة وجماعة من النصارى إلى بلبس.

ثم سيروه الموكلون به ولم يعد إلى مصر بل أخذ جميع ماله وهو في العذاب والاعتقال وأنفذ إلى مصر وأخذ عبيده وسراريه ومضوا بهم إلى الخليفة^١.
والكندي لا يذكر ما يخص رجلاً يسمى القاسم بن عبيد الله، ولكنه يهتم بالحديث عن الولاة حسب ترتيبهم الرسمي، حيث تولى عبد الرحمن بن خالد ولاية مصر بعد وفاة الوليد بن رفاعة، ثم تولى حنظلة بن صفوان، وفي عهده [انتفض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً، وظفر بهم]^٢.

ويقول بن تغري بردي إن : [حنظلة بن صفوان دام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومائة] ، وفيها انتفض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم^٣ ولا يذكر ساويرس تلك الثورة المهمة في سلسلة الثورات القبطية لانشغاله بتتبع الخلافات بين رجال الكنيسة قبل تولي البابا خائيل وهو البابا رقم ٤٦، وهو حينما يذكر أن والي مصر بعد القاسم هو إنسان اسمه حفص بن الوليد الحضرمي، فإنه يخالف بذلك المؤرخين العرب الذين ذكروا أن السابق على حفص كان حنظلة بن

١- ساويرس.

٢- الكندي.

٣- الأتابكي / النجوم الزاهرة / الجزء الأول ص ٢٨١.

صفوان الذي حدثت ثورة القبط في زمنه، فهل كان بأوراق ساويرس بعض الخلط في تلك الفترة الزمنية ؟

أم أن القاسم كان مجرد مسئول خراج في منطقة الحوف الشرقي في أثناء ولاية حنظلة بن صفوان.

المهم أنه بعد اختيار البابا خائيل قام رجال الكنيسة وكهنتها :

[ومضوا إلى القصر وعرفوا حفصاً الذي جرى وما كانوا فيه وسألوه كتب كتاب إلى شيوخ وكهنة وادي هببت ليسلموا لهم أنبا ميخائيل المذكور وكتب لهم الكتب وأخذوها وخرجوا من عنده ^١ .

ويختلف الكندي وسايروس في موقف كل منهما من حفص بن الوليد ، فعلي حين يمدحه الكندي لأنه أعاد أرزاق المسلمين إلى مقدار الاتي عشر إردباً لكل رجل ، فإن ساويرس يذمه بسبب الإحصاء الذي أجراه رؤساء القبط في ذلك الحين واكتشافهم أن حوالي أربعة وعشرين ألف إنسان قد انتقلوا إلى الإسلام في عهده ، وربما كانت هناك أسباب أخرى للكرهية مثل أن حفص قد أمر بقسم مواريث أهل الذمة علي قسم مواريث المسلمين وكانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم ^٢ .

وبعد أن كان البنون والبنات	لا فرق بينهم بل هن مساويات
والزوج إن مات بلا أولاد	للزوجة النصف بلا عناد
والزوج والزوجة في تحكم سوى	والنصف للأهل فدع عنك الهوى
والأم إن كانت مع الأعمام	تحوز ثلثيه بلا كلام

١- ابن تغري بردي الأتابكي / النجوم الزاهرة / الجزء الأول ٢٩٤.

٢- ساويرس

كما نقول أرجوزة الأسعد أبي الفرج هبة الله .

وبذلك نزع الوالي المسلم حفص بن الوليد اختصاص دعاوى المواريث من القضاء الذمي وأسندها إلى القضاء الإسلامي الذي يخسف حق المرأة إلى نصف منزلة الرجل عموماً .

كما أعلن حفص بن الوليد أن [كل من يتخلي عن دينه ويكون مسلماً لا تؤخذ منه بعد جزية] .

وبالفعل فقد جاء رؤساء القبط يشكون للبترك بقولهم :-

[يا أبانا صلي علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من إخوتنا من بني المعمودية من مصر وأعمالها علي يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان] .

وبرغم هذا المدح العربي لحفص إلا أننا نجد أنه عُرِّل ثلاث مرات : كانت المرة الأولى التي عُرِّل فيها بعد أسبوعين فقط من الحكم بفضل رفض عبيد الله بن الحبحاب له ، والمرة الثانية التي أعاد فيها أرزاق المسلمين إلى نصابها القديم وتصادف في أثنائها موت الخليفة هشام بن عبد الملك وتولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده ولم يلبث أن قتل وتولي ابنه مقاليد الخلافة ثم توفي أيضاً وبويع إبراهيم بن الوليد ، ثم جاء مروان بن محمد فخلع الخليفة إبراهيم .. وهنا كتب حفص بن الوليد والي مصر للخليفة الخامس في فترة ولايته الثانية أن يستعفيه فأعفاه من الولاية التي استمرت ثلاث سنين إلا شهراً، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها كرهاً بناء على إصرار قواد الفروقي حتى عزله الخليفة مروان وأرسل الجوثرة بن سهل الذي سارع بقتل حفص بن الوليد سنة ثمان وعشرين ومائة، وبذلك تنتضي ولاية رجل شهد حكم خمسة خلفاء وتولى هو نفسه الولاية ثلاث مرات حدث في أثنائها كثير من الفتن العربية.

ويذكر الكندي ثورة قبطية أخرى حدثت في زمن الوالي عبد الملك بن مروان بن نصير حيث [خرج رجل من القبط يُقال له يُحنس بسمنود فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقتل يُحنس في كثير من أصحابه]^١.

وليس هناك ذكر لهذه الثورة القبطية أيضًا في كتاب ساويرس بن المقفع، مع أن ساويرس يذكر عن الوالي ابن نصير هذا أنه [كان يبغيض النصارى جدًا ومعه تكبر عظيم وأنزل تعبًا عظيمًا على أهل مصر وأظهر أمورًا عظيمة بمصر وأخذ لمروان الذهب والفضة والنحاس والحديد وكل شيء يجده وكان يفعل ذلك بمشورة رجل سوء تعلم هذه الأفعال من الشيطان وكان رئيسًا على جميع صنائع مصر وأمور المملكة اسمه عبد الرحيم]^٢.

فهل هناك علاقة بين عبد الرحيم المزموم لدى ساويرس، وعبد الرحمن بن عتبة المعافري قاهر ثورة القبط في سمنود...؟ وربما يكونان شخصًا واحدًا خصوصًا أن الخلاف اللفظي بين عبد الرحيم وعبد الرحمن ليس كبيرًا بالإضافة إلى ربط الاسمين بحدث واحد.

وربما لم ينفق ساويرس في الاسم بسبب اهتمامه هنا بذكر تفاصيل الخلاف بين بطريرك الكنيسة اليعقوبية (القبطية) وبطريرك الكنيسة الخلقيدونية (الملكانية) وتنازعهما على ملكية كنيسة أبي مينا بمريوط، وتصعيدهما أمر الخلاف إلى الولاة والقضاة.

على أية حال فساويرس الذي جمع مادة كتابه وصاغها لتسجيل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية لا يلتفت في كثير من الأحيان إلى تفاصيل حياة الشعب القبطي وعذابه وثوراته ولذلك تسقط منه تواريخ بعض الثورات كما سقطت ثورة يُحنس

١- الكندي ص ١١٦.

٢- ساويرس ص ١٦٩.

السمنودي. ولولا حديث الكندي عن ثورتي سنة ١٢١هـ ، ١٣٢هـ القبطيين لصاع تاريخ مقاومة الشعب القبطي في تلك الفترة وطواه السنين. وقد ذكر الكندي بالتوازي مع ثورة القبط الأولى عام اثنتين وثلاثين ومئة، ثورة أخرى قام بها العرب في منطقة الحوف الشرقي حينما [خالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين وتابعه على ذلك الرُماحس بن (عبد) العزى الكناني في جمع من قيس فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد، فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم، وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير. فساروا في سبعة آلاف إلى بلبس فلما التقوا دعوا إلى الصلح، على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل والرماحس إلى أي أرض شاء. فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا. ثم ظفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحُبس في القسطاط]^١.

أما ثورة القبط الثانية^٢ لعام ١٣٢هـ والموازية لأحداث سقوط الدولة الأموية فيذكرها الكندي باختصار قائلاً:- [وخالفت القبط برشيد فبعث إليهم عثمان بن نشعة في المصعنة فهزمهم]^٣.

أما ساويرس بن المقفع بعد أن نسي ذكر أحداث الثورة الأولى فيقول:- [عصى على عبد الملك قوم من البشمو ومقدمهم مينا بن بغيرة وقوم آخر من شبرا بسنبوط ومسكوا تلك الكورة ولم يعطوه خراجاً، ولا لصاحب ديوان مصر إلى أن افتقدتهم الرب وكان يعطيهم الظفر فخرج إليهم عبد الملك بعسكر فهزموه بقوة الله

١- الكندي ص ١١٦.

٢- الكلام عن ثورة القبط الأولى وثورة القبط الثانية خاص بعام ١٣٢هـ حيث اندلعت ثورتان في نفس ذلك العام كانت الثانية منهما هي المواكبة لأحداث سقوط الدولة الأموية (و ، أ).

٣- الكندي ص ١١٨.

وقتلوهم ولما وصل مروان إلى مصر عرفوه جميع ذلك فكتب لهم كتاباً وأماناً فلم يقبلوه فأنفذ لهم عسكرياً كثيراً من مسلمي مصر ومن في وصل صحبته من الشام فلم يقدر العسكر أن يصل إليهم بالجملة لأنهم تحصنوا في مواضع الودعات التي لا يقدر أن يصل إليها سوى رجل رجلاً فإذا ذلت رجله عن الطريق غطس في اللوث وهلك وكانوا العساكر يحرسونهم من براً فيخرجون لهم في الليل البشامة من طرق يعرفونها يتلصصون عليهم ويقتلون من قدروا على قتله ويسرقون أموالهم وخيلهم فيطول عليهم الأمر فيرحلون عنهم^١.

وقد انتصر البشموريين على جيش الوالي الأموي عبد الملك بن مروان عدة مرات في نفس الوقت الذي خرج فيه ملك النوبة بجيش جرار ليحارب الوالي بعد أن سمع عن سجن البطريق القبطي في سجن مصر ومعه طائفة من رهبان الكنيسة لذلك، [سار الملك من بلاد النوبة يريد ديار مصر في عسكر عظيم فيه مائة ألف فارس بمائة ألف فرس ومائة ألف جمل...]، وكان ملك النوبة قد بعث رسولاً يطلب من الوالي إطلاق سراح البطرك فقبض الوالي على رسول ملك النوبة وحبسه هو الآخر مع البطرك لكنه اضطر إلى إطلاق سراح الجميع حينما [علم مجيء الملك ووصوله إلى مصر ولم تكن له قدرة على محاربته]^٢.

ثم لم يلبث أن جاء مروان بن محمد الخليفة الأموي فاراً أمام جيوش العباسيين و[كان يطرح النار في كل موضع يصله وهو منهزم]، وقد وصل مروان مصر وثورة البشموريين ما زالت مشتعلة فكتب الرسائل لتهنئة البشموريين حتى يجد سبيلاً للخروج من محنته وحتى لا يتعقد الموقف أكثر من تمرد المصريين من ناحية ومطاردة العباسيين له من ناحية أخرى.

١- ساويرس.

٢- ساويرس.

لكن البشوريين رفضوا عرضه واستمروا في ثورتهم.. فاستمرت بالتالي حروب مروان في اتجاهات عديدة.. وبعد دخول جيش مروان الإسكندرية بقيادة الجوثرة بن سهيل الباهلي والذي يسميه ساويرس (كوزارا) ويصفه بأنه [كان يشبه الوحش في خلقه وخلقه].

[ودخل عسكر مروان المدينة مع كوزارا وملكها وقتل منها جماعة ونهب أراختتها واستأسر أولادهم ونساؤهم وأخذ كل مالههم وأخذ الأب أنبا ميخائيل وقال له كيف مكنت أولادك النصارى أن يقاتلوا — يعني البشامرة —].

وكما قبض على البطريك الأنبا خاتيل بطريك الكنيسة الأرثوذكسية قبض على بطريك الملكانية أيضاً [وجعل رجله مع رجله أبينا البطرک في الحديد فبعد خمسة أيام أحضر قسماً « بطرك الملكية » من شعبه وبيعه ألف دينار ودفعها لكوزارا فخلاه وأنفذ إلى أبينا وقال له افعل هكذا وأخليك فأجابه أن ما في بيعتي شيء وأنا أجعل نفسي عوض المال]^١.

وإزاء رفض البطريك القبطي دفع الألف دينار للقائد العسكري كوزارا أسوة بالبطرك الملكاني استمر حبسه تسعة أيام وحينما هم بإعدامه فكر في استخدامه كواسطة لتهنئة ثورة البشامرة بدلاً عن قتله، وكان تفكيره مع نفسه هكذا :-

[نحمله معنا إلى رشيد وندعه أيضاً أن يكتب لهم ويقول إن كل ما حلّ بي لأجلكم فأمر بتخليته. فلما بلغ الخبر البشامرة، خرجوا لأولئك الذين كانوا يحاصرونهم فقتلوه وطردوهم وهم مسيرة يومين والذي خلص من الموت مضى إلى مروان وعرفه الذي جرى عليهم ووصل الخبر إلى مروان بأن أعداءه قد قربوا منه]^٢.

١- ساويرس.

٢- ساويرس ص ١٨٩.

وانتصر البشامرة على جيوش الخليفة الأموي عدة مرات وكان مروان بن محمد في أسوأ أوضاعه ويفر هارباً أمام جيوش العباسيين من الناحية الأخرى ولا يجد أمامه سبيلاً للنجاة ومن شدة يأسه يحرق كل ما يقابله : مخازن الغلال والسلاح ويحرق القسطنطين... وقد [عزم مروان الحمار على تعبئة النيل فعدى إلى الجيزة وأحرق الجسرين والدار المذهبة وبعث بجيش إلى الإسكندرية فاقتتلوا مع من كان بها بالكريون، وبينما هو في ذلك خالفت القبط، فبعث إليهم مروان قاتلهم أيضاً وهزمهم ^١].

وهذه الثورات القبطية والضعف الواضح في صفوف الخليفة الذي يفقد عرشه تدريجياً ويخسر مواقعه واحداً إثر الآخر أمام الجيوش العباسية جعلنا نحار في شأن البطرك القبطي الذي لا يفضل سبيل الاستمرار في المقاومة ويكتب لشعبه البشموري الثائر والمنتصر في ثورته، عدة مرات ينصحه بأن يلقى سلاحه ويسلم لجيش مروان المهزوم (مع أن مروان هذا اضطهد القبط اضطهاداً كبيراً وخاض في دمائهم — بعد أن ذبح أكثر من مائة راهب ذبح للنعاج في دير المحرق — واضطهد البطرك نفسه وبعض الرهبان المصاحبين له حينما اعتقلهم ورمى في رجليه خشبة عظيمة وطوق حديد ثقيل في رقبتة حتى يوفي خراجة كاملاً ثم أطلقه إلى الصعيد يجمع له المال من القبط، [وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج ^٢].

ومعظم عرب مصر يتخلون عن الدولة الأموية ويعلنون موالاتهم للجيوش العباسية. كل ذلك وأبو الكنيصة المصرية ماضٍ في سياسته القديمة المتوارثة والقاضية بعدم المقاومة، وإن شئنا الدقة فلنسمها المقاومة السلبية والانتظار في

١- ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة.

٢- ساويرس ص ١٧٨.

صمت مع تحمل كل أصناف التعذيب البدني والمادي والمعنوي حتى تتغير الظروف وتتفتح سحابة الشدة بفعل عوامل أخرى لا تكون لهم فيها أباد ظاهرة. وقد كان البطرك ورجال كنيسة يضعون آمالهم على ركائب خيل العباسيين القادمة من الشرق ويتمنون خلاص البلاد والعباد على أيديهم، لكنهم لا يظهرون الانحياز مع أن لحظة سقوط الدولة الأموية لم تكن سهلة وخصوصاً حينما [أمر مروان أن يضرب البوق بمصر الفداء ثلاثة أيام ويقول أنه بعد ثلاثة أيام إن وجدت بمصر إنساناً أو دابة متخلفة قتلته لأنني أضرب جميع الفسطاط بالنار وعدوا الناس كلهم إلى الجيزة والجزيرة وغيرها وهرب جميع الناس في المراكب حتى البنات المخدرات اللاتي لم يخرجن قط خرجن إليها مع أهاليهن وترك الناس جميع أموالهم وضرب النار من قبلي مصر إلى بحريها حتى انتهت إلى الجامع الكبير الذي للمسلمين — يقصد جامع عمرو — ووقع في البحر من الناس والبهايم ما لا يحصى عدده بحسب أنهم لم يجدوا من يعنو بهم لما هربوا من النار وكان الأخ يهرب من أخيه والصديق من صديقه والأعمى لا يوجد من يقوده والمقعد والمفلوج والضعيف والشيخ الفاني والعجوز التي لا نهضة لها جميع هؤلاء احترقوا بالنار وكانوا الناس مطروحين في الشوارع والأزقة والغيطان في أعمال الجيزة كالأموات مما حلّ بهم تحت شقاء عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون به من كثرة الخلق وكانت الغلات التي بمصر قد أحرقها مروان ^١. وبينما الفسطاط تحترق كان الخليفة الأموي ينتف ذقن البابا شعرة شعرة والبابا لا ينطق ولكن صوته الداخلي يردد في صمت: [هذه المملكة تبید وجميع جيوشها وتكون بعدهما مملكة جديدة].

وشمل التعذيب بعضًا من الأساقفة المصاحبيين للبابا حتى أن سيف مروان بن محمد [طرح الأب أنبا موسى على ركبته ورفعوا رجله إلى فوق وضربوه بدبابيس نحاس على أجنابه وعلى رقبته وكانوا يقولون له أعطنا برطيلاً ونخليك]، وكان الأنبا موسى لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم ما يقوله هؤلاء المتوحشون بينما تلميذه يترجم له (كلمة بعد كلمة). وكان العباسيون على الضفة الأخرى للنيل يشاهدون وقائع التعذيب ومعهم من انضم إليهم من نصارى مصر وقد قالوا للعباسيين : [هنا أبونا البطرك عند مروان الكافر وما ندري ما يصنع به. وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخرسانيين أن بطركنا قد أخذ مروان ليقطله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم].

ولم يشغل الخليفة الأموي المهزوم المحاصر عن إنزال مزيد من العقاب برجال الكنيسة ، بل أمر جنوده بالإبقاء على بطرك الكنيسة القبطية ورجاله في الأسر والتعذيب تحت الشمس، [حتى ظننت أن أبي ما يعيش إلى مغيب الشمس من شدة العذاب]، كما يقول أحدهم.

وفي اليوم التالي أمر مروان بن محمد حراساً آخرين أن يتولوا مهمة حراسة البطرك ورجاله العشرة، [فجعل مع كل واحد منا ثلاثة من الجند وضيقوا علينا جدًا فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلات العذاب مختلفات لأنهم لم يتفقوا على قتلنا يقتلوننا بها].

واستطاع العباسيون في ذلك الوقت أن يدبروا مراكب يعبروا بها النيل إلى ناحية مروان.. وكان مروان يرتب أموره ليهرب إلى صعيد مصر، فنصح أحد أبنائه أن يفك أسر البطرك ورجاله حتى يستطيع المروانيون أن يهربوا إلى بلاد النوبة والسودان ويطلبوا الأمان هناك من ملك النوبة الذي يتبع للكنيسة القبطية وقال لأبيه : [إن قتلته — البطرك — فما يقبلونا بل يقومون علينا هم أيضًا ويقتلوننا]،

فتراجع مروان عن فكرة قتل البطرك ولكن مع إيقائه في الحبس مع رجاله العشرة وفي [رجل كل واحد منا طوبة حديد ثقيلة جدًا يكون وزنها نصف خنجر وجعلونا خلف ثلاثة ابواب خشبية ليس ضوء ولا هواء ولا راحة].

وتذكر بعض الدراسات القبطية الحديثة كراهية مروان الشديدة للمسيحيين مشوبة ببعض الأخطاء التاريخية فيقول الأنبا غريغوريوس أسقف عام الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمي في كتاب عن الدير المحرق : [جاء عهد محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية (٧٤٢ - ٧٥٠ م) وكان شديد الكره للمسيحيين فأحرق عددًا من الأديرة وقتل الكثير من الرهبان فهرب عدد منهم إلى دير المحرق، فقتلهم إلى هناك ونجح أكثر من مائة راهب منهم، حتى لقد قال المؤرخون أن البابا مرقس الثالث وهو التاسع والأربعون من باباوات الإسكندرية (٧٩٩ - ٨١٩) مات متأثرًا بهول هذا الخراب الذي حل بالأديرة والكنائس]^١.

وهكذا يذكر أسقف البحث العلمي اسم الخليفة مقتولًا فاسمه مروان بن محمد وليس العكس، كما أن بابا الكنيسة القبطية كان في ذلك الحين البابا خائيل وهو البطرك السادس والأربعون في تاريخ بطارقة الكنيسة وليس التاسع والأربعين كما يقول. لكن الثابت والمحفور في أذهان المصريين هو الكراهية غير المسبوقة التي جسدها آخر الخلفاء الأمويين تجاه القبط ليس فقط بسبب ثوراتهم ضده، بل لأن هذه الثورات العنيفة كانت إحدى علامات انهيار دولته وزوالها إلى الأبد...

فقد كان مروان خليفة الانهيار الذي اعتلى عرش الخلافة لحظة تقوُّض دعائمها.. فأخذها وتهاوى بها إلى السقوط الرهيب.. وقبل رحيله أشعل الحرائق في كل مكان.. ولذلك كان الاضطهاد عامًا للمسلمين وغير المسلمين.. للعرب وغير العرب، الأحرار والموالي وأهل النمة.. للرجال والنساء.. للشباب والشيوخ

١- الأنبا أغريغوريوس / الدير المحرق تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته.

والأطفال.. الجميع.. الجميع كانوا أعداءه الذين انتقم منهم لأنهم شهدوا سقوطه العظيم.. في حين كان العباسيون يبنون أسس دولتهم الجديدة فقسموا جيوشهم إلى أربعة أجزاء : الأول بقيادة صالح بن علي والثاني بقيادة أبي الحكم والثالث توجه إلى أسفل شطونوف ونواحيها والرابع بقيادة أبي عون، وكانوا يسيطرون على نواحي مصر ويطاردون مروان وأبنائه.

أما من بقى في الجزيرة — في النزهات — من أهلها فاطفأوا النار التي أشعلها ابن مروان قبل هروبه وفكوا البطرك [الله يشهد أن قوماً من المسلمين كانوا ركاب خيلهم نزلوا من عليها وفكوا الحديد عنا وأخذونا نحن مضوا بنا إلى ماري بطرس في الجزيرة وكان يمشي معنا قوم مؤمنون وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى].

وأمام انتصار العباسيين الذين امتد جيشهم من الجبل إلى البحر [طلب جوثة أماماً فلم يقبلوه] وطالبوا بتسليم مروان، ومضى جوثة إلى مروان يحتال عليه. فبادر مروان إلى جوثة وقتله.. لكن عسكر صالح بن علي العباسي ما لبثت أن أدركت آخر الخلفاء الأمويين وقتلته.

وأظهر العباسيون سياسة اجتذاب القبط بأن نادوا في البلاد : [من كان نصرانياً يعلق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى بيته ومن لم يعمل ذلك فلا ذنب علينا منه، وكانوا إذا وجدوا قوماً عليهم علامة الصليب يخفون عنهم الخراج ويرفقون بهم ويعملون معهم الخير في جميع البلاد...].

كما أطلقوا سراح أنبا ميخائيل (وأكرموا كرامة عظيمة)، [ولما التمس الاب أنبا ميخائيل من الملك رزق البيع في جميع الكور فعل له ما طلبه منه].
[وأما البشارة فإنه سامحهم بالخراج ودفع لهم خراجاً آخر].

لكن فرحة القبط لم تدم كثيراً، فبعد أن استتبّت الأمور للعباسيين ودانت البلاد وخضعت [ومضى كل واحد منا إلى موضعه وأبو عون تولى مصر]، بعث الخليفة العباسي رجلين من أصحاب الدواوين هما: عطا بن شرحبيل والآخر سفر فأعادا الخراج إلى ما كان عليه وكل الضرائب السابقة وكشفا عن [بغضهما لنا نحن النصارى ومحبتهما للفضة].

وفي السنة الثالثة لحكم العباسيين [أضعفوا الخراج وأكملوه على النصارى.. ولم يوافقوا لهم بما وعدوهم].

ورأى كثير من الاقباط التحول إلى الإسلام حلاً وحيداً للتخلص من عبء الخراج ويمضي الأنبا ميخائيل إلى أبي عون مناشداً إياه برفع الخراج عن بيع الإسكندرية وهنا ينشغل ساويرس بنكر ما يخص البطريرك والكنيسة كعادته دائماً وينسى ما يخص الشعب القبطي .

لكن الكندي يسجل في كتابه أنه في أثناء ولاية أبي عون ثاني الولاة العباسيين، وبعد حدوث الوباء في مصر سنة خمس وثلاثين ومائة لم يترفق مسئول الخراج؛ عطاء بن شرحبيل - مولى مراد - بالناس فخرج أبو مينا القبطي بسمنود ثائراً وبعث إليه الوالي بجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة فقتل أبا مينا وخمدت ثورة القبط^١.

وطلب الخليفة من أبي عون التفرغ لقيادة جيوش المغرب وترك ولاية مصر لصالح بن علي.

ولم تكد تمر ستة أعوام حتى هبت ثورة قبطية جديدة عام ١٤٨ هـ في أثناء ولاية يزيد بن حاتم وفي خلافة أبي جعفر المنصور حيث [خرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا وناذبوا العمال وأخرجوهم. وكان أميرها عبد الجبار بن عبد

الرحمن الأزدي، وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا إلى شبرا سنباط، فقاتلوا ابن عبد الرحمن.

وانضم إليهم أهل البشرد والأوسية والبيجوم. فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجه أهل مصر. فخرجوا إليهم فبيتهم القبط. فطعن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج حتى سقط وطعن نصر بن حبيب طعنيتين وقتل عبد الجبار بن عبد الرحمن وألقى توبة الخولاني النار في عسكر القبط. وانصرف الجيش إلى القسطنطينية [١].

ولا يذكر لنا الكندي كيف انتهت ثورة القبط هذه بعد أن حققوا تلك الانتصارات على جيش والي العربي وقتلوا عيون رجاله وقادته وقتلوا والي سخا نفسه مما اضطر الجيش العربي للعودة إلى القسطنطينية مهزوماً، ويستمر الكندي في تتبع سلسلة الولاة دون أن يذكر شيئاً عن نهاية تلك الثورة وكيف خمدت ومن الذي قام بإخمادها، لكنه يذكر — بعد قليل — نشوب ثورة جديدة في أثناء ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي عام ١٥٦ هـ فيقول: — [خرج القبط ببليبي.. فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي، حليف بني عامر بن عدي بن تجيب، فخرج في الجند بلهيب فهزم القبط] [٢].

ونجد في كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي نكراً لهذه الثورة حين يقول عن ولاية موسى بن علي [وفي ولايته خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوه حتى هزمهم وقتل منهم جماعة

١- الكندي ص ١٣٧، ١٣٨.

٢- الكندي ص ١٤١.

وعفا عن جماعة، ومهد أمور مصر]، وبعد كل ذلك يقول : [وكان فيه رفق بالرعية وتواضع]^١.

ولا يذكر ساويرس بن المقفع ثورة عام ١٥٦هـ وخروج القبط ببليهب، كما أنه يقع في خطأ يخص ولاية ابن عبد الرحمن، حيث تولى مصر واليان يدعيان ابنا عبد الرحمن، وكانا أخوين أولهما عبد الله بن عبد الرحمن وقد توفي في أثناء ولايته في صفر عام ١٥٥هـ والآخر هو محمد بن عبد الرحمن الذي توفي وهو والٍ عليها أيضا في شوال ١٥٥هـ أي بعد أخيه بحوالي ثمانية أشهر ونصف فأيهما كان يقصد ساويرس وهو يقول : [عزل الوالي ابن عبد الرحمن عن مصر وأنفذ غيره إلى مصر] ؟

وإذا دققنا النظر في تفاصيل الثورات السابقة سنلاحظ تغيرا واضحا في طريقة إعلان القبط عن غضبهم في القرن الثاني للهجرة حيث أصبحت ثوراتهم أكثر تنظيمًا عن ذي قبل، فالكندي يحدثنا عن عسكر القبط الذين هزموا عسكر الوالي المنظمين والمتفرغين للقتال والتدريب والإعداد — كما سنلاحظ نشوب ثورات مشتركة فيما بعد يتعاون فيها عرب وأقباط بعض المناطق ضد جيش الوالي والخليفة..

وخصوصًا بعد انقضاء عهد الخليفة هارون الرشيد واندلاع ثورات عربية في الحوف والصعيد فقد ثار أهلا نتو وتمى ضد الوالي حاتم بن هرثمة بن أعين في عهد الأمين، وكما نعلم أن منطقتي نتو وتمى كانتا منطقتي ثورات قبطية متتالية. وفي ولاية السري بن الحكم الثانية عام ٢٠٣هـ حينما اندلعت ثورة القبط بسخا ضد قوات عبد العزيز الجروي، نجد قبيلة بني مدلج وهي نحو الثمانين ألفًا تناصر قبط سخا. فخرج إليهم الجروي فهزمهم وهربت بنو مدلج.

١- ابن تغري بردي ص ٢٦.

وسنجد إشارة عارضة لطلب الجروي مقابلة البابا يعقوب وبينما لا يذكر ساويرس شيئاً عن خروج القبط في سخا - ثورة قبط سخا - فإنه ينشغل بتتبع محنة البابا يعقوب وموته وتولى الأنبا سيمون ثم البابا يوساب رقم ٥٢ في كرسي البطريركية.

وهنا نتوقف كثيراً ، حيث اندلعت في عهده أحداث الثورة الكبرى عام ٢١٦ هـ في ربوع مصر كلها واشترك فيها قبط مصر وعربها - جميعاً - المضطهدون .. وربما تكون أسباب الاضطهاد مختلفة لدى الطرفين : فالعرب كانوا يثارون لعنجهيتهم القبلية المهذرة بعد أن فضّل عليهم العباسيون أجناس الفرس والديلم والأتراك وأكثروا من شرائهم وجعلهم دعامة الجيش والحكم ؛ فنزلت بذلك مرتبة العرب من أصحاب الديوان ومقاتلي الدولة الذين يفوزون بالغنائم والأموال ويتحكمون في البلاد والعباد .. إلى مجرد رعايا يقطنون الأرض حيناً .. أما القبط فقد كان يزداد اضطهادهم كلما زاد شره الولاة ومسئولي الخراج لجمع مزيد من المال ، [وكان متولي الخراج في ذلك الزمان رجلين ، أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط والآخر إبراهيم بن تميم ، هذين مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يراعوا طلب الخراج بغير رحمة ، وكانوا الناس في ضيق زائد لا يحصى وأصعب ما عليهم ما يطلبوه منهم متولين الخراج ، وطلب ما لا يقدروا عليه وبعد هذا أنزل الله الكريم بأحكامه الحق غلاً عظيماً على كورة مصر ، حتى أن القمح بلغ خمس وبيّن بدينار ، ومات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ، ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع]^١.

فالعلاء والموت جوعاً من جهة.. وقسوة جامعي الخراج من جهة أخرى كانا سبب انفجار الثورات القبطية. والضغط يأتي من أعلى إلى أسفل، فيرتد ثورة من أسفل إلى أعلى...

وخزائن الخليفة المأمون تطالب واليه أبا إسحاق المعتصم بحققها في أموال الجباية وخزائن المعتصم تلح على نائبه في مصر للإسراع في توريد المال اللازم.. ونائب الوالي يشتد على رجاله، ورجاله يأججون نار قسوتهم ضد الشعب القبطي؛ دافع الجزية والخراج.. حتى كان عام ٢١٦هـ فانفجر أتون الغضب في مصر كلها شرقها وغربها.. شمالها وجنوبها... واشترك في إشعاله عربها وقبطها... ولأول مرة منذ الفتح العربي لمصر يجتمع العرب والقبط في عمل مشترك كبير في بداية القرن الثالث الهجري، بعد أن جرى الدهر على العرب، وتغيرت أحوالهم وهبطوا من منزلة الحكام الظالمين إلى أرض المحكومين المظلومين.. لا أقول إن الرؤوس قد تساوت تماماً... ولكن اقتربت المسافات وتزامنت الأحداث وإن لم تتصهر العناصر تماماً... وربما كانت أحداث تلك الثورة قد شكلت لبنة أساسية على طريق انصهار قبط وعرب ذلك الزمان.

ويقدم ابن إياس صورة للتحالف المشترك بين العرب والقبط بقوله:-

[وانضم الأقباط عليهم - يقصد على عرب أسفل الأرض أو عرب الوجه البحري - وذلك في جمادي الأولى، وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم وساروا نحو الديار المصرية - فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند لقتالهم فضعف عن لقائهم وتقهر بمن معه فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر، وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته، وخرج معه أيضاً متولي خراج مصر، وخلعوا الطاعة]^١.

وهكذا لم يكتف قبط مصر بالثورة في مواطنهم الطبيعية بالقري كما كانوا يفعلون من قبل، بل خرجوا وساروا إلى العاصمة في تحالف مسلح مع العرب الثائرين ضد الحاكم الرسمي الموعين من قبل الخلافة العباسية ويُدعى عيسى بن منصور الراققي ، ولما عجزت قوات والي عن صد الثورات الزاحفة إليها في عقر دارها فضلاً عن فشلها في حفظ الاستقرار السياسي للبلاد، استجذبت بالخليفة في بغداد الذي أمر الأفشين بالتوجه على رأس جيوشه من برقة إلى مصر على وجه السرعة فقدم الأفشين حيدر بن كاوس الصفي تحت الراية السوداء للعباسيين ليؤدب أهل مصر ويقمع ثورتهم.

ووصل الأفشين في أوان الفيضان حينما تكون قري مصر ومدنها كالنجوم السابحة من شدة إحاطة الماء بها، فيتعذر الانتقال من بلدة إلى أخرى إلا بالسفن، ووصل الأفشين بجيشه إلى الفسطاط في جمادي الآخرة وعسكر بها حتى انتهاء الفيضان الذي يأتي بالخير حيناً وبالدمار أحياناً أخرى.

وهكذا، تزامن فيضان النيل مع فيضان ثورة الشعب بينما الجيش الفاتك القاد تحت الراية السوداء للخليفة يقيم [بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم، ثم خرج الأفشين وعيسى بن منصور جميعاً، فعسكروا في شوال سنة ست عشرة، فحاربه أهل تنو وتمي، وقد اجتمعوا بأشليم، وعقدوا عليهم لابن عبيدس الفهري من ولد عقبة بن نافع فواقعهم الأفشين بأشليم، فهزمهم وأسر منهم كثيراً فقتلهم. ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ومضى الأفشين إلى الحوف فقلّ جماعتهم. وبعث الأفشين عبد الله بن يزيد إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية واستجاشت عليه بنو ملج فحاصروه في حصن الإسكندرية، وذلك في شوال سنة ست عشرة. ومضى الأفشين إلى شريقون، فلقى من هناك بمحله أبي الهيثم، فاقتتلوا. فظفر بهم الأفشين وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمي ومضى الأفشين أيضاً إلى دميرة

فحاربهم في ذي القعدة سنة ست عشرة، فظفروا بهم، وخرج عيسى بن منصور من القسطنطينية إلى تمي، فقاتل أهلها، فانهزم أهل تمي. وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية ففقيه طائفة من بني مُدَلج بخربتاً، فهزمهم وأتوه أيضاً بمحلة الخلفاء، فهزمهم وأسر أكثرهم، فنزل بهم قُرطسا، فضرب أعناقهم بها وأتى الإسكندرية، فدخلها وهرب منه رؤساؤهم، وهم بحر بن علي اللخمي، وابن عقاب اللخمي. وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حُديح.

وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، ومضي الأفشين بعد فتح الإسكندرية إلى أهل البشرد، فكان موافقاً لهم وقد امتنعوا حتى قدم المأمون [١].

ونلاحظ أن نتائج معارك الأفشين لم تكن نهائية وحاسمة منذ الجولة الأولى في القضاء على ثورات كثير من المناطق، ففي منطقة تمي اندلعت الثورة عدة مرات ففي المرة الأولى خرج فيها أهل تنو وتمي من بلادهم وعسكروا بإشليم حيث قاتلهم الأفشين وبدا هناك منتصراً.. ويبدو أنه وثق بقوة جيشه حينما كسب تلك الجولة فأعاد عيسى بن منصور إلى القسطنطينية خوفاً على أمن العاصمة، واقتطع جزءاً من جيشه وبعثه إلى الغربية ومخزي هو إلى الشرقية، لكن العرب الثائرة من بني مُدَلج هزموا رجله عبد الله بن يزيد وطاردوه حتى اضطر للفرار إلى الإسكندرية والاحتباء بحصونها، وظل محاصراً هناك.

وبينما جيش الأفشين يتجول في الناحية الشرقية ويقاثل من موقع إلى آخر [من محلة أبي الهيثم إلى دميعة قرب دمياط]، عادت ثورة تمي مرة أخرى فخرج إليهم جيش والي عيسى بن منصور من القسطنطينية وهزمهم الهزيمة الثانية.. ولم

تسلم منطقة الحوف الشرقي للخلافة العباسية بسهولة .. وخصوصاً زمن الخليفة المأمون فسنجد ثورات عقب ثورات ، وحروباً تلي حروباً بسبب زيادة الخراج ورفض العرب القيسية واليمانية لهذه الزيادات كما حدث في ثورة ١٩٤ هـ ، فقدم حاتم بن هرثمة والي مصر علي رأس ألف رجل ونزل ببليس ، [فصالحه أهل الحوف علي أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه واجتمعوا علي قتاله .

فبعث إليهم جيشاً قاتلهم وأخذ ثورتهم . وانتقل حاتم من بليس إلى الفسطاط في شوال ١٩٤ هـ ومعه مائة من الرهائن من أهل الحوف . وولي المعتصم — المسئول الأول عن مصر في ذلك الحين — صالح بن شيرزاد الخراج ، فظلم الناس وزاد وعسف فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا علي قتاله فبعث عيسى بن يزيد الجلودي والي مصر ابنه في جيش لنصرة صاحب الخراج ، فلقية أهل الحوف ببليس في صفر ٢١٤ هـ ، فهزموه وقتلوا أصحابه ، ونجا هو هارباً ، فلما بلغ الخبر المعتصم عظم عليه وعزل والي وولي عوضه عمير بن الوليد التميمي فاستعد عمير للحرب ، وأراد التفريق بين القيسية واليمانية من أهل الحوف فأرسل إلى القيسية عبد الله بن حليس الهلالي ليردهم إلى الطاعة ويبعدهم عن اليمانيين . ولكن ابن حليس انضم إليهم وزادهم تحريضاً علي والي حتى جعلوه رئيساً عليهم . فسار إليهم عمير في جيوشه لليمنية ينصحتهم ويرغبانهم . فلم ينههم ذلك عن الحرب وزحفوا إلى عمير] .

وهكذا كان الحوف الشرقي في ثورات متتالية ، فبعد ثورة ١٩٤ هـ التي أخذها والي حاتم بن هرثمة سنجد ثورة ٢١٤ هـ ثم ثورة ثالثة في شعبان ٢١٤ هـ في أثناء ولاية عيسى بن يزيد الجلودي الثانية ، مما اضطر المعتصم — المسئول

الأول عن مصر — إلى المجيء بنفسه [فقتلهم وقتل أكابرهم ووضع السيف في القيسية واليمنية حتى أفناهم] ^١ .

وأخيراً ، كانت ثورة ٢١٦ هـ التي اضطرت الخليفة المأمون إلى المجيء بنفسه [فسخط علي عيسى بن منصور ، وأمر بحل لوائه بلباس البياض ، وقال :— لم يكن هذا الحدث العظيم — يقصد أحداث الثورة — إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون ، وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد] .

فهل كان المأمون لا يعلم بأوضاع مصر غير المستقرة وهو الذي غير ولايتها حوالي عشر مرات في مدة قصيرة؟! وإذا كان لا يعلم ، أفلم يسمع عن جيوشه التي جاءت لتحارب الثوار عدة مرات ...؟

أم أن الأمر لا يتعدي كون الخليفة كان يريد كبش فداء يضحي به أمام محكوميه ، صحيح أن الخليفة المأمون كان قد ولي أخاه أبا إسحاق والذي سنعرّفه فيما بعد باسم المعتصم — الشام ومصر — وأن أبا إسحاق المعتصم هو الذي كان يعين ولاية مصر بعد أن أصبحت إقطاعه المهدي إليه من الخليفة ، ولذلك ربما يري البعض أن الخليفة قد قطع وشائج اهتمامه بالأمور الداخلية لولاية مصر بعد أن أعطاه لأخيه طعمه.. ولكن ضخامة الأحداث واتساع حجم الثورات ومجيء الجيوش من الشرق عدة مرات لإخمادها ينفي أن تكون ثورة ٢١٦ هـ مفاجئة للخليفة الذي ادعى بأنهم كنتموا عنه الأخبار حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد .. فكيف لا يعلم الخليفة أن والي مصر قد تغير عشر مرات وأن الثورة اندلعت في ربوعها أكثر من خمس مرات ، وأنها شملت الحواف الشرقي وعمّت الإسكندرية في الغرب وزحفت إلى الصعيد في الجنوب ... وهكذا تصدّت ثلاثة جيوش لثورات مصر —

١- لمزيد من التفاصيل انظر حسين نصار، ثورات مصر الشعبية.

فكان جيش المأمون يقاتل أهل الحوف .

وجيش الأفسنين يحاصر أهل البشرد

وجيش موسي بن إبراهيم ابن عم الخليفة يقاتل أهل الصعيد

ونجحت الجيوش الثلاثة في إخماد الثورات المصرية .. وكان حكم المأمون في

القبط يقضي [بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم]^١.

ويقال إن المأمون كان قد استفتي في قبط مصر فقيهاً يقال له الحارث بن مسكين ،

وهو علي مذهب الإمام مالك : [فقال إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا يحل دماؤهم

وأموالهم ، فقال المأمون (أنت نيس ومالك أتيس منك) هؤلاء كفار لهم ذمة إذا

ظلموا تظلموا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا (بأسياقيهم) ولا يسفكوا دماء

المسلمين في ديارهم ، وأخرج المأمون رؤساءهم فحملهم إلى بغداد]^٢.

ويقول ابن إياس : [سبوا القبط وقتلوا مقاتلتهم وأبادوهم وقمعوا أهل الفساد من

سائر أراضى مصر بعد أن قتلوا مقتلة عظيمة]^٣.

وسياسة المأمون القاضية بضرورة قتل كل الخارجين علي حكمه دون هوادة

كانت عامة وشاملة ؛ فبعد أن حكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال من الأقباط ،

وبعد أن انتصر جيشه الذي كان قد أرسله إلى الصعيد بقيادة ابن عمه موسي بن

إبراهيم ، أمر بأن يأتوا له بقائد ثورة الصعيد ابن عبيدس الفهري من طحا بصعيد

مصر إلى سخا في أسفل الأرض وقتله هناك [وتتبع كل من يؤمأ إليه بخلاف

فقتله ، فقتل ناساً كثيراً]^٤.

١- الكندي ص ٢١٦.

٢- اليعقوبي ص ١٩٢.

٣- ابن إياس / الجزء الثاني ص ٢١٥.

٤- الكندي ص ٢١٦.

ويروي الكوفي في كتاب "الفتوح" لحظة القبض علي عبيدس الفهري بقوله :
أحدثت به الخيل من كل جانب ، واشتعلت النار حواليه ، فلما نظر إلى ذلك خرج
هارباً هو وأصحابه ، فأخذ أسيراً ومعه أصحابه .

وعوملت البشرد معاملة البلاد المفتوحة عنوة ، حتى أن الطبري يتحدث عنها
كما لو كانت من بلاد الأعاجم التي يدخلها جيش المسلمين للمرة الأولى فيقول :-
[قرئ كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر]^١.

ويبدو أن رياح الفتنة قد انتقلت إلى حاشية الخليفة نفسه ، حيث وشي محمد بن
أبي العباس الطوسي وأحمد بن أبي دواد بيهي بن أكنم قاضي الخليفة ومفتيه ،
وبعد أن استمع المأمون إلى وشاية الواشين وأدرك مدي غضب أخيه أبي إسحاق
المعتصم علي هذا القاضي [فسخط عليه المأمون وأمر بنفيه من عسكره ونزع
السواد عنه وأخرجه إلى بغداد وأمره أن لا يخرج من منزله فأخرج من مصر
وأرسل موكلين به وسخط أيضاً علي عيسي بن منصور القائد الراققي وأخرجه من
عسكره وكان السخط عليهما في يوم واحد ، وكان مقام المأمون بمصر سبعة
وأربعين يوماً قدم لعشر خلون من المحرم وخرج لثلاث بقين من صفر
سنة ٢١٧هـ]^٢.

وسكنت مصر علي بحيرة الدم التي أريقط طوال هذه المدة ... ولم يعد بها من
مناوئ أو معارض [فلما خمدت هذه الفتنة ، سرح المأمون في ضواحي مصر ،
فكان يقيم في كل قرية يوماً وليلة ، ثم يرحل عنها ، فكان إذا نزل بقرية ، يُضرب
له سرائق من حرير ، ويجلس علي دكة من الأبنوس مطعمة بفضة ، وينصب له

١- الطبري / الجزء السابع ص ١٩٠.

٢- اليعقوبي ص ١٩٢.

عليها لواء من حرير أسود مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب^١.

مارية الثانية حقيقة أم خيال ؟

بعد كل هذه الثورات الناتجة عن قسوة الجباة في جمع الضرائب والفاقة والبؤس الشديدين المحيطين بالفلاح المصري ، تحدثنا بعض كتب التاريخ عن مارية أخرى ... قبطية أيضاً ... عاصرت وقت نزول الخليفة المأمون مصر في بداية القرن الثالث الهجري ، وكان لها ولقريتها الصغيرة ، انبسماء طاء النمل أو طاه انمل حكاية معه ... وربما لا نجد لهذه القرية أثراً في خرائط الجغرافيين المهمة بالأقاليم والمدن والقري الكبيرة فقط ، كما لا نجد لها ذكراً لدي ياقوت الحموي في " معجم البلدان " القديم ، أو عند محمد رمزي في " قاموس البلدان المصرية " الحديث ، ولضالة هذا الشأن مر بها الخليفة المأمون ، [فلم يدخلها لحقارتها] ، كما يقول المقرئ في كتاب " المواعظ والاعتبار " : [فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي نصيح فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها] .

ولأنه لا يعرف لغتها فلم يفهم سبب صياحها ... إنها تتحدث باللغة انقبطية علي الرغم من كونها تعيش في القرن الثالث الهجري والخليفة العربي ورجال دولته يعرفون أن شعب مصر القبطي وخصوصاً في القري ما يزال متمسكاً بلسانه القبطي ، ولذلك فقد كان المأمون يحتاط للأمر [ولا يمشی أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس ، فذكر التراجمة له أن القبطية قالت يا أمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن

يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف والعقبى ولا تشمت الأعداء ويكت بكاء كثيراً فرق لها المأمون وثني عنان فرسه إليها ونزل [١] .

عاد المأمون أنراجاه ودخل قريتها هو ورجال دولته ، ولكن هل تقدر تلك العجوز القبطية علي استضافة الخليفة والجموع المصاحبة له ؟ هذا ما لمح به المأمون لحاشيته حينما قال : [إن قريتها صغيرة لا تحمل العسكر ، ولا تطبيق هذه العجوز كلفتنا] .

وكانت القرى المصرية تضج قبل ذلك من كلفة الضيافة الإجبارية للجنود العرب ، فما بالناس بكلفة استضافة الخليفة وحاشيته ورجال دولته وعساكره وهو الذي يبني له [بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة] ، كما يقول المقرئزي ، أو حسب تفصيل ابن إياس بأنه [كان إذا نزل بقرية يضرب له سرادق من حرير ، ويجلس علي دكة من الأبنوس مطعمة ، وينصب له عليها لواء من حرير أسود ، مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب] .

وبرغم هذه الحشود الرسمية وضائلة حجم القرية بالنسبة لها فقد أصرت العجوز علي التمسك بالدعوة قائلة :

[لا سبيل أن يتجاوز أمير المؤمنين قريتي ، فعند ذلك ثني المأمون عنان فرسه ونزل بقريتها ، وضرب بها خيامه] .

فهل تستطيع أن تقوم بواجب الضيافة وتوفر له ما كانت تقدمه القرى الأخرى [من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والاعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك ؟] .

وكالعادة تقدم رواية ابن إياس تفاصيل أكثر فيقول :

[فلما استقر بها ومن معه من العسكر ، جاء ولد تلك العجوز إلى صاحب المطبخ وقال له : اذكر لي ما تحتاج إليه من غنم ، وبقر ، ودجاج ، وأفراخ السمك ، وأوز ، وسكر وعسل ، وفستق ، ولوز وفاكهة ، وحلوى ، ومسك ، وماورد ، وشمع ، وبقولات وغير ذلك مما جرت به عادة الخلفاء .

فلما ذكر له صاحب المطبخ ما تحتاج إليه فغاب ساعة يسيرة وأحضر له جميع ما يحتاج من تلك الأصناف التي ذكرها له ، ثم أحضر لأقارب المأمون لكل واحد منهم ما يخص به علي انفراده ^١ .

وأقارب المأمون المصاحبون له في تلك الجولة هم : [أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكرم — قبل أن يغضب عليه الخليفة ويبعده — والقاضي أحمد بن داود ^٢ .

ومع كل واحد من هؤلاء حاشيته وأتباعه الكثيرون .

ومارية العجوز القبطية أحضرت لكل فيلق [ما يخصه علي انفراد ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً حتى أنه استعظم ذلك .

فلما أصبح وقد عزم علي الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بُعد قال لمن حضر قد جاءكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناء والصبر ، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ، بما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا ، فقال إن في

١- ابن أبياس.

٢- المقرئزي.

بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقل عليك فردي مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا وأشارت إلى الذهب من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندي من هذا شئ كثير فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاهما من قريتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجباً من كبر مروعتها وسعة حالها^١.

تلك هي قصة مارية القرن الثالث الهجري التي ذكرها المقرئ ونقلها عنه ابن إياس بتفصيل أكبر في بعض المواضع ... أما المؤرخون الأقرب عهداً من زمن حدوث الحكاية والمهتمون بالإشارة إلى ما يخص ثورات الأقباط وخصوصاً أحداث عام ٢١٦ هـ وزيارة المأمون لمصر مثل الكندي المتوفي عام ٣٥٠ هـ فلا نجد لديه أي أثر عن هذه الحكاية الشبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة . كما لا نجد لها أثراً أيضاً لدى المتأخرين من المؤرخين مثل السيوطي في كتابيه " تاريخ الخلفاء " و " حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة " أو لدي ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه المهم " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " .

وفي الحقيقة إن القصة التي ذكرها المقرئ وأفاض فيها ابن إياس تحتاج إلى بعض التأمل . فحكاية مارية القبطية التي لم تخرج من قريتها ، ولم تذهب إلى الحكام بل جاء إليها الخليفة تجعلنا نتساءل : كيف يُعقل أن تمتلك كل هذا القدر من المال والذهب والمون في نفس الوقت الذي كانت كل القرى الأخرى تشكو الجوع والفاقة وفداحة استنزاف الجباة لثرواتها أولاً ... بأول ؟ .

هل كانت قريتها قطعة منقرعة من خريطة العذاب والواقع علي القرى الأخرى ... ؟ أم أن العجوز وجدت كنزاً قررت بذله لرجال الدولة عن طيب خاطر ... ؟

ولكنها تقرر في النص السابق أن هذا مشيرة إلى الذهب من هذا مشيرة إلى الطينة التي تناولتها من الأرض .. مما ينفي فكرة العثور علي كنز مفاجئ .
فهل أخرجت مدخراتها وخبيئة زمانها ؟ وأنني لها الادخار في ظروف جعلت أقرانها يبيعون أولادهم نظير ما عليهم من خراج . ويكفي أن نقراً وصف البطريرك ديونيسيوس بطريرك كنيسة إنطاكية والذي كان يحظى بمنزلة عالية لدي الخليفة المأمون فاصطحبه معه في رحلته إلى مصر وليساعده في التقرب إلى أقباط مصر وتهدة ثورتهم .

ويحكي ديونيسيوس عن مدينة تيس وهي مدينة كبيرة نسبياً فيقول : [ومع أن مدينة تيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس فإني لم أري من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني :

إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ، والماء الذي نشربه يُجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ،، ونعطي علي ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن علي كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنائير ، ومع ذلك نضرب ونسجن ونلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن ، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار ، ولو ولدت عندهم امرأة طفلاً فإنهم يأخذون قسمنا بالأناطال به ، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء فأجابهم البطريرك بأنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجزية أن يدفع الغني منهم ثمانية وأربعين درهماً والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثني عشر درهماً .

وكانت الجزية تؤخذ مقسطة علي سنة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين^١.

ومأساة مدينة تنيس تكررت في البلاد المصرية الأخرى مما دفع إلى الثورة العارمة ، فكيف تستثني قرية ماريا القبطية من تلك الظروف العامة وحتى إذا سلمنا بملكيتها لتلال الذهب في الحكاية ، لأسباب خارجة عن منطقنا المحدود أو بمقتضى التسليم بمبالغات المؤرخين فكيف تبذل ما تملك بتلك السهولة لملوك أبادوا إخوتها القبط في مواضع ثوراتهم ، فليس سراً أن الخليفة المأمون لم يكن يتنزه هو وعساكره ورجال دولته في ربوع مصر من أجل التمتع بالخضرة الوارفة وتنسم الهواء العليل ، ولم يكن في رحلة صيد كالتى نسمع عنها في حكايات ألف ليلة وليلة .. وإنما كان في جولة تأديب للقطر المنشق عن طاعته في ثورات متتالية فشلت جيوش قواده في إخمادها فاضطر إلى أن يأتي بنفسه علي رأس جيش كبير، بل ثلاثة جيوش بعث بأحدها إلى الصعيد والآخر إلى البشرد وترغم الثالث بنفسه للقضاء علي ثائري سخا .

وتفاصيل حكاية ماريا وخلفياتها غير المنطقية تدفعنا إلى التساؤل :

هل كان كرمأ من ماريا ؟.. أم هي الحيلة والدهاء ... ؟

هل هي مبالغات المؤرخين وما أكثرها ... ؟

أم هو عدم صحة الحكاية من الأصل ... ؟

وأيا كانت الإجابة فغرابية القصة تأتي من مفارقتها للواقع القبطي العام في ذلك الحين وابتعادها عنه كل الابتعاد .

الكنيسة مع من ... وضد من ... ؟

أموال الكنيسة قيود للشعب

كنيسة ضد الشعب

ويظل موقف الكنيسة القبطية من ثورة الشعب القبطي يشكل علامة استفهام كبرى بلغت ذروتها في عام ٢١٦ هـ مع ثورة البشموريين حيث لم يكتف البابا يوساب بأن [كتب إليهم كتباً مملوءة خوفاً وينكر لهم ما يحل بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان فلم يرجعوا فلم يفتّر من مكاتبتهم كل يوم وكان يكتب إليهم فصولاً من الكتب ويقول: قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذي يقاومه يُدان]^١.

ولم يكتف البابا بهذه المكاتيب المحطمة لروح الشعب بل كان في طليعة المستقبليين للخليفة المأمون وجيش التأديب الوافد تحت إمراته ، فيقول ساويرس بن المقفع: [لما علم الأب البطريرك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته بطرك أنطاكية جمع الأساقفة وسار إلى فسطاط مصر ليستلم عليه كما يجب للملوك .. فلما عرفوه بوصول أنبا يوساب تقدم بدخوله إليه فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمة الله الحالة عليه ثم عرفه أنبا ديونوسيوس - بطرك أنطاكية المقرب إلى المأمون والقادم معه من بغداد - أن أبانا لم يتأخر عن مكاتبتة البشموريين وأردعهم أن لا يقاوموا أمرك ، ففرح المأمون بهذا الأمر ثم قال للبطرك أنبا يوساب هو ذا أمرك أنت ورفيك البطريرك ديونوسيوس أن تمضيا إلى هؤلاء القوم وتردعاهم كما يجب في ناموسكما ليرجعوا عن خلافهم ويطيعوا أمري فإن أجابوا فأنا أفعل معهم الخير في كل ما يطلبونه مني وإذا تمادوا على الخلاف فنحن برئون من دمايتهم .

ففعّل أبوانا البطرکان وسارا إلى البشمویین وسألاهم ثم نصحاہم ووَبّخاہم لیتخلوا عن أفعالہم فلم یجیبوا ولا قبلوا سؤالہما فعادوا وأعلما المأمون بذلك فأمر حینئذ المأمون الأفشین الأمير بأن یسیر إلیہم بعسكره وأن یقاتل البشمویین]. ومن الغریب ألا یسجل لنا التاريخ أي دفاع یفہم منه من قریب أو بعید شبهة انحياز البابا یوساب إلى شعبه البشمویری ، بل أننا نجد دفاعاً صریحاً عنهم يأتي علی لسان بطرك الكنيسة الأنطاكية وصمت مطبق من بابا الكنيسة المصرية حینما تجراً وذكر أمام المأمون بأن ثورة البشمویین كانت بسبب [ظلم متولي الخراج وعنتهما وأعتابهما] .

فلما سمع منه المأمون هذا الكلام قال له :

[اعف نفسك ولا تقم بمصر بعد هذه الساعة إن سمع أخي إیراهیم فهو یقتلك] . فالأمون لم یبعثهما للتفاوض مع الشعب ، وسماع شکاواه ومظالمه لنقلها إلیه... وإنما بعثهما بهدف استخدام سطوتہما الدينية لإخراص الناس ... وحینما تجراً بطرك أنطاكية ، وذكر سبب الظلم الواقع علیهم غضب علیہ ونفاه من فوره خارج مصر دفاعاً عن أخیه إیراهیم المسئول عن تعیین جباة الخراج الظالمین... ولم تكد ثورة البشمویین أن تخدم والمأمون یرحل عن مصر ، حتی انقلب الحکام علی البطرک برغم تعاونه :

بعد أن جرد [أخو الأفشین سیفه لیاخذ رأس البطرک فعند ذلك مالت یده فوقع السیف فی عمود رخام وانكسر]¹ .

ونجا البابا یوساب بالصدفة من محاولة القتل ، ولكن أخا الأفشین [أخذہ لیمضي به إلى أخیه كما أمره وفيما هم یجذبونه لیخرجوه والشعب متعلق به فقال لهم لا تمسکونی فما نحن مقاومون للسلطان فخرج والشعب یتبعونه باکین یسجدون علی

رجليه وبيده ويظنون أنه يقتل فلما نظرهم أخو الأمير بمسكونه غضب جداً ورفع يده وضربه بمقرعة على رأسه فانجرحت عيناه ودخل إلى الأفشين فخاطبه بما ينبغي ... ولما علم المأمون الخبر من الواردين عليه أمر أن يكتب له سجل بكرامته ورعايته أن لا يعترضه أحد في أحكامه ولا في من يوسمه أو يقطعه ثم بعد ذلك أمر المأمون أن يطلب من بقي من البشموريين بكورة مصر وأن يسيروا إلى بغداد فسيروا وأقاموا في الحبوس مدة كبيرة حتى أراد الله خلاصهم من يد إبراهيم الملك بعد أخيه فمنهم من رجع إلى بلده ومنهم من بقي هناك ببغداد وأنشأوا بساتين وأقاموا هناك إلى اليوم وهم إلى اليوم - يقصد يوم كتابة تلك السطور من كتاب ساويرس - يسمون أهل البشرودين^١ . وربما كانت تلك الحادثة السبب في جعل ساويرس يفكر بأن المأمون [كان رجلاً حكيماً في فعله ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكماء يفسرون له كتبنا وبهذا الحكم كان محباً للنصارى]^٢ .

لأننا إذا بحثنا عن سبب القول بحب المأمون للنصارى فلن نجد له أصلاً في حوادث البشموريين الذين لاقوا العذاب على يديه من قتل وبيع وسجن حتى إن بقاياهم لم تتعق من السجن إلا بعد موت المأمون . وفي تاريخه لم يكن هناك تكريم لقبط مصر إلا حين أمر والي مصر بالإفراج عن البابا يوساب وأن يكتب له سجل بكرامته ورعايته^٣ .

وظل البابا يوساب يدعو شعبه في المواقع الأخرى بطاعة الخليفة حتى يأمن عقابه وبطشه ، فحينما بدأ يهتم بأمر النوبة والحبشه كتب إليهم كتباً تقول :

١- ص ٢٧٣ .

٢- ص ٢٧٠ .

[كانت خطيئتي تمنعني ألا أكاتبكم لأجل الحروب التي كانت بأرض مصر ومخالفة أهل البشرودين لأوامر الملك إلى أن قتلهم وأخرب مواضعهم وهدم بيعهم فوجدنا الوسيلة بهذه المكاتب أن نعلمكم ماجرى ويجب الآن يا أحبائي أن تتموا ما يجب عليكم لهؤلاء الملوك وإن كان لا يجب أن نأمركم بشيء من هذا فقد قاسيت عذاباً من أخوتي كما قاسى يوسف بن يعقوب من أخوته ^١ .

ومن المفارقات الطريفة أن اسم البابا يوساب الأصلي قبل دخوله الدير واندراجه في سلك الرهبنة كان يوسف وهو نفس اسم المثال الذي شبه به نفسه في رسالته إلى ملك الحبشة ، ولكن أي عذاب هذا الذي سببه له إخواته من القبط؟ بينما معذبه كانوا من الحكام العرب الذين يطالب أبناءه بطاعتهم .

والتمثيل يكون أصدق لو رأى أن الشعب القبطي كله يوسف وخصوصاً في حالة (يوسف) ملك النوبة المطلوب منه أداء خراج أربع عشرة سنة للخليفة الجديد وهو المعتصم الآن بعد وفاة المأمون، وقد احتار ملك النوبة حينما وصلته رسالة البابا التي يطالبه فيها بإعطاء المعتصم ما يريد .

وجعل يتساءل [ما الذي أصنع في ما التمس مني الملك ، من يجمع لي بقط أربع عشرة سنة أنفساً أنفذهم إليه ولا أتمكن من مفارقة كرسيّ لئلا يهلكوا البربر المخالفون لي ^٢ .

وظل الملك مهموماً يفكر كيف يجمع بقط أربع عشرة سنة ...؟
ومن أين له بخمسة آلاف وأربعين رأساً بشرية ، عن كل سنة ثلاثمائة وستين حسب الاتفاق المفروض على ملك النوبة ...؟

١- ص ٢٧٤.

٢- ص ٢٧٤.

واهتدى الملك الحيران إلى أن يبعث ابنه لمقابلة الخليفة الجديد في بغداد مروراً بمصر والمسئولين فيها أولاً لإيجاد وسيلة تخفف من حدة تلك الشروط .

وبعد انتهاء تلك المشكلة ظهرت مشكلة أخرى في عقر دار البابا حينما [أنفذ الملك إبراهيم أخو سلمويه بن بنان طبيب المعتصم المقرَّب إليه إلى مصر أن تؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام]^١.

وكان الرجل القادم للقيام بهذه المهمة مسيحياً على مذهب النسطورية الخلقيدونية ، فحسن له أتباع مذهبه المقيمون بمصر ، أعمدة كنائس الإسكندرية وكنيسة ماري مينا بمريوط ، [فلما نظر إليها وإلى زينتها حسن ما فيها من العمد والرخام الملون تعجب وبُهِت وقال هذا الذي يحتاج إليه الملك] ، وبدأ فعلاً في تجريد الكنيسة من رخامها الملون وبلاطها النادر ، [لأنه قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن]^٢ .

ولم يستطع الأنبا يوساب منع عملية تجريد الكنيسة من حليها وكل ما فعله هو الحزن والبكاء ، ثم إعادة تزيينها من جديد بحلي مستعار وإحضار صفائح مزوقة من مصر والإسكندرية وبدأ يعمر المواضع التي قلع منها البلاط بكل زينة حسنة حتى أن كل من يشاهدها ما يعلم أن قد مضى منها شيء^٣.

ولم تكد تنتهي محنة تجريد الكنائس من زينتها حتى تصادف حدوث وباء عظيم على البهائم بمصر ، [ولا يقدر أحد أن يمشي في الأزقة إلا بعد أن يسد أنفه من كثرة جيف الدواب حتى أن الزرع انقطع وقلت الثمرة وكانت أرض مصر في حزن عظيم ثم عاد الوباء على الناس وفنوا مثل البهائم]^٤ .

١- ص ٢٧٧.

٢- ص ٢٧٨.

٣- ص ٢٨٠.

وليس أمام البابا إلا أن يبكي على شعبه .

وكان في مصر في ذلك الوقت وال اسمه علي ابن يحيى الأرمني من قبل ابن إسحاق إبراهيم المعتصم ابن هرون الرشيد أخي عبد الله المأمون . وبدأ يهدم بيع فسطاط مصر فأول مبتدأ جاء إلى البيعة التي في قصر الشمع التي تسمى المعلقة فهدموا أعلاها حتى وصلوا إلى الأسطون] .

والبابا يبكي بيعته بدموع مرة ... لكن الدموع لا تفيد شيئاً ... بل كان غضب الوالي يتزايد وتهديده للبابا يوساب يتزايد أيضاً فيقول له : [ما أرفع الهدم عن البيع إلا بثلاثة آلاف دينار فقلق الشعب والأساقفة الحاضرون معه وقالوا يا أبانا لا يضق صدرك نحن نقوم بهذا المال فقسطه علينا لتسلم البيع ولا يلحقها شيء فتقدموا الأراخنة إلى الوالي وضمنوا له القيام بثلاثة آلاف دينار فهذا غضبة]^١ .

ولم تكد تنتهي تلك المشكلة حتى ظهرت مشكلة جديدة أثارها القاضي المسلم ضد البابا يوساب بسبب ثمانية من الغلمان والعبيد قبلهم البابا كهدية من ملك الحبشة ، وأدخلهم أحد كتاتيب الكنيسة ليتعلموا ، فعلم القاضي ، بذلك وأخذهم ودارت مشادة كلامية طويلة بين القاضي والبابا بشأنهم لأنهم مسلمون في رأي القاضي ونصارى في اعتقاد البابا ... وفي كل مناسبة كان يوساب يؤكد للقاضي: [أنا ما أقاوم أمر الملك ولا أقاوم كلمة صالحة] وانتهى الأمر لصالح القاضي الذي أمر بقسمة الغلمان فاقسمهم المسلمون . وكان لذلك القاضي رجل ينوب عنه بالإسكندرية وأعمالها وكان أشد منه وكان اسمه محمد بن بشير .. فأنفذ القاضي قاضي الإسكندرية أن يحضر الأب القديس أنبا يوساب البطريرك ويحضر معه المطرانيين فقال له لما حضر عنده قد أعلموني أن لك غلماناً الذين أمرك القاضي أن لا تقبلهم إليك دفعة أخرى بعضهم عندك وقد أعدتهم إلى نمتك فأجاب

القديس وقال له ما عندي شيء مما ذكر به وإني لم أشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم]. ثم ظهرت محنة جديدة في السنة الثامنة عشرة من بطركية حينما [ولي على مدينة الاسكندرية أمير اسمه مالك بن ناصر الحدر وكان انساناً سوء ظالماً فلما دخل المدينة بدأ أن يفعل سوء بكثير من الناس أكثر من الوالي الذي كان قبله فاعترض أصحاب الصنائع والتجار الكبار والبزازين والباعة وتقدم إلى التجار الكبار والبزازين أن لا يبيعوا ويشترؤا إلا حداً يحد لهم وعمل قياساً كبيراً] ١. وقد دخل هذا الأمير الظالم بيعة البطرك مع سرارية بل ودخل مخدعة الذي ينام فيه البطارقة كل زمان فطرد الأب منه وأدخل سرارية إليه وأكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه ، ولم يكن أمام البابا إلا أن يبكي .

ثم أمر الأمير باعتقال البطرك على إثر وشاية به أنه يكاتب ملوك الروم وأنهم يبعثون إليه أموالاً كثيرة ، وعوّل على عقوبته إلى أن يدفع له ألف دينار وهو صابر ولم يزل يهدده إلى أن استقر الحال على أربع مائة دينار ... وفي اليوم السابع لحبسه حينما كان يزن الدنانير ليدفع الأربعمائة المطلوبة مات الوالي .

ولم يلبث أن اعتل البطرك بعد ذلك بحمى ، وفي اليوم السابع من مرضه نتجّح أي مات ... بعد سلسلة طويلة من التسليم بإرادة الولاة وقواد الجيوش والخلفاء حيث عاصر البابا يوساب أربعة خلفاء هم المأمون والمعتمد والوائق والمتوكل خلال مدة إقامته على الكرسي البابوي ، وهي حوالي سبعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً ... كان طوالها مثال البابا الخاضع لأوامر الحكام وسطوتها فهل كان فريداً في ذلك ، أم أنه سار على نفس سياسة سابقة من بابوات الكنيسة المصرية منذ الفتح الاسلامي لمصر ...؟

وللإجابة على ذلك سنعود إلى جذب طرف الخيط الأول مرة أخرى وربما قبل ذلك بكثير .

فقد كانت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادي تملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التابعة للأديرة والبيع المختلفة ، وعلى سبيل المثال كانت تملك غالبية أراضي أفروديتو ومساحات واسعة من أراضي أكسير نخوس وأنطونيوبوليس ، وقد ذكر المؤرخون أكثر من عشرين ديراً وكنيسة بأنطونيوبوليس فقط .

ويقال إن أكبر الأديرة بمصر دير أنطانيوس ، [وهو يقع شرقي إطفيح من قبلي مصر ، وهو على جبل عالٍ ، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة ، وعليه حصن دائر ، وداخل الحصن بستان كبير وفيه نخل مثمر ، وأشجار تفاح وكُمثرى ورمان وغير ذلك ، وأرضه مزروعة بالبقول وله ثلاثة عيون ماء تجري دائماً ويُسقى منها البستان ، ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب وقيل إن عدد نخيله ألف رأس نخل ، وبه جوسق كبير وقلل للرهبان مطلة على البستان ، وله بإطفيح أيضاً أملاك وبساتين]^١ .

هذا بخلاف ما كانت تملكه الكنيسة في أسفل الأرض أو بحري البلاد ، وفي الإسكندرية مقر الكرسي البابوي... وقد ظلت الكنيسة حريصة على أملاكها وأوقافها، في نفس الوقت الذي كانت هذه الأملاك محط أطماع الرومان والكنيسة الملكية ومحل تنازع مستمر فيما بينهما...

وينكر بعض الباحثين أن الكنيسة تمتعت [في القرن السادس بحق الجباية الذاتية فقامت بجمع الضرائب من مؤجري أرضها]^٢

١- الحضارة الإسلامية - آدم متر ص ٨٨.

٢- ص ٨٦.

وحينما دخلت الكنيسة القبطية في محنتها الكبرى في أثناء اضطهاد قيرص الروماني لها، فر البابا بنيامين إلى أديرة الصعيد وكنائسها واختفى هناك حيث كانت سلطة الكنيسة القبطية واسعة هناك.

ثم جاء الفتح العربي لمصر، وتعاون بعض أغنياء القبط مع عمرو بن العاص وجيشه، ولعبوا دور الوصل بين عمرو من جهة والكنيسة القبطية من جهة أخرى. ومن المعروف أن الدوقس سنوتئوس أو الرئيس شنوده [كان من بين قواد الأسطول الرومي... وكان من انصار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكان مخلصاً للبابا بنيامين. وتقرب الدوقس سنوتئوس أو الرئيس شنوده من عمرو بن العاص بتقديم خدمات كثيرة له ولجيشه من إصلاح الطرق والجسور وإمدادهم بالمراكب اللازمة للعبور وتعريفهم بأسرار الخريطة المصرية...]

[فلما استقر الحكم العربي في الإسكندرية قرّبهُ القائد عمرو إلى مجلسه فانتَهز سنوتئوس فرصة... وأخذ بتمهيد السبيل لإعادة البابا بنيامين إلى كرسيه... ولما اطلع عمرو على جلية الأمر كتب أماناً للبابا بنيامين وأقر عودته ليكون حر التصرف مطلق اليد في جميع بيعه وأديرتِه وأوقافه بل أعطاه إلى جانب ذلك حق التصرف في كثير من أملاك الكنيسة الملكانية وأوقفها بعد خروج الرومان من مصر.

وقد أحدث عمرو بن العاص معياراً مزدوجاً في المعاملة واستخدامه استخداماً سياسياً موقفاً حين أعطى للكنيسة امتيازات لم تكن تنتظرها أو تحلم بها في نفس الوقت الذي طبقه قانون جباية الجزية والخراج من جموع الشعب القبطي دون هوادة...

بل إن القبضة التي استخدمها عمرو في تشديد سيطرته على الشعب كانت قبطية بالدرجة الأولى بعد أن قرب أغنياء القبط إليه، وترك لهم أعمالهم على

جاري عاداتهم، فظلوا الأعيان وسماهم (مقدمي القبط) واستخدم موازيت القرى أو المشرفين على جباية ضرائبها من القبط... وبذلك خلقت تلك الإزدواجية التي قسمت الشعب القبطي ورسخت انقسامه...

الاراخنة... الاراخنة... سامحهم الله

وظل أغنياء القبط حلفاء للحكام العرب يلعبون دور التهنة وتميرير السياسات... وإذا ما تتبعنا تجليات هذه العلاقة المعقدة بين الثالث المقدس: الحكام العرب والكنيسة وأغنياء القبط من خلال كتابات ساويرس بن المقفع، فلن يصيبنا الحزن إلا على فقراء الشعب القبطي وقود الثورات وضحاياها في نفس الوقت. فمقدمي القبط عملوا في الدواوين والموازيت تحت عباءة الحكم العربي ورايته... والكنيسة ظلت متمسكة بحكمتها الأزلية القائلة :

[أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله]. وحكمة القديس بولس القائلة [أعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له الجزية، الخوف لمن له الخوف ، الإكرام لمن له الإكرام].

وكل تعاليم الرسل القاضية بضرورة الصلاة « لأجل الملوك والذين لهم منصب » وفي أوقات تأزم العلاقة بين الكنيسة والحكام العرب يتدخل أغنياء القبط لحل الأزمة ، ولما كانت محنة البابا الإسكندروس الثاني مع قرّة بن شريك وإنهيه جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي تدفع الدم الزكي جعلنا عوضاً من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسّقات خشباً .^١

ولحل هذه المشكلة تقدم أرخن ذلك الزمان واسمه يونس وهو أحد أغنياء القبط و[رزقه الله قبولاً عند الولاة] وطلب يونس من قرة أن يوليه أمر النصارى ليستخرج منهم الخراجة فولاه على الأساقفة والرهبان .

وعمل هذا الأرخن على قمع الاتجاهات المذهبية المخالفة للكنيسة القبطية . وكان اختلاف الآراء الدينية شائعاً في أوساط بعض الرهبان فانتصر لرأي الكنيسة القبطية [وجمع كوررة مصر جعلها إحاداً واحداً وأمانة واحدة وأبطل سائر المقالات النجسات] كما يقول ساويرس بن المقفع .

وما لبث أن تلاشي الهدوء بتلاشي المال المدفوع إلى قرة بن شريك ، وزادت شراسته فأحدث بدعة الاستيلاء على ميراث الأراخنة فكان [كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتباً من تئيس وجماعة لا يحصون من مصر . وأخذ ماله حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع] .^١ والأكثر من ذلك هو صدور أمر نهب الثروات المعمارية للكنيسة [بأن تقلع من البيع العمد الملونة والرخام الذي في البيع ويحمل جميعه وكان الأب البطريرك حزيناً لأجل بيعته لأنها صارت خراباً لأجل ما فعلوه معه وهو مع هذا يشكر الله ويصبر بشجاعة] .^٢

وحينما تولى أسامة بن زيد التتوخي بعد قرة أمر بتفتيش الأديرة ومراجعة كشوفها [فوجد فيها جماعة من الرهبان بغير حلق في أيديهم فمنهم من ضربت رقبته ومنهم من مات تحت السياط ثم أنه سمر باب البيعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار وجمع مقدمي الرهبان وعذبهم والتمس منهم عن كل واحد منهم ديناراً وقال

١- ص ١٤٥ .

٢- ص ١٤٦ .

مضى لم تقوموا بذلك هدمت البيع وأخربتها وجعلتكم في مراكب الأسطول فقلقوا الشيوخ الرهبان وتمنوا الموت [١].

ولم تخرج الكنيسة القبطية من هذا المأزق إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى عمر بن عبد العزيز الذي عزل والي مصر أسامة بن يزيد التتوخي [و أمر أن لا يكون على أواسي البيعة والأساقفة خراج وبدأ أن يجعل البيع بغير خراج والأساقفة وأبطل الجبايات] .

في نفس الوقت الذي أمر فيه بأن [تؤخذ الجزية عن سائر الناس الذين لا يسلمون] [٢] .

ثم تولى عبيد الله بن الحبحاب ولاية مصر فبادر إلى وسم جميع الأقباط حتى أنه قبض على البطريرك نفسه ليسمه ...

وكان البطريرك شديد الحزن رافضاً كل الرفض لوسمه بتلك العلامة ومات من شدة غمه ... وقبض الوالي على مساعده الذي حاول الفرار معه من الوسم وطالبه بألف دينار نظير إطلاق سراحه ، وجعل عسكره يعذبونه على مرأى من الناس أمام كنيسة ماري جرجس حتى جمع له الناس ثلثمائة دينار وتوسط له رؤساء النصارى .

وفي ولاية حفص بن الوليد ذهب أراخنة مصر إلى البطريرك ينعون إليه نتيجة آخر إحصاء توصلوا إليه لعدد القبط المتحولين إلى الإسلام لقد [حضرُوا عنه هم حزان وقالوا له يا أبانا صل علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى الإسلام من إخواننا بني المعمودية من مصر وأعمالها على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان فقال لهم الأب يا أولادي آمنوا أن في هذا الشهر تنظرون بأعينكم هذا

١-ص١٤٨.

٢-ص١٤٩.

الوالى الكافر حفصاً يحرق جسده بالنار فى وسط فسطاط مصر وىقتل رجاً بالسيف فتمت نبوة هذا الاب بسرعة^١

وكما نعلم من أحداث التاريخ فقد بعث الخليفة جيشاً بقيادة حوثره وانتصر على المتمردين وأحرق حفص وقتل رجاً بالسيف .

وفى نفس زمن البابا خائيل تحايل بعض التجار الخلقدونيين ودفعوا للخليفة مروان مالاً ليستردوا كنيسة أبى مينا بمربوط بحجة إنها كنيسة ملكانية وقد انتزعتها منهم الكنيسة القبطية . وأرسل الخليفة مروان بن محمد إلى والى مصر عبد الملك بن موسى بن نصير ليحقق فى الأمر ويرى لمن تكون ملكية الكنيسة محل النزاع .

فجمع الوالى ممثلى الطرفين لينظرهم فى الأمر ...

حفلة فى قصر الأمير

فكان زحام شديد ... أناس من كل مكان ... قبط وملكانيون قسس ورهبان ... كُتاب وأراخنة (سادة ومسئولون ورؤساء عائلات) من الصعيد ومن بحري جموع كبيرة يحيط بهم عسكر وموالٍ ، وهناك فى المقدمة على سرير الملك جلس والى مصر عبد الملك بن موسى بن نصير وحوله حبابه وعساكره ورجال دولته وكتابه وقضاته وبعض أعيان العرب فى مصر ...

أزياء مختلفة ... ووجوه مختلفة ... ضجيج عظيم ولا أحد يسمع شيئاً س كثرة الأصوات وتداخلها ..

وقد دعا الوالى رجال الكنيستين فى هذا المحفل أو تلك المناظرة ليحل مشكلة قديمة تعود إلى بداية الفتح العربى لمصر ، وقد سبق هذا الجمع تحقيق استمر

حوالي الأربعين يوماً ، أوكّل خلالهم الوالي إلى صاحب ديوانه ويدعى عيسى بن عامر أمر الناظر في تلك القضية الشائكة وحاول الملكانيون رشوة عيسى بن عامر وحملوا إليه الهدايا ليساعدهم فيما يلتمسونه ، أما البطرّك القبطي البابا خائيل فكتب رساله تثبت حق كنيسه في بيعة أبي مينا بمربوط وسلمها لعيسى ، وقد مال عيسى هذا مع الملكانيين بسبب ما قنموه له من هدايا ، ورفض البطرّك القبطي دفع رشوة وما لبث عيسى بن عامر أن عزّل عن أمور الديوان وتوالى مكانه رجل يدعى أبا الحسين فأَنصف البطرّك القبطي وحكم له ... لكن الحكم لم يعجب الملكانيون فرفعوا أمرهم مرة أخرى للوالي الذي دعا الجميع إلى ذلك المحفل في قصره . ويقول ساويرس [حضرنا جميعاً بعد هذا إلى عند الملك وكان قد كتب ذلك اليوم كتاباً إلى مصر وأعمالها يأمر أن يجمع إليه الكتاب والأراخنة من كل بلد وأحضرهم وكان القصر مشحوناً بالناس حفلاً ، حتى لم يكن أحد يسمع شيئاً من كثرة الأصوات فدخلنا نحن أيضاً وحولنا خلق كثير فلما جلسنا انفرد قسطنطين الاسقف عنهم - يقصد عن الجانب الملكاني - وجلس مع أساقفتنا وسألهم أن يقبلوه ويشركوه معهم ويعطوه كرسية وكانت الجموع وأهل البلاد حولنا متطلعين لمعرفة ما يستقر وينظرون أساقفة الأرثوذكسيين والخلقونيين فوثبوا قوم من الصعيديين - قبط الصعيد - على قسطنطين لما علموا أنه خلقوني ليطردوه حتى رموا الأساقفة الارثوذكسين شيئاً من لباسهم وأخلطوه معهم وإلا كانوا الصعيديون يقتلونه ، ثم صرخوا الصعيديون قاتلين ابعدوا الذئاب من وسط الخراف اهربوا من السباع الضارية المفترسة للنفوس أطرّدوا الثعالب الذين يهلكون كرم ربّ صباوت ابعدوا يودس من وسط تلاميذ المسيح لا تجعلوا ثيابكم تخط بهؤلاء الأنجاس يا عبيد المسيح فعند ذلك اختفى قسماً إلى أن زال غضبهم ...

ثم حضر للوقت الأرخب متولي الإسكندرية ابراهيم الماحكي لأنه كان جالساً في ناحية من القصر ومعه جماعة من الهرطقة ، فجروا وأرادوا الهرب وأن رجلاً من أهل دمياط كان شريراً جداً فخاطبته أنا الخاطي بكلمة سمعتها فوثب في وسط الجماعة ووقف وشممني وجدف على الثالث المقدس فحينئذ شاهدته وكل الحاضرين قد انشق الثوب الذي عليه من فوق إلى أسفل على ثلث قطع فصرخ كما من في القصر المسلمون والنصارى لا أمانة إلا أمانة الأب أنبا ميخائيل وكان صراخ عظيم في القصر وسعوا الناس لينظروا ما قد كان حتى أن الناس والعسكرية من كثرة زحامهم نالهم جراح وقتال فأمر عبد الملك بإخراج كل من في القصر [١] .

وهكذا قُتل المناظرة وكانت أن تتقلب إلى حرب ضروس بين الطرفين لولا سيطرة عسكر الوالي على الموقف وإخراجهم لكل من في القصر ...

وقد قصدت تقديم نص ساويرس لتوضيح صورة أول مؤتمر يجمع بين المذاهب المتصارعة على ملكيتها للكنائس ، ومن خلف كل جانب أغنياء يدفعون الصراع ويأججونه وحينما أعلن أحد القساوسة الملكانيين رغبته في الدخول تحت عباءة الكنيسة القبطية ، أراد إبراهيم الماحكي الانسحاب ومعه فريق من الملكانيين الذين يسميهم ساويرس الهرطقة ... وينفض المؤتمر دون حل وتعود القضية إلى قاضي البلاد المسلم لينظر في دعاوي الجانبين بعد أن أمره الوالي [أن يفصل النوبة وقال انجز حالهم ودعهم أن يمضوا] .

وبعد سماع الطرفين واستقصاء مدى صحة كلامهما سلم البيعة للأنبا ميخائيل فعادت كنيسة أبي مينا بمربوط إلى الرعاية القبطية ولم تك تمضي فترة قصيرة حتى قبض الوالي على الأنبا ميخائيل بطريرك القبط حتى يوفي بالخراج الواجب

على كنائسه وتوالت أحداث سقوط الدولة الأموية ونزل الستار على آخر فصولها والخليفة ينتف شعر البابا ويعذبه على مرأى ومشهد من الجيش العباسي الوافد على الضفة الأخرى من النهر وبصحبتة أراخنة القبط ومقدموهم يفتحون لهم الطريق ويمدونهم بالسفن ويعرفونهم أسرار الخريطة المصرية أيضاً .

ملحق [١]

في رواية البشموري تخطط سلوي بكر بين ثورة البشموريين . التي حدثت في زمن البابا خائيل وهو البابا رقم ٤٦ في الكنيسة المصرية ، وقد جلس علي كرسي البطريركية منذ ١٤ سبتمبر ٧٤٣ ميلادية وحتى وفاته في ١٢ مارس ٧٦٧ م ، فكانت مدة إقامته علي الكرسي حوالي ثلاثة وعشرين عاماً ونصف العام ، عاصر خلالها من الخلفاء : -

هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وزيد بن الوليد وإبراهيم ومروان وعبد الله أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور - وبين ثورة البشامرة التي حدثت في زامن البابا يوساب وهو البابا رقم ٥٢ في تاريخ الكنيسة القبطية ، وقد تولى منذ ١٨ نوفمبر ٨٣١ م حتى ٢٠ أكتوبر ٨٤٩ م . وكانت مدة إقامته علي الكرسي سبعة عشر عاماً وإحدى عشر شهراً عاصر خلالها من الخلفاء : المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .

وقد اختلطت ثورة البشموريين علي الكثير من الباحثين بسبب اشتعالها عدة مرات في نفس المنطقة والمناطق المحيطة بها .

وقد وقعت سلوي بكر في نفس الخطأ حينما جعلت مينا بن بغيرة زعيم ثورة البشموريين في أثناء ولاية البابا خائيل علي كرسي البطريركية ، وهو نفسه زعيماً لثورة البشموريين في عهد البابا يوساب ..

ولا يخفى علينا أن الأولى قد تزامنت مع أحداث سقوط الدولة الأموية وبداية تأسيس الدولة العباسية . بينما ثورة البشموريين المعاصرة للبابا يوسف لم يكن يتزعّمها بشموري بهذا الاسم . كما اختلفت أحداثها عن أحداث الأخرى المعاصرة للبابا خانيّل .

فبينما كانت ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بغيرة في عهد البابا خانيّل ضد الدولة الأموية وخليفتها مروان بن محمد وقائد جيوشه المدعو كوزارا أو الجوثرة الذي قبض علي الأب ميخائيل وقال له [كيف مكنت أولئك النصاري أن يقاتلوا — يعني عن البشامرة] وحمله نتيجة الثورة فسجّنة وطالبه بالأموال وعذبه بأن جعل رجله في طوبة حديد . ثم فكر الجوثرة بعد ذلك في استخدام البابا خانيّل لمكاتبة البشموريين وإقناعهم بالتراجع عن الثورة ، فحمله معه إلى رشيد وأمره بأن يكتب لهم ويقول أن كل ما حل به من سجن وتعذيب كان بسبب ثورتهم .. فاستشاط البشامرة وضاعفوا ثورتهم ضد آخر جيش أموي ، في نفس الوقت الذي كانت انهيارات الدولة الأموية تتوالى بسرعة مذهلة ، وينتهي فرار الخليفة مروان بن محمد إلى مصر وأحرق القسطنطينية كما رأينا .

واندفع البشامرة في مساعدة الجيش العباسي فأمدوهم بالمراكب وبالمعونة ليتمكنوا من القضاء علي الخليفة الأموي القابض علي البطرك خانيّل .. [وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخراسانيين إن بطركنا قد أخذ مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم] .

ملحق [٢]

وحينما نصل إلى ذكر البشموريين فيجب أن نتوقف قليلاً قبل الخوض في تفاصيل ثورتهم لنسأل أين تقع بلاد البشموريين علي وجه التحديد ؟ خصوصاً وقد

اختلف المؤرخون والباحثون وتضاربوا بشأن موقعها واسم سكانها . فعلى حين يسميهم اليعقوبي - المتوفي بعد سنة ٢٩٢ هـ - أهل البشرد في موضع ، وفي موضع آخر يقول إن البيما هم قبط البشروط ... ثم يذكر البشرد ضمن كفور أسفل الأرض . يذكر ابن عبد الحكم صاحب " فتوح مصر " أن الخيس من البيما ظلوا يقاتلون الناس سنين بعد ما فتحت مصر . الكندي أيضاً يسميهم أهل البشرد كما يتفق معه المقرئ في استخدام الاسم نفسه ، وكذلك ساويرس بن المقفع حيث يقول - ص ٢٧٣ - البشموريين وهم إلى اليوم يسمون البشرويين .

ويحدد ياقوت الحموي موقع البشمر على كورة دمياط وأن فيها قري وريفاً وغياضاً وفيها كباشاً ليس في الدنيا مثلها عظماً وحسناً . ويعود في موضع آخر ليذكرها باسم البشرد قائلاً أنها كورة من كور بطن الريف بمصر ، كذلك يفعل القرويني صاحب كتاب " أثار البلاد وأخبار العباد " ، حينما يقول : البشمر هي كورة بمصر بها قري وريف وغياض بها كباش ليس في جميع البلاد مثلها عظماً وحسناً ويذكرها البكري الأندلسي دون تحديد مكان لها علي وجه التحديد ولكنه ينسب إليها قول أبي تمام الشاعر العباسي المشهور في هجاء بعض الناس وتذكيرهم بأصل يندو في رأيه وضعاً حيث يقول : -

ونسيتُ سوءَ فعالكم نسيانكم

أساسكم في كورة البشرد

ويضعها القلقشندي في الجزيرة الواقعة بين فرقتي النيل الشرقية والغربية والحاوية خمس كور : - فهي تجاور كورة تمسيس ومنوف وكورة طوة ومنوف وكورة سخا وكورة نقيرة وديصا وهي الكورة الخامسة إلى جوارها ثم يذكر أنها من الأسماء التي جهلت ، أما أبو الفدا في كتاب " تقويم البلدان " فيحدد موقعها فيما

بين نيل أشموم طنّاح ، وهو الشرقي ونيل دميّاط وهو الغربي ، وما بين هذين النيلين جزيرة يُقال لها البشمور ، وفي موضع آخر يحدّد عاصمة البشمور بأنها أشموم طنّاح أو أشموم الرُمان ، ويسمّيها العامة الآن أشمون الرمان - التي هي قسبة - أي عاصمة - كورة الدقهلية وقسبة البشمور أيضاً .

ويشاركه الأسعد بن مماتي في كتاب " قوانين الدواوين " تحديد موقع البشمور في الدقهلية . ساويرس يقول إنّها علي مسيرة يومين من رشيد ويذكر أهلها حيناً باسم البشموريين وحيناً باسم البشروديين . وكذلك المقرّيزي يسميهم أهل البشرود .

فالقنماء يجمعهم الميل إلى ذكرها ضمن الحوف الشرقي بالقرب من بحيرة المنزلة ودمياط وتتنس عموماً والدقهلة خصوصاً ، أما الباحثون المحدثون فيرون مكانها بوضوح أحياناً وتغيب عنهم الرؤية أحياناً أخرى ، فيقول علي باشا مبارك في كتاب " نخبة الفكر في تدبير نيل مصر " فيذكر بلاداً تُعرف بالبشمور عند بحرويش وفي قبلية بقليل مدينة سمّود وكان يمر بأسفل بلاد الغربية في بلاد تُعرف بالبشمور ويصب في المالح عند مدينة بوطو القديمة ، وفي موضع آخر يقول إنّ بحرويش هذا الذي تقع عليه البشمور يستمر إلى المنصورة أو قريبها ؛ فينقسم إلى البحر الصغير وبحر دميّاط . أما محمد رمزي فيقول في " انقاموس الجغرافي " بعد بحثه عن موقع البشرود تبين له إنّها كانت كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشرود رقم ١١ المحرف عن البشرود بأراضي الناحية المذكورة . ثم يقول في نفس الصفحة (٣١ - القسم الأول) إنّ البشمور كان يُطلق قديماً علي إقليم من أخصب الأقاليم في شمال مصر شرقي الدلتا ويسميه اليونان Bucolies وورد في معجم البلدان " : البشمور كورة بمصر قرب دميّاط

وفي الانتصار : " البشمور من نواحي أعمال الدقهلية وفي تاج العروس نفسها : البشمور قرية بالدقهلية " .

وبالبحث عن موقع هذا الإقليم تبين لي - محمد رمزي - أنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع النيل الشرقي وهو فرع دمياط وبين البحر الصغير بمديرية الدقهلية وذلك في المسافة الواقعة علي فرع دمياط بين قرية محلة أنشاق وقرية السرو بمركز فارسكور وفي المسافة الواقعة علي البحر الصغير بين قرية القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكرنس ، وفي عهد دولة المماليك كان البشمور يطلق علي أرض زراعية ذات وحدة مائية وقد ألغيت هذه الوحدة وأضيف زمامها إلى أراضي ناحية دكرنس بمديرية الدقهلية ويدل علي موقع هذه الوحدة حوض البشمور رقم ٣٢٢ بأراضي ناحية دكرنس المذكورة .

وبذلك يفرق محمد رمزي بين البشرد ويضعها في كفر الشيخ والبشمور ويتركها في الدقهلية قرب دمياط بعكس ما اتفق عليه القدماء من أنهما شيء واحد....

وقد استقي بعض المحدثين معلوماتهم من " القاموس الجغرافي " لمحمد رمزي دون تحقيق تلك المعلومات فيذكر الدكتور حسين نصار علي سبيل المثال في هامش كتاب " ولاية مصر " الذي قام بتحقيقه للكندي أن البشرد : - كورة كانت في أراضي ناحية سيدي غازي (الكفر الغربي سابقاً) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشرد وبذلك يضع البشرد في الغرب مع من وضعوها غرباً .. أما الدكتور حسين مؤنس فيذكر في " أطلس تاريخ الإسلام " أن أهل البشرد هم أهل منطقة المنزلة في الشرق - لكننا نجد ضمن خرائط الأطلس خريطة بها حوض البشمور واقعاً بين رشيد وإسكندرية غرباً ... متفقاً في ذلك مع خريطة وردت في كتاب تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي

لأبي المكارم الذي يُنسب خطأً لأبي صالح الأرمني - انظر ملحق الخرائط - ويقع جاك تاجر صاحب كتاب^١ في خطأ أكبر حينما يعرف أراضي البشموريين بأنها [أرض واقعة علي مستنقعات يُزرع فيها الغاب بين الإسكندرية ورشيد بالقرب من بحيرة إدكو] وربما يعود مصدر خطئه إلى الاعتماد علي كلام سعيد ابن البطريق^٢ الذي يمعن في الخطأ في حديثه عن أصل البشموريين بأنهم [سلالة أربعين يونانياً بقوا في مصر بعد انتصار العرب ثم نما عددهم بالتزاوج] ص ٩٨ وسوف يسقط هذا الزعم عن الأصل التاريخي حينما نستعرض تاريخ ثورات المنطقة بعد قليل

ويحاول بعض الباحثين التخلص من مأزق تحديد موقع البشموريين في شرق مصر أو غربها بتوسيع القاعدة حتى تشمل كلا الأرضين فيقول حاجي إبراهيم محمد في كتاب (مقدمة في العمارة القبطية الدفاعية) .. [آثار أهل البشمور - بين دمياط ورشيد] وبذلك يجعلها تشمل كل المساحة الواقعة بين بحيرتي المنزلة شرقاً والبرلس غرباً .

وكذلك الأمر لدي الدكتور عبد المنعم ماجد في كتاب^٣ حيث يقول [البشمور قرب دمياط علي ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط] فيحدها بحدود الساحل بين البحيرتين . وصحيح الأمر هو الإجماع التاريخي الأول لساويرس بن المقفع الذي يري أنها إلى الشرق من رشيد بمسافة يومين ، وهو الزمن نفسه الذي حدده

١ - ربما تقصد المؤلف كتاب مسلمون وأقباط لجاك تاجر (و،أ)

٢- سعيد بن البطريق ، ولد في القسطنطينية سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م. من آثاره كتاب نظم الجواهر .

٣ - ربما تقصد المؤلف كتاب: " العصر العباسي الأول " و القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين - التاريخ السياسي - د. عبد المنعم ماجد - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٣٧ (و،أ).

الإدريسي للمسافة بين دمياط ورشيد في السفر يومين .. والأسعد بن مماتي والأدفي الذي فاق الجميع في تحديد عاصمتها بأشمون الرمان فيتأكد بذلك أن البشمور هي أراضي الدقهلية وما جاورها من الجمالية والمطرية ... وهي منطقة ثورات قديمة بدأت قبل دخول العرب مصر - في بحثه عن الأرض والفلاح وفي مصر الرومانية - حينما [لجأ آلاف من سكان الريف إلى الاعتصام في مستنقعات شمال الدلتا وأحراشها وذلك في سنة ١٧٢ م في عصر الإمبراطور ماركوس أو يليوس ، واضطرت الإدارة الرومانية إلى الاستعانة بالجيش من أجل القضاء على الثورة التي أوشكت أن تستولي على الإسكندرية ذاتها]^١.

ونجد في كتاب " فتوح مصر وأخبارها " لابن عبد الحكم أن البيما - وهو اسم ثالث يطلق على قبط البشرد - ظلوا يقاتلون الجيش العربي سبع سنين بعد فتح مصر وسيطرة عمرو بن العاص عليها وعلى عاصمتها . فيقول : - [وأقامت الخيس من البيما يقاتلون الناس سبع سنين بعد ما فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض]^٢.

١- الأرض والفلاح في مصر الرومانية / مصطفى العبادي / ص ١٣٦.

٢- عن : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور / الجمعية المصرية للدراسات التاريخية / القاهرة ١٩٧٤م.

جدول قضاة مصر في الدولة العباسية حسب كتاب الكندي

١	عبد الرحمن بن أبي سالم الجبشاني	تولى حتى ١٣٢ هـ
٢	خير بن نعيم "ولاية الثانية"	من قبل أبي عون
٣	غوث بن سليمان الحضرمي	من قبل أبي عون ١٣٥ هـ
٤	أبو خريمة إبراهيم بن يزيد	من قبل الأمير يزيد بن حاتم ١٤٤ هـ
٥	عبد الله بن لهيعة	من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر ١٥٥ هـ
٦	إسماعيل بن اليسع الكندي	من قبل المهدي ١٦٧ هـ
٧	غوث بن سليمان	من قبل المهدي ١٦٨ هـ
٨	المفضل بن فضالة القتباني	من قبل الأمير موسى بن مصعب ١٦٩ هـ
٩	أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الأنصاري الأعرج	من قبل الهادي ١٤٤ هـ
١٠	عبد الملك بن محمد الحزمي	١٧٤ هـ
١١	المفضل بن فضالة "الثانية"	من قبل داود بن يزيد بن حاتم المهدي ١٧٤ هـ
١٢	محمد بن مسروق الكندي	من قبل هارون الرشيد ١٧٧ هـ
١٣	إسحاق بن الفرات	١٨٥ هـ
١٤	عبد الرحمن العمري	من قبل هارون الرشيد ١٨٥ هـ
١٥	هاشم بن أبي بكر البكري	من قبل الأمير ١٩٦ هـ
١٦	إبراهيم بن البكاء	من قبل الأمير جابر بن الأشعث ١٩٦ هـ
١٧	لهيعة بن عيسى الحضرمي	من قبل عباد بن محمد ١٩٦ هـ
١٨	الفضل بن غانم	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي ١٩٨ هـ
١٩	لهيعة بن عيسى « ولاية ثانية »	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي
٢٠	إبراهيم بن إسحاق القاري	من قبل السري بن الحكم ٢٠٤ هـ
٢١	إبراهيم بن الجراح	من قبل السري بن الحكم ٢٠٥ هـ
٢٢	عيسى بن المكندر	من قبل عبد الله بن طاهر ٢١١ هـ
٢٣	هارون بن عبد الله	من قبل المأمون ٢١٩ هـ

كتاب تاريخ وجدول بطاركة الإسكندرية القبط
وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين

تاريخ التقدمة	الاسم قبل البطركية	الوطن الأصلي	الأسماء		اللقب المعروف به	اللقب
			بالتعريف	بالتعريف		
١٤٤٤	٢٦ يولييه ٤٤٤	٢ مسرى ١١٦٠	ديسفرس الأول	ديسفرس الأول	اللقب المعروف به	١
٤٥٥	٢٦ يولييه ٤٥٥	٣ يولييه ١١٧٢	ثيودورس الثاني	ثيودورس الثاني	المعترف	٢
٤٧٧	٢٧ سبتمبر ٤٧٧	٤ توت ١١٩٤	بطرس	بطرس		٣
٤٨٩	٢٧ نوفمبر ٤٨٩	٢ كيهك ١٢٠٦	ثيودورس	ثيودورس		٤
٤٩٦	٢٩ سبتمبر ٤٩٦	٣ يولييه ١٢١٣	يوحنا	يوحنا	يوحنا الرابع	٥
٥٠٥	٢٩ مايو ٥٠٥	٣ يولييه ١٢٢١	يوحنا	يوحنا	يوحنا الخامس	٦
٥١٦	٢٩ مايو ٥١٦	٣ يولييه ١٢٣٢	ديسفرس	ديسفرس	ديسفرس السادس	٧
٥١٨	٨ نوفمبر ٥١٨	١ هاتور ١٢٣٥	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس السابع	٨
٥٣٦	١٠ فبراير ٥٣٦	١٥ اشير ١٢٤٢	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس الثامن	٩
٥٦٧	٢٥ يولييه ٥٦٧	١٠ مسرى ١٢٧٣	بطرس	بطرس	بطرس التاسع	١٠
٥٦٩	٢٦ يولييه ٥٦٩	٢٨ يولييه ١٢٧٥	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس العاشر	١١
٦٠٥	١٨ يولييه ٦٠٥	٢٤ يولييه ١٢٧٦	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس الحادي عشر	١٢
٦١٦	٢٠ ديسمبر ٦١٦	٢٤ يولييه ١٢٨٧	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس الثاني عشر	١٣
٦٠٣	٤ يناير ٦٠٣	٩ طوبة ١٢٨٩	ثيودورس	ثيودورس	ثيودورس الثالث عشر	١٤

رقم	الأسماء		الوطن الأصلي	الاسم قبل البطريكية	الدير المتخرج منه	تاريخ التقدمة	
	بالعربي	اللقب المعروف به				للسهداء	تاريخ الميلاد
١٥	إغاثو	ولد بنيامين	مريوط	أغاثون	..	١٤ طوبه ٣٧٨	٩ يناير ٦٦٢
١٦	يوحنا الثالث	يوحنا السمنودي	سمنود	حنا	..	أول كيهك ٣٩٧	٢٧ نوفمبر ٦٨٠
١٧	إسحق	-	البرلس	إسحق	..	٨ طوبه ٤٠٦	٣ يناير ٦٩٠
١٨	سيمون الأول	سيمون السرياني	سورياني الجنس	سمعان	-	٢٣ كيهك ٤٠٩	١٩ ديسمبر ٦٩٢
١٩	الإكسندروس ٢	-	بابيروس بالسلة قهير	الإكسندروس	أبو مقلد	٣٠ برمودة ٤٢٠	٢٥ أبريل ٧٠٤
٢٠	قسما الأول	-	»	قزمان	دير الزجاج	٣٠ برمها ٤٤٥	٢٦ مارس ٧٢٩
٢١	تاودروس	-	-	تادرس	-	أول أبيب ٤٤٦	٢٥ يونيه ٧٣٠
٢٢	خانبل الأول	خانبل الأخير	-	خانبل	-	١٧ توت ٤٦٠	١٤ سبتمبر ٧٤٣
٢٣	ميثا الأول	-	سمنود	ميثا	-	أول برمودة ٤٨٣	٢٧ مارس ٧٦٧
٢٤	يوحنا الرابع	-	بنا وابوصير	يوحنا	دير الزجاج	١٧ طوب ٥١٥	١٢ يناير ٧٧٧
٢٥	مرقس الثاني	مرقس الجديد	الإسكندرية	مرقس	دير تابوروبريخس	٢ أمشير ٥١٥	٢٦ يناير ٧٩٩
٢٦	ياكوبوس	العمود المضئ	نبروه	يعقوب	-	٤ بشنس ٥٣٥	٢٩ أبريل ٨١٩
٢٧	سيمون الثاني	سيمون السرياني	الإسكندرية	سمعان	-	٢١ أمشير ٥٤٦	١٥ فبراير ٨٣٠
٢٨	يوساب	-	منوف	يوسف	دير قيربوس	٢١ هاتور ٥٤٨	١٨ نوفمبر ٨٣١

الملك المعصرون	محل الدين	مركز الدراسة	مدة التعلّم	مدة الإقامة	تاريخ النسخة		ط
					تاريخ النسخة	تاريخ النسخة	
			١٨ شهر سنة	١٨ ٩ ٢	١٢ أكتوبر ١٨	١٦ يناير ٣٩٧	١٥
معاوية بن أبي سفيان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١ ١٤	١٨ ٩ ٢	١٢ أكتوبر ١٨	١٦ يناير ٣٩٧	١٥
معاوية بن أبي سفيان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١ ١٧	٩ - -	٢٧ نوفمبر ١٨٩	١٠٦ أكتوبر ١٠٦	١٦
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١ ١٤	٢ ١٠ ٢	١٩٢ نوفمبر ١٩٢	٩ أكتوبر ٤٠٩	١٧
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	٢ ٩ ٧	٧ ٧ -	٧٠٠ يناير ٧٠٠	٢٤ أبريل ٤١٦	١٨
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١ ٢٢	٢٤ ٩ ٧	٧٢٩ فبراير ٧٢٩	٧ أكتوبر ٤٤٥	١٩
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- - -	١ ٢ -	٧٢٠ يناير ٧٢٠	٢٠ يونيو ٤٤٦	٢٠
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	١ ٧ ١٢	١١ ٧ ٧	٧٢٢ فبراير ٧٢٢	٧ أكتوبر ٤٥٨	٢١
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- - ١٥	٢٢ ٦ -	٧٢٧ مارس ٧٢٧	١٩ أبريل ٤٨٣	٢٢
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١١ ١٦	٨ ١٠ -	٧٧٦ يناير ٧٧٦	٢٠ يونيو ٤٩٢	٢٣
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- - ١٥	٢٢ - -	٧٧٩ يناير ٧٧٩	١٦ يونيو ٥١٥	٢٤
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- - ١٢	٢٠ ٢ ٢١	٨١٩ أبريل ٨١٩	٢٢ يونيو ٥٢٢	٢٥
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- - ٧	١٠ ٩ ٩	٨٢٠ أبريل ٨٢٠	١١ أكتوبر ٥١٦	٢٦
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	١ ١ ١٧	- ٧ ١٥	٨٢٠ سبتمبر ٨٢٠	٣ يناير ٥٤٧	٢٧
عبد الملك بن مروان	فهرسية بالإسكندرية	المرقسية	- ١ -	١٧ ١١ ٢	٨٤٩ أكتوبر ٨٤٩	٢٣ يناير ٥٦٦	٢٨

ثورات القبط ما جاء في كتاب الكندي

- ١- سنة ١٠٧ هـ ، زمن ولاية الحر بن يوسف وخلافة هشام بن عبد الملك انتفضت كورة نتو وتمي وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي .
- ٢- سنة ١٢١ هـ ، زمن ولاية حنظلة بن صفوان الثانية .
- ٣- ١٣٢* ، زمن ولاية عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير مولي لخم خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود .
- ٤- ١٣٢ هـ ، زمن قدوم مروان بن محمد إلى مصر خالفت القبط برشيد .
- ٥- شوال ١٣٥ هـ ، زمن ولاية أبي عون وخلافة مروان بن محمد** خرج أبو مينا القبطي بسمنود .
- ٦- ١٥٠ هـ ، زمن ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة وخلافة أبي جعفر ، خرج القبط بسخا وصاروا إلى شبرا سنباط ، وانضم اليهم البشرد والأوسنة والبعجوم .
- ٧- ١٥٦ هـ ، زمن ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي وخلافة أبي جعفر خرج القبط ببليهب .
- ٨- ٢٠٣ هـ ، زمن ولاية السري بن الحكم الثانية ، عارضته القبط بسخا .
- ٩- ٢١٦ هـ ، زمن خلافة المأمون ، ثورة البشرد .

* إضافة التاريخ (و ، أ) المصدر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية د. حسين نصار.

** إضافة اسم الخليفة (و ، أ) المصدر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية د. حسين نصار

ولاية مصر حسب الكندي

- ١- صالح بن علي (١٣٢) هـ ، من قبل أمير المؤمنين أبي العباس عبد الله بن محمد ابن علي (السفاح) .
- ٢- أبو عون عبد الله بن يزيد باستخلاف صالح بن علي ١٣٣ هـ ، ثم استخلف عكرمة ، وفي ١٣٥ هـ ، كان الخراج لعطاء بن نضر جبيل مولي مراد .
- ٣- صالح بن علي "الثانية" ١٣٦ هـ علي الصلاة والخراج .
- ٤- ظابو عون "الثانية" ١٣٧ هـ علي الصلاة والخراج .
- ٥- موسي بن كعب ، من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ١٤١ هـ .
- ٦- محمد بن الأشعث، من قبل أب جعفر المنصور ١٤١ هـ علي الصلاة والخراج .
- ٧- حميد بن قحطبة ، من قبل أبي جعفر علي ١٤٣ هـ علي الصلاة والخراج .
- ٨- يزيد بن حاتم، من قبل أب جعفر المنصور ١٤٤ هـ علي الصلاة والخراج .
- ٩- عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حنيج ١٥٢ هـ، من قبل جعفر المنصور .
- ١٠- محمد بن عبد الرحمن بن حنيج ١٥٥ هـ .
- ١١- موسي بن علي بن رباح اللخمي ١٥٦ هـ .
- ١٢- عيسى بن لقمان الجمحي، من قبل المهدي ١٦١ هـ علي الصلاة والخراج .
- ١٣- واضح مولي أبي جعفر من قبل المهدي علي الصلاة والخراج ١٦٢ هـ .
- ١٤- منصور بن يزيد بن منصور الرعيني، من قبل المهدي علي الصلاة . ١٦٢ هـ .
- ١٥- سحي بن نواد الخراسي الشهير بابن معدود ، من قبل المهدي ١٦٢ هـ علي الصلاة والخراج .

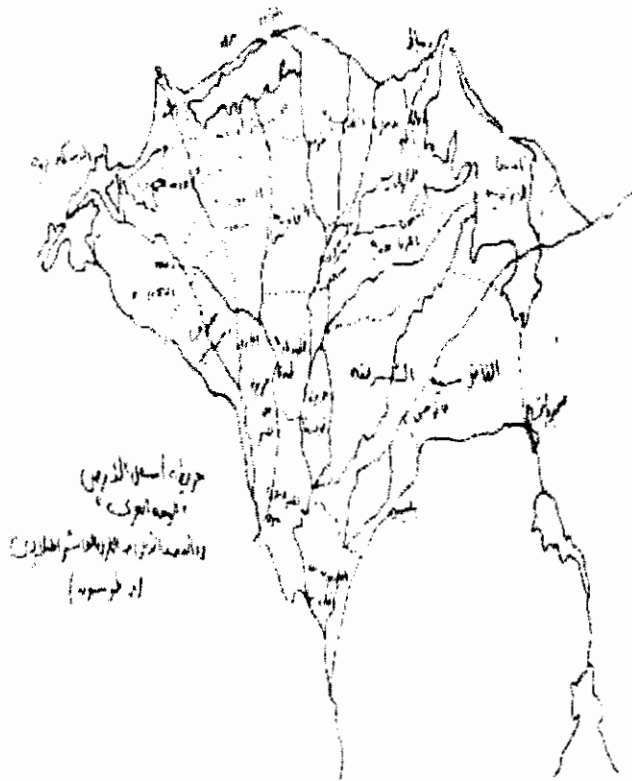
- ١٦- سالم بن سودة التميمي ، من قبل المهدي علي الصلاة ١٦٤ هـ .
- ١٧- إبراهيم بن صالح ، من قبل المهدي علي الصلاة والخراج ١٦٥ هـ .
- ١٨- موسى بن مصعب الخشعمي ، من قبل المهدي علي الصلاة والخراج ١٦٧ هـ .
- ١٩- عسامة بن عمرو المعافري .
- ٢٠- الفضل بن صالح بن علي العباسي ، من قبل المهدي علي الصلاة والخراج ١٦٩ هـ .
- ٢١- علي بن سليمان العباسي ، من قبل موسى الهادي علي الصلاة والخراج ١٦٩ هـ .
- ٢٢- موسى بن عيسى بن موسى العباسي ، من قبل هارون الرشيد علي الصلاة ١٧٢ هـ .
- ٢٣- مسلمة بن يحيى الجبلي ، من قبل هارون الرشيد علي الصلاة ١٧٢ هـ .
- ٢٤- محمد بن زهير الأزدي ، من قبل الرشيد علي الصلاة والخراج ١٧٣ هـ .
- ٢٥- دواد بن يزيد المهلبلي ١٧٤ هـ .
- ٢٦- موسى بن عيسى العباسي "الثانية" علي الصلاة والخراج ، من قبل الرشيد ١٧٥ هـ .
- ٢٧- إبراهيم بن علي صالح العباسي "الثانية" من قبل الرشيد علي الصلاة والخراج ١٧٦ هـ .
- ٢٨- عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي، من قبل الرشيد علي الصلاة ١٧٦ هـ .
- ٢٩- إسحق بن سليمان ، من قبل الرشيد علي الصلاة ١٧٧ هـ .
- ٣٠- هرثمة بن أعين ، من قبل الرشيد علي الصلاة والخراج ١٧٨ هـ .

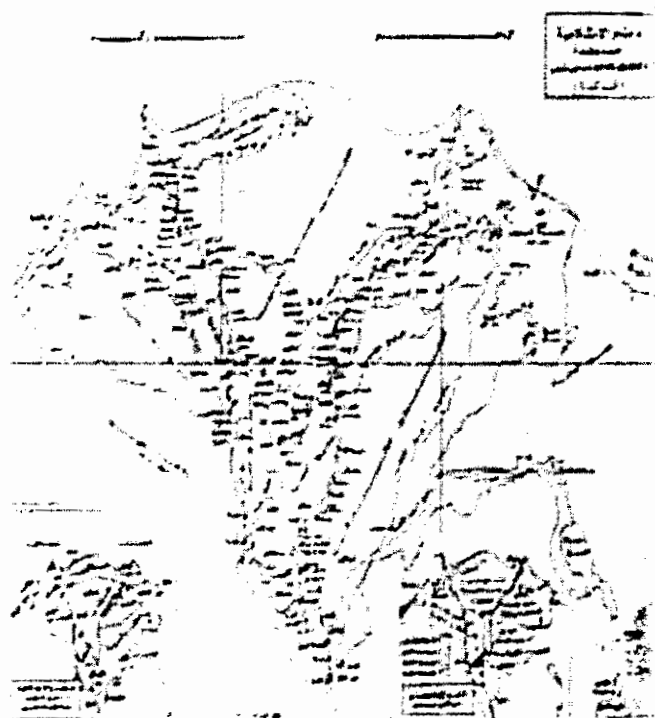
- ٣١- عبد الملك بن صالح بن علي العباسي ، من قبل الرشيد علي الصلاة
والخراج ١٧٨ هـ .
- ٣٢- عبيد الله بن المهدي العباسي ، من قبل الرشيد علي صلاتها وخراجها
١٧٩ هـ .
- ٣٣- موسى بن عيسى "الثالثة" من قبل الرشيد علي صلاتها ١٨٠ هـ .
- ٣٤- عبيد الله بن المهدي "الثانية" من قبل الرشيد علي صلاتها ١٨٠ هـ .
- ٣٥- إسماعيل بن صالح العباسي ، من قبل الرشيد علي صلاتها ١٨١ هـ .
- ٣٦- إسماعيل بن عيسى العباسي ، من قبل الرشيد علي صلاتها ١٨٢ هـ .
- ٣٧- الليث بن الفضل ، من قبل الرشيد علي صلاتها وخراجها ١٨٧ هـ .
- ٣٨- عبد الله بن محمد العباسي ، من قبل الرشيد علي صلاتها ١٩٠ هـ .
- ٣٩- الحسين بن جميل ، من قبل الرشيد علي صلاتها ١٩٠ هـ .
- ٤٠- مالك بن دهم الكلبى ، من قبل الرشيد علي الصلاة ١٩٢ هـ .
- ٤١- الحسن بن التختاخ ، من قبل الرشيد علي صلاتها وخراجها ١٩٣ هـ .
- ٤٢- حاتم بن هرثمة بن أعين ، من قبل محمد بن هارون الأمين علي صلاتها
وخراجها ١٩٥ هـ .
- ٤٣- جابر بن الأشعث الطائي ، من قبل محمد الأمين علي صلاتها وخراجها
١٩٥ هـ .
- ٤٤- عباد بن محمد بن حيان ، من قبل المأمون علي صلاتها وخراجها
١٩٦ هـ .
- ٤٥- المطلب بن عبد الله الخزاعي ، من قبل المأمون علي صلاتها وخراجها
١٩٨ هـ .

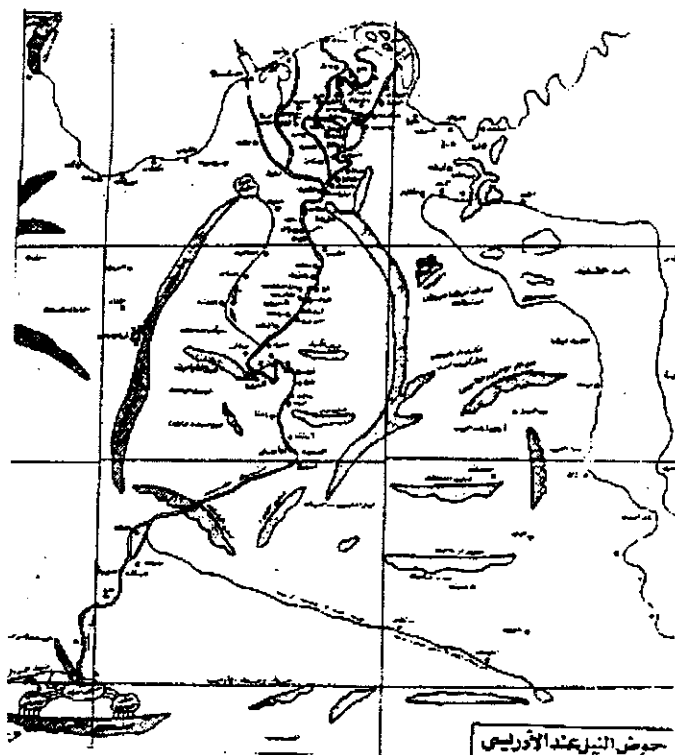
- ٤٦- العباس بن موسى بن عيسى العباسي ، من قبل المأمون علي صلاتها وخراجها ١٩٩ هـ .
- ٤٧- المطلب بن عبد الله (الثانية) ١٩٩ هـ .
- ٤٨- السري بن الحكم علي صلاتها وخراجها ٢٠٠ هـ .
- ٤٩- سليمان بن غالب بن جبريل البجلي علي صلاتها وخراجها ٢٠١ هـ .
- ٥٠- السري بن الحكم "الثانية" من قبل المأمون علي صلاتها وخراجها ٢٠١ هـ .
- ٥١- أبو النصر بن السري علي الصلاة والخراج ٢٠٦ هـ .
- ٥٢- عبيد الله بن السري علي الصلاة والخراج ٢٠٦ هـ .
- ٥٣- عبد الله بن طاهر ٢١٠ هـ .
- ٥٤- عيسى بن يزيد الجلودي ، من ابن طاهر أولا ، ثم من المعتصم علي الصلاة والخراج ٢١٤ هـ .
- ٥٥- عمير بن الوليد ، من أبي إسحاق بن الرشيد علي الصلاة ٢١٤ هـ .
- ٥٦- عيسى بن يزيد الجلودي (الثانية) ٢١٤ هـ .
- ٥٧- عبد ربه بن حبله من قبل أبي إسحاق علي الصلاة ٢١٥ هـ .
- ٥٨- عيسى بن منصور ، من قبل أبي إسحاق علي الصلاة ٢١٦ هـ .

ملحوظ

خزائن رحمة والإفصهار



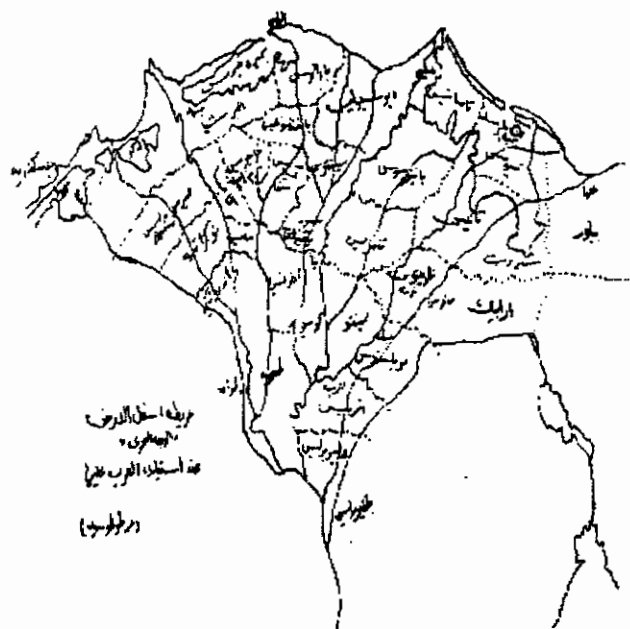




خريطة العالم للأندلسى



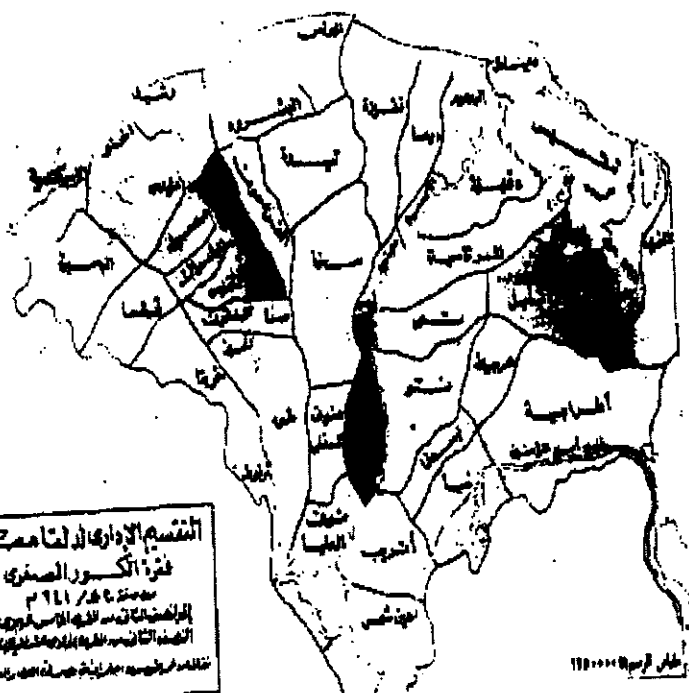
المسرح التاريخى للإسلام / د. حسن مؤمن : الزعماء للإعلام العربى : الطبعة
الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م



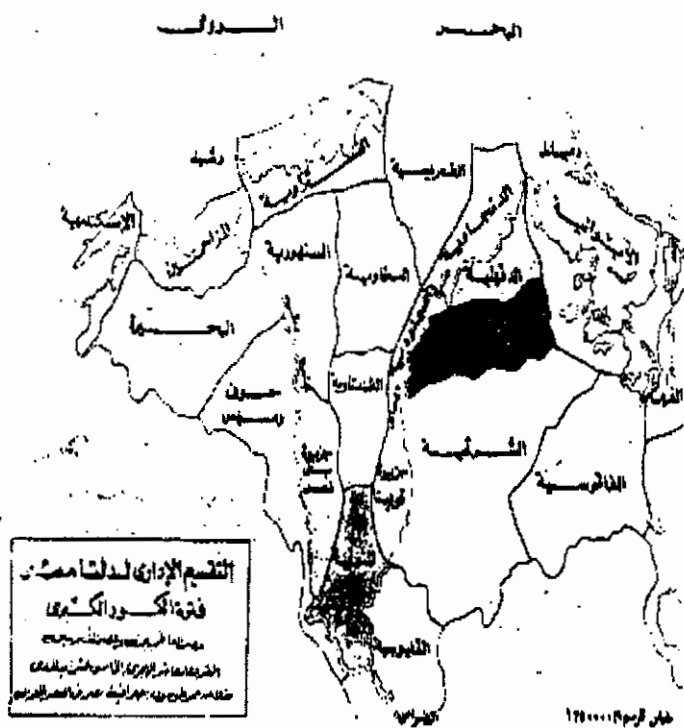
تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم
الذي نسب خطأ إلى أبي صالح الأرمني الجزء الأول الوجه البحري والعاخرة
إعداد وتعليق / الراهب صموئيل السرياني
« بدون تاريخ »

المسرح

المجلة



التقسيم الإداري للقطاع
غزة - الكسور - الصنبري
محافظة غزة / ١٩٦١ م
إلى الضيفات في القاعة المخصصة
التي تأسست في غزة
تقدمت في سنة ١٩٦١ م



مراجع الجزء الأول (مكايات الدخول)

فهرس المراجع العربية

- ١- ابن دقماق ، الجزء الرابع من كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية الكبرى ، ١٣٠٩هـ
- ٢- ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلى المغرب ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٣م ، تحقيق د. زكي محمد حسن ، شوقي ضيف ، سيدة الكاشف ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر .
- ٣- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، تحقيق مصطفى السقا ، كامل المهندس ، ١٩٦٩م .
- ٤- ابن الشبه أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري : كتاب تاريخ المدينة المنورة ، حققه فهم محمد شلتوت ، الجزء الأول .
- ٥- ابن المأمون الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة .
- ٦- ابن عبد الملك العصامي المكي : سمط العوإلى في أنباء الأوائل والتوالي ، د. ت. د. ن .
- ٧- أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان : طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل سنة ١٣٠٢هـ .
- ٨- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك .
- ٩- أبو الفرج الأصبهاني علي بن الحسين : كتاب الأغاني ، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، تحقيق على النجدي ناصف .
- ١٠- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، سلسلة تراثنا ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، الجزء الأول .

- ١١- أبو العباس محمد بن يزيد المُبرد : الكامل ، دار نهضة مصر.
- ١٢- أبو القسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، غني بنشره وتصحيحه هنري ماسيه.
- ١٣- أبو القاسم ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل ، ١٨٧٣م.
- ١٤- أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، مطبعة الآباء إلى سوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- ١٥- أبي عمر محمد بن يوسف الكندي : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم العدوي ، على محمد عمر ، الطبعة الأولى ، مطبعة وهبة ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧١م.
- ١٦- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، تحقيق يوسف أسعد داغر.
- ١٧- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : التنبيه والإشراف غني بتصحيحه عبد الله إسماعيل الصاوي المكتبة التاريخية / ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.
- ١٨- أبو السرور الصديق الشافعي : القول المختضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب.
- ١٩- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الأول ، وزارة التربية والتعليم ، قسم نشر التراث ، ١٩٥٧م.
- ٢٠- أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلانزي : كتاب فتوح البلدان ، القسم الأول ، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه د. صلاح الدين المنجد ، مكتبة نهضة مصر.
- ٢١- أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، مراجعة عبد الحميد حسن السفر الرابع ١٩٦٧م.
- ٢٢- الألويسي : بلوغ الأرب في أحوال العرب ، الجزء الأول.

- ٢٣- الواقدي : كتاب فتوح الشام.
- ٢٤- الواقدي : كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونسن ، مطبعة جامعة أكسفورد.
- ٢٥- إلى عقوبي : تاريخ إلى عقوبي ، مطبعة العزى ، النجف.
- ٢٦- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ : المقفى الكبير ، تحقيق محمد إلى علاوي ، دار الغرب الإسلامي ، أربعة أجزاء.
- ٢٧- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ : للمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية ، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع ، جزءان.
- ٢٨- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / الطبعة الرابعة.
- ٢٩- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة سلسلة تراثا / الجزء الأول المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة..
- ٣٠- زين الدين بن عمر بن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) ، إشراف وتحقيق : أحمد رفعت البدراني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان.
- ٣١- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مكتبة المقدسي ، ١٣٦٧هـ.
- ٣٢- شمس الدين الذهبي : التتاريخ الكبير أو تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القسم الأول الخاص بالمغازي ، تحقيق د. محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الكتب ، ١٩٧٣م.
- ٣٣- شمس الدين الذهبي : سير النبلاء ، جزء مخصوص بأبرز امرأة في تاريخ الإسلام عائشة بنت أبي بكر الصديق ، قنمه وطبعه سعيد الأفغاني ، مطبعة الترقى ، دمشق.

- ٣٤- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.
- ٣٥- القرشي : معالم القرية في أحكام الحسية ، د. ن ، د. ت.
- ٣٦- كمال الدين الميري : كتاب حياة الحيوان الكبرى ، الجزء الأول ، د. ن ، د. ت.
- ٣٧- عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، كتاب البداية والنهاية ، د. ن ، د. ت.
- ٣٨- عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، الطبعة الثانية.
- ٣٩- علي باشا مبارك : الخطط الجيدة التوفيقية لمصر القاهرة ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، ١٣٠٦هـ.
- ٤٠- محمد بن سعد كاتب الواقدي : كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق إدوارد سخو ، طبع في مدينة لينن المحروسة ، ١٣٢٢هـ ، طبعة أخرى : دار المعرفة للطباعة والنشر.
- ٤١- محمد عبد الملك بن هشام المعافري : السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الثالث ، مكتبة للكتابات الأزهرية.

فهرس المراجع القبطية

- ١- الأب متى المسكين : الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار ، دير القديس أنبا مقار ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م .
- ٢- ابن العسال : المجموع الصفوي ، طبعه خاصة لدارسي القانون الكنسي، أعدها للنشر القس يوسف عوض تادرس ، ١٩٩٠ م .
- ٣- الأنبا غريغوريوس أسقف عاد الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي : الدير المحرق تاريخه ووضع وكل مشتملاته .
- ٤- إيريس حبيب المصري : قصة الكنيسة المصرية من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨م .
- ٥- ساويروس بن المقفع أسقف الأشمونيين : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الأول من مارمرقس حتى البابا يوساب ، أعدها للنشر صموئيل السرياني .
- ٦- ساويروس بن المقفع : كتاب مصباح العقل ، تقديم وتحقيق الأب سمير خليل ، التراث العربي المسيحي (١) ، ١٩٧٨ م .
- ٧- جورج شحاته قنواتي : المسيحية والحضارة العربية ، دار الثقافة .
- ٨- سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ، دار الكرنك للنشر .
- ٩- كامل صالح نخلة : البابا بنيامين الأول البطريرك الثامن والثلاثون والفتح العربي لمصر مكتبة المحبة ، ١٩٤٨ م .
- ١٠- لويس شيخو : شعراء النصرانية بعد الإسلام ، منشورات دار المشرق ، بيروت .
- ١١- مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ، مطبعة دار العالم العربي .
- ١٢- يوحنا النقيوسي : مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي ، دراسة دكتوراه ، عمر صابر كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

فهرس المراجع الحديثة

- ١- أحمد الشبول : علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة (الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم) ، جامعة الملك سعود ، الجزء الثاني ، ١٤١٠ هـ .
- ٢- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢ م .
- ٣- بتلر ، د. ألفرد ج بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٠ سلسلة " من تاريخ مصر " (١) .
- ٤- جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٩٢ م ، دكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، كراسات التاريخ المصري ، ١٩٥١ م .
- ٥- حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة .
- ٦- حسن الباشا : فن التصوير في مصر الإسلامية ، دار النهضة العربية ١٩٦٦ م .
- ٧- حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، دار الزهراء للإعلام العربي .
- ٨- حسين نصار : الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ، منشورات اقرأ ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- ٩- زبيدة عطا : الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي ، سلسلة تاريخ المصريين ، (٤٨) ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩١ م .

- ١٠- زببدة عطا : إقلىم المنبا فى العصر الببزنطى فى ضوء أوراق البردى، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .
- ١١- سعاد ماهر : البخرىة فى مصر الإسلامىة وأثارها الباقىة وزارة الثقافة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .
- ١٢- سعبد حوى : الرسول صلى الله علبه وسلم ، جزءان معاً ، مكتبة وهبة.
- ١٣- سبدة إسماعبل الكاشف : الأرض والفلاح فى مصر الإسلامىة ، مجلة الجمعية المصرىة للدراسات التارىخىة ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- ١٤- سبدة إسماعبل الكاشف : تارىخ مصر الإسلامىة ، موسوعة تارىخ مصر عبى العصور (بالاشتراك مع آخرىن) ، سلسلة تارىخ المصرىىن (٦٣) ، الهيئة المصرىة العامة للكتاب .
- ١٥- فبكتور سحاب : إبلاف قرىش رحلة الشتاء والصبف ، المركز الثقافى العربى .
- ١٦- عبى الخالق سبى أبو راببه : عمرو بن العاص ببب بىدى التارىخ ، الزهراء للإعلام العربى .
- ١٧- عبى الله خورشبى البرى : القبائل العربىة فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م .
- ١٨- محمد كامل حسبن : ألب مصر الإسلامىة فى عصر الولاة ، دار الفكر العربى .
- ١٩- محمد عفبفى : الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ، تارىخ المصرىىن ، (٥٤) ، الهيئة العامة للكتاب .

- ٢٠- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م مطبعة دار الكتاب المصرية ، ١٩٥٣ م.
- ٢١- مصطفى العبادي : الرض والفلاح في مصر الرومانية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ٢٢- مصطفى العبادي : موقع نصتان في ضوء الوثائق البريدية ، جامعة الملك سعود الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، الجزء الثاني ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م .

مراجع الجزء الثاني (رحلة الإنصار)

- ١- تاريخ البطارقة وبابوات الكرسي المرقصي السكندري / ساويرس بن المقفع ، قام بنشره يس عبد المسيح وأولد برمتي / مطبوعات جمعية الآثار القبطية - قسم النصوص والوثائق / القاهرة ١٩٤٣ .
- ٢- ولاية مصر / محمد بن يوسف الكندي / تحقيق د. حسين نصار / دار الصادر - بيروت.
- ٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ / أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الشافعي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ / المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ .
- ٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور / تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي / حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى / مركز تحقيق التراث / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- ٥- المقفي الكبير / أحمد بن علي المقرئ .
- ٦- تاريخ اليعقوبي / تأليف أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري المتوفي سنة ٢٩٢ هـ / من نشرات المكتبة المرتضوية في النجف / مطبعة العزى النجف ١٣٥٨ هـ .
- ٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤ هـ) دار الكتب / القاهرة ١٩٢٩م .
- ٨- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار / المقرئ / مكتبة مدبولي / القاهرة .

- ٩- تاريخ خليفة بن خياط التعصيري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م) رواية تقي بن مخلد / حققه سهيل زكار / منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي / دمشق ١٩٦٨ .
- ١٠- خير الدين الزركلي / الإعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٧٩/١٩٨٠ .
- ١١- هرمبوليس ماجنا (الأشمونين) في العصر الروماني / بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية حتى سنة ٢٨٤م / إعداد أمال محمد الروبي / رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، قسم التاريخ ١٩٧١م .
- ١٢- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية / حسين نصار / اقرأ للطباعة والنشر / بيروت ١٩٨٦ .
- ١٣- عصر المأمون / بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعي المفتش بوزارة الداخلية / المجلد الثالث، الطبعة الثانية / مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م .
- ١٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / لأبي الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان ١٩٩٢م .
- ١٥- الفهرست / لابن النديم / مطبعة الاستقامة / القاهرة .
- ١٦- البشموري / رواية / سلوى بكر / دار الهلال / القاهرة ١٩٩٨م .

- ١٧- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار / المجلد الأول / أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد.
- ١٨- القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة / عبد الله خورشيد البري / الهيئة المصرية للكتاب / القاهرة ١٩٩٢م.
- ١٩- تاريخ مصر ليوحنا النقيوس / رؤية قبطية للفتح الإسلامي / د. عمر صابر عبد الجليل الطبعة الأولى / عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية / القاهرة ٢٠٠٠م.
- ٢٠- فتوح البلدان / تصنيف الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري / حققه وشرحه وعلق على حواشيه عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع / منشورات مؤسسة المعارف / بيروت - لبنان.
- ٢١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم / للمقدس المعروف بالبشاري / الطبعة الثالثة طبع في مدينة لندن المحروسة بمطبعة بريل سنة ١٩٠٦م / مكتبة مذبولي - القاهرة.
- ٢٢- تاريخ القضاء في الإسلام / ابن عرنوس / المطبعة المصرية الأهلية الحديثة بالقاهرة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م.
- ٢٣- القضاء الذين ولوا قضاء مصر / الكندي / طبع بمدينة رومية العظمى ١٩٠٨م.
- ٢٤- أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام / الشريف أبي جعفر محمد بن عبد العزيز الحسيني الإدريسي (توفي سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م) حققه وقدم له ألريش هارمان / نصوص ودراسات سلسلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت / بيروت ١٩٩١م.

- ٢٥- رحلة ابن بطوطة / تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار / للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة / المطبعة الخيرية لصاحبها عمر حسين الخشاب - صفر سنة ١٣٢٣ هـ .
- ٢٦- تاريخ الإسلام والمسلمين في أزهى عصور الخلافة العباسية / مجدي فتحي السيد / سلسلة صحيح التوثيق (٦) / دار الصحافة للتراث بطنطا - الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.
- ٢٧- سواحل مصر - بحوث في الجيومورفولوجيا / د. محمد صبري محسوب سليم / دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٤ .
- ٢٨- الأرض والفلاح في مصر على مر العصور / الجمعية المصرية للدراسات التاريخية / القاهرة ١٩٧٤ م.
- ٢٩- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام / آدم ميتز / ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده / المجلد الأول / دار الكتاب العربي - بيروت لبنان ١٩٦٧ م / ط الرابعة.
- ٣٠- العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين - التاريخ السياسي - الجزء الأول / د. عبد المنعم ماجد / مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م.
- ٣١- أوراق البردي العربية لدار الكتب المصرية / جمعها وعلق عليها ووصفها بالإنجليزية أدولف جروهمان أستاذ اللغات السامية وتاريخ الثقافة الشرقية بجامعة براغ التشيكوسلوفاكية / اشترك مع المؤلف في نقل الكتاب إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن / راجع الترجمة عبد الحميد حسن / مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٤٣ م .
- ٣٢- الأرض والفلاح في مصر الرومانية / مصطفى العبادي .

- ٣٣- الأرض والفلاح في مصر الإسلامية / د. سيدة إسماعيل الكاشف .
- ٣٤- أدب مصر الإسلامية / عصر الولاة / محمد كامل حسين .
- ٣٥- فتوح مصر وأخبارها / ابن عبد الحكم / صفحات من تاريخ مصر (١٠) / الناشر مكتبة مدبولي ١٩٩١م / ط الأولى.
- ٣٦- أهل الزمة في الإسلام / د. أ. س. ترتون / ترجمة وتعليق د. حسن حبشي / تاريخ المصريين (٧٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب / ط الثانية .
- ٣٧- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة / تأليف علي باشا مبارك / الطبعة الثانية عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٥هـ / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .
- ٣٨- أطلس تاريخ الإسلام / د. حسين مؤنس / الزهراء للإعلام العربي / القاهرة ١٩٨٧ م .
- ٣٩- مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية / سيدة إسماعيل الكاشف / دار الفكر العربي / القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٤٠- الكامل في التاريخ / تأليف الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير / المجلد السادس / دار صادر - بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- ٤١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب / للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٩٨ / دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .

- ٤٢- آثار البلاد وأخبار العباد / تصنيف الإمام العالم زكريا محمد بن محمود القزويني / دار صادر / بيروت ١٩٦٩ م .
- ٤٣- الليث بن سعد / د. عبد الحليم محمود شيخ الأزهر / سلسلة الإعلام (١٣) / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
- ٤٤- الملابس في العصرين القبطي والإسلامي / تأليف ثناء عبد الرحمن بلال مدرس تاريخ الملابس بالمعهد العالي للفنون المسرحية / الناشر دار النهضة العربية ٨٢-١٩٨٣م.
- ٤٥- تاريخ التربية القبطية / سليمان نسيم / دار الثقافة العربية / القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٤٦- معالم القرية في أحكام الحسبة / محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م / ٥٧٢٩ - ١٣٢٩م) / تحقيق د. محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطيعي / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.
- ٤٧- الجزية والإسلام / تأليف دانييل دينيث / ترجمه وقدم له د. فوزي فهم جاد الله - راجعه د. إحسان عباس / منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٠ م.
- ٤٨- الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات / د. أيمن فؤاد السيد / الجزء الأول / الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧ م / ط الأولى.
- ٤٩- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك / تقي الدين أحمد بن علي المقرئ / حققه وعلق على حواشيه جمال الدين الشيال / مكتبة الخانجي مصر، ومكتبة المثني ببغداد / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٥ م.

- ٥٠- الانقلاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار / د. حسن الباشا / مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م.
- ٥١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا / لأبي العباس أحمد بن علي للقلقشندي (١٤١٨م - الجزء الثالث/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة / سلسلة تراثنا.
- ٥٢- الولاة والقضاة / لأبي عمر محمد بن يوسف المصري للكندي / د. حسن أحمد محمود / الهيئة المصرية العامة للكتاب / سلسلة أعلام العرب ١٩٧٧م.
- ٥٣- تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك / للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري / راجعه وصححه وطبعه نخبة من العلماء الأجلاء / منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / الجزء السابع / بيروت - لبنان.
- ٥٤- كتاب الفتوح / للعلامة أبي محمد أحمد بن عمر الكوفي المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ / ٩٦٢م / المجلد الثامن / دار الندوة الجديدة / بيروت - لبنان.
- ٥٥- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق / لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي / عالم الكتب - الجزء الأول.
- ٥٦- تاريخ وجدول بطاركة الإسكندرية القبط، وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين / تاريخ الأمة القبطية / الحلقة الرابعة / كامل صالح نخلة / لجنة التاريخ القبطي ١٩٤٣م.
- ٥٧- تاريخ أبرشية دمياط / الجزء الأول (محافظة دمياط) / تقديم نيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي / تأليف القمص بيشوي عبد المسيح وكيل مطرانية دمياط.

- ٥٨- شذور العقود في ذكر النقود / أحمد بن علي المقرئ / دراسة وتحقيق د. محمد عبد الستار عثمان / مطبعة الأمانة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٥٩- عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة وكيف هيئة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارها ومعرفة جبالها وجميع ما وراء خط الاستواء والطول والعرض بالمسطرة والحساب والعدد والبحث في جميع ما ذكر / تصنيف سهراب / اعتنى بنسخة وتصحيحه هاترفون ثريك / طبع في مدينة فيينا بمطبعة أدولف هولزهوزن ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.
- ٦٠- تقويم النيل / أمين سامي / دار الكتب / القاهرة ١٩٣٦م.
- ٦١- تقويم البلدان / لأبي الفدا.
- ٦٢- الألقاب والحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية / دراسة أثرية حضارية - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الآثار الإسلامية من قسم الآثار الإسلامية - جامعة القاهرة كلية الآثار / د. سعيد مغاوري محمد - إشراف حسن الباشا، وعبد العزيز عبد الدايم / المجلد الأول ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٦٣- حياة الحيوان الكبرى / كمال الدين الدميري / الجزء الأول / مطبعة الاستقامة / القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٩م.
- ٦٤- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة / لابن ظهيرة / تحقيق مصطفى السقا - كامل المهندس / ج.م.ع - وزارة الثقافة - مركز تحقيق التراث / مطبوعات دار الكتب ١٩٦٩م.
- ٦٥- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / تأليف الوزير الفقيه أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفى سنة ٤٨٧هـ / الجزء الأول / عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه مصطفى

- السقا / ط الأولى / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م.
- ٦٦- مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام / د. إبراهيم أحمد العدوي / هيئة الآثار المصرية / القاهرة ١٩٩٢ م.
- ٦٧- المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية محكمة / جامعة القاهرة كلية الآداب (٤) يوليو ١٩٨٩ / يصدرها قسم التاريخ / شرق الدلتا منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي / د. بدر عبد الرحمن محمد.
- ٦٨- المؤرخ المصري، دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة / جامعة القاهرة كلية الآداب / يصدرها قسم التاريخ / العدد الخامس عشر يوليو ١٩٩٥ / صناعة الورق والوراقة في بلاد الشام في العصر الفاطمي بقلم د. محمد زيود.
- ٦٩- المؤرخ المصري / يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة / العدد الثاني والعشرون يوليو ١٩٩٩ / السكة الإسلامية في مصر (٢١ - ١٥٤ هـ) / د. منى حسن محمود.
- ٧٠- نخبة الفكر في تدبير نيل مصر / تأليف الأمير الجليل سعادة علي مبارك باشا ناظر الأشغال العمومية / ط الأولى / مطبعة وادي النيل العربية والإفريقية بالقاهرة المحروسة بباب الشعرية ١٢٩٧ هـ .
- ٧١- مسلمون وأقباط / جاك تاجر.
- ٧٢- مقدمة في العمارة القبطية الرفاعية / حجاجي إبراهيم محمد / مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة ١٩٨٤ م.
- ٧٣- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد المصريين إلى سنة ١٩٤٥ / وضعه وحققه وعلق عليه محمد رمزي / تقديم دكتور عبد العظيم

- رمضان / مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القسم الأول - البلاد المندرسية.
- ٧٤- قوانين الدواوين / للأسد بن ماتي الوزير الأيوبي المتوفى ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م / الجمعية الزراعية الملكية / جمعه وحققه عزيز سوريال عطية / مطبعة مصر ١٩٤٣م.
- ٧٥- معجم البلدان / للشيخ الغمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي / الجزء الأول / دار صادر - بيروت.
- ٧٦- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران / المسعودي / دار الأندلس للطباعة والنشر ١٩٦٦م.
- ٧٧- أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية / حقق النصوص د. عبد العزيز الدالي.
- ٧٨- تاريخ التراث العربي / فؤاد سزكين / الجزء الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.
- ٧٩- فضائل مصر وأخبارها وخواصها / ابن زولاق / تحقيق د. علي محمد عمر / الهيئة المصرية العامة للكتاب - التراث / مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
- ٨٠- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير / أبو الفتح محمد بن محمود بن سيد الناس اليعمرى (ت ٥٧٣٤هـ) / نشرته مكتبة القدس في جزأين / القاهرة ١٣٥٦هـ .
- ٨١- مختصر تاريخ الدول / ابن العبري جريجوريوس المالطي / الجزء الثاني / بيروت ١٩٥٨م.
- ٨٢- معجم القبائل العربية / عمر رضا كحالة / دمشق ١٩٤٩م.
- ٨٣- نهاية الأدب في معرفة قبائل العرب / القلقشندي / القاهرة ١٩٥٥م.

- ٨٤- إمتاع الأسماع / المقريري / لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م.
- ٨٥- الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث / لمؤلفه ميخائيل شارويعم بك رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة.
- ٨٦- دراسات عن المقريري.
- ٨٧- الدبر المحرق ، تاريخه ووصفه وكل مشتملاته / الأنبا جريجوريوس أسقف عام الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمي.
- ٨٨- فهرس الوقائع والحوادث في سير أعلام النبلاء / شمس الدين الذهبي.

فهرست

	أولا : فكايات الفءول
٣	الفصل الأول :
١١	ماريا القبطية - غربه ففء الموت
	الفصل الففء :
٤٥	وفاف الففء وسير الفاففء
٦٢	العرب ففءلارون على السلطف
٨٦	النساء فشاركف ففء الففءال العرب / العربف
٩١	فال قبط مصر
١١٠	بورفرفاء الفافة ففء مخطوطف فوفنا النقفوسف
١١٨	صوف قبطف آفر
١٣٢	الوفاف للمشفرفة بفف مؤرفف قبط مصر والمؤرففن العرب
	الفصل الففء :
١٣٩	معازل فف كل مكان
١٩٢	أفءاف الففء فف وفففة فوفنا النقفوسف
٢٠٧	فاففا : رفلة الانصهار
٢٠٨	مقدمه بفء الرفل
٢١١	مفءة سنة مقافومة
٢٥٧	الكنفسة مع من . . . وفء من . . . ؟
٢٨٤	فورات القبط
٢٨٩	ملفف فرافف رفلة الانصهار
٢٩٩	فهرس المرافع العربفة " فكايات الفءول "

-
- | | |
|-------|------------------------------|
| ٣٠٣ | فهرس المراجع القبطية |
| ٣٠٤ | فهرس المراجع الحديثة |
| ٣٠٧ - | فهرس مراجع " رحلة الانصهار " |

